مسحوق الجسد

رواية



أحمد السعيد



مسحوق الجسد

رواية

أحمد السعيد

السعيد، أحمد
مسحوق الجسد / أحمد السعيد
روافد للنشر والتوزيع. 2015 ط أولى، القاهرة
314 ص ؛ 21 سم
1-رواية
2-العنوان
أ- المؤلف
رقم التصنيف: 813.008
رقم الإيداع: 16664 /2014
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -064 -5



روافد للنشر والتوزيع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

مسحوق الجسد

ينتفض الصدر متنهدًا عن زفرة حارة، وقفت تتأمل العربات الفارهة تمرق أمامها مخترقة قلب الطريق، ها هي الإسكندرية وشارع الكورنيش، وجه العالم البهيج. تغسل الأضواء الصفراء رمال الشاطئ، تزهو المدينة في هذا الوقت من الليل بنفسها، تتمايل وتتبختر أمام أعين روادها، يعلو صوت أمواجها مُباريًا ومنافسًا صوت موسيقى الديسكو التي تصدح بها الكازينوهات الممتدة بطول الشاطئ.

عادت تتأمل رواد الصالات الصاخبة، الصدور الناهدة، والأرداف المدملجة، والبطون المشدودة، العيون المكحولة، والشعور المسدلة على الأكتاف العارية، كم تأمل أن تكون واحدة منهن، من هؤلاء النسوة اللاتي يصطحبهن الرجال إلى الحفلات الصاخبة، حيث تصدح الموسيقى، وتُسال الخمور لتَملأ الكؤوس، وتُملأ الموائد بأشهى المأكولات.

انعكست الأضواء على صفحة المياه فأضاءتها، غاصت ببصرها في الظلام الممتد خلف المساحات المضاءة من البحر، تحسست، دون قصد، صدرها، فاصطدمت أصابعها بالثلاثمائة جنيه الذين تحتفظ بهم في صدرها. في الليلة السابقة تقاضت هذا المبلغ ثمنًا لمغادرتها غرفة العلواية، تلك الغرفة التي كانت تقيم فيها مع أمها وأختها حتى أيام قليلة مضت.

هل تعد ما أقدمت عليه نوعًا من المخاطرة أو المغامرة؟ فمن السهل أن يطير هذا المبلغ الصغير التي تعتزم أن تبدأ به حياة جديدة على "وش" الدنيا، هنا على الكورنيش.

منذ عشرة أيام فقط ماتت أمها بعد رحلة مرض طويلة. قامت بدفنها في مقابر الصدقة.. سنوات من المرض انقطعت فيها عن عملها كغسالة لملابس الصعايدة المغتربين المقيمين بالعلوايه بعيدًا عن أسرهم، نظير جنيهات قليلة كل شهر، كانت تكفي، بالكاد، مع معاش أبيها لإعالتهم.

وعندما مرضت الأم، وتوقفت جنيهات الصعايدة المغتربين عن الورود، وأصبحت جنيهات المعاش عاجزة عن مد الأسرة بالكفاف، كان عليها أن تبحث عن مورد جديد، دون أن تمس كرامة أمها، التي صبرت على تدبير سبل الحياة لها ولأختها بجنيهات المعاش، متغاضية عن مصدر الملابس الجديدة التي تفاجئها بها من وقت لآخر، متجاهلة مصادر الطعام التي كانت تدخل به عليها هي وأختها من وقت لآخر، تعودت أن تدبر ما تستطيع تدبيره مرددة دائمًا: "ربنا يبارك في القليل".

متجاهلة، في الوقت نفسه، مصدر هذه البركة التي هبطت عليهم فجأة بعد وفاة زوجها ثم مرضها.

كانت فاطمة في العاشرة من عمرها عندما ترامى إلى سمعها همسات نسوة سطوح منزلهم يتحدثن عنها:

- البت فارت قبل الأوان.

رغم البشرة السمراء القاتمة، والتقاطيع الغليظة، إلا أن معالم الجسد فارت قبل الأوان، برزت كأنثى وهي لم تتعد العاشرة من عمرها بعد.

البداية، كانت في صباح باكر، حين عجز رغيف الخبز الجاف عن إشباعها، غادرت غرفة السطوح لا تلوي على شيء، تاركة خلفها أمها وأختها الصغيرة تستدفئان بأنفاسهما، تحاولان إسكات صراخ الجوع والبرد، تتلاصق الوجوه والصدور مصرين على عدم التفريط في الدفء الطبيعي الذي تفوح به الأجساد الحية.

تحسست خطواتها فوق درجات السلم المتكسرة، واصلت هبوطها في العتمة حتى صافح وجهها ضوء الحارة، فاندفعت إليه مبتهجة بتخلصها من ظلمة بئر السلم.

بمجرد أن لامست قدماها أرضية الطريق، اندفعت المياه الحاملة للوحل إلى أصابعها الصغيرة، من خلال الفتحات العديدة في حذائها البالي.

سارت حتى تقاطع حارة العلواية مع الزقاق العمودي عليها، وقع بصرها على "هيمه" جارهم، كان في مثل سنها تقريبًا، وكانت قد تعودت اللعب معه ومع عديد من الأولاد والبنات من قبل.

شاهدته جالسًا فوق حافة الرصيف، منشغلا بمضغ وابتلاع القضمات التي كان يلتهمها من الساندوتش الذي كان معه. سال لعابها، تمنت قضمة واحدة من الساندوتش التي خمنت أن تجويفه يحتوي على شيء ما ساخن.

- بتاكل إيه؟

سألته، كان فمه منتفخا وهو يحاول أن يمضغ بسرعة تلك القضمات الأخيرة التي كانت لا تزال بفمه، رد من بين أسنانه: فول بالسدق.

طالعت بأعين متوترة الجزء الباقي من الساندوتش.

– هات حته.

لم تنتظر إجابته، مدت يدها تخطف منه ما بقي من الساندوتش، وفي لحظة كان فمها قد تلقفه وعملت فيه قواطعها، ولم تمر سوى لحظة واحدة قبل أن يصبح أثرًا بعد عين.

لم تكن قد تعودت أن تأخذ طعامًا من أحد، خاصة الصبيان التي كانت، رغم كل شيء، حريصة في مخالطتهم مع غيرها من البنات، لم تكن أمها قد حذرتها منهم، ولكن أمهات رفيقاتها فعلن ذلك.

ولكنها في هذه اللحظة خرجت على عادتها، دفعتها قسمات وجه هيمه المستلذة بما يمضغ إلى اختطاف بقايا الساندوتش من يده.

كانت على استعداد لأن تفعل أي شيء حتى تحصل على قضمة واحدة من ذلك الفول الساخن المطبوخ بالسدق.

كان هيمه يطالعها مستغربًا، سمعته يقول: كنت حا ادهولك كله علشان أنا شبعت. لكزته في كتفه وهي تطرق بعينيها إلى الأرض، قالت: خلاص بقى، ما تبقاش بايخ يا وله.

طالعها الصبي وآثار الاندهاش لا زالت تعلو ملامحه، ثم قال متأففا متباهيا:

- أصل ده رابع ساندوتش أكله ع الصبح.. أصل أمي عايزاني أطخن وأربرب.

في هذه اللحظة فقط لاحظت عوده النحيل، وجدت نفسها تهمس قائلة:

- أربع ساندوتشات يا ابن المفجوعة.

سمعته يواصل حديثه: زي ما تكون بتعلفني يا بطة.

لم يتلق منها ردًا، راح يتأملها كأنما يرد بنظراته على نظراتها، مد يده يشير إلى صدرها وكتفيها العريضين واستطرد:

- عندك كل اللحم ده.. إنتي بتاكلي إيه؟

لامست أطراف أصابعه صدرها، فمالت بجسدها للخلف.

واصل إشاراته إلى بقية أجزاء جسدها: البطن والأرداف والساقين، شعرت بلذة خفية تسري في أوصالها، أصابعه تكاد تلامس كل جزء يتحدث عنه، إنها بدينة، رغم أنها لم تشعر بالشبع لليلة واحدة.

سمعته يقول: معايا شلن، أروح أجيب به حاجة حلوة.

لم ينتظر ردها، سارع بالاختفاء، بعد لحظات عاد إليها وفي يده باكو لبان مفتوح، قال لها: تاخدي لبان؟

وجدت حرجا في الموافقة، عبّرت بوجهها عن الرفض، ولكنه استطرد متصنعا الإلحاح:

- يا شيخة خدي.. خدي.

ودس في يدها قطعتين من اللبان. غطى الوحل أرضية الزقاق عندما استأنف المطر الهطول بعد توقفه لساعة في الصباح، قالت له: تعالى نتدارى من الشتا في دخلة بيتنا.

عندما سار معها إلى مدخل منزلها المظلم كانت لا زالت تشعر بأطراف أصابعه فوق صدرها.

ألقت نظرة سريعة على الزقاق الخالي من المارة في ذلك الصباح البارد.

ابتلعهما المدخل المظلم، وقفا متلاصقين، راح يحك جسده النحيل بصدرها النابت، شعرت بأنفاسه ساخنة تلفح وجهها، تذكرت أمها وأختها اللتين تستحضران الدفء مستعينتين بأنفاسهما.

سمعته يهمس: ما تجيبي بوسه يا بطة.

أدار وجهه الملتصق بوجهها، فاحتكت شفتاه بوجنتها، شحب وجهها عندما أدرك ذهنها مقصده، تثلجت أطرافها، لم تحر جوابا، قال يستحثها على الموافقة: علشان أعمل حسابك كل يوم في ساندوتشات الفول بالسدق.

دون أن تقصد، تحسست بلسانها سقف فمها تحلب ريقها، وهي تسترجع طعم السدق الساخن في فمها.

أدارت وجهها، حدقت في عينيه كأنما تستوثق مما يقوله، كانت هذه الالتفاتة كافية لالتقاء شفتيهما، فأطبق على وجهها بشفتيه، حتى إنها وجدت صعوبة في انتزاع نفسها منه، صعوبه اضطرتها لاستدعاء كل خوفها حتى تنجح في التغلب على تلك اللذة التي

اجتاحتها، والتي لا تقل نشوتها عن نشوة التهام ساندوتش الفول الساخن بالسدق.

في الأيام التالية، اعتاد هيمه على استبدال الساندوتشات بالقبلات والأحضان في الصباح الباكر، وعلى استبدال قطع الحلوى واللبان بقبلات وأحضان مشابهة في الأوقات المتأخرة من الليل.

اكتشفا معًا أن هذين الوقتين تقل فيهما حركة الصعود والهبوط على سلالم المنزل، بل وتقل حركة المارة بالحارة والزقاق العمودي عليها.

بعد مرور عدد من الشهور على تلك الممارسات شبه اليومية، لاحظت أن صبيًّا آخر من صبيان حارة العلواية يقدم لها، بين الحين والآخر، قطع الحلوي المصحوبة بابتسامة ذات مغزى، ولما لم تعره انتباها، أعطاها "شلن معدن"، قبضت عليه بشدة، إنه أول شلن تمتلكه ملكية كاملة، بل أول عملة نقدية تحصل عليها في حياتها، وهي فرحة سعيدة قررت أن تحتفظ به، ازداد تقرب الصبي منها مدعمًا تقربه بشلنات أخرى يهبها لها بين الحين والآخر، إلى أن سنحت له فرصة انفرادهما على رصيف الزقاق، فلثم وجنتها بشفتيه لثمة سريعة مرتجفة، شهقت معترضة محتجة، قالت بتلقائية: مش هنا.

أدرك رفضها المغلّف بموافقتها الضمنية، لملم الصبي، الذي لم يكن يكبرها إلا بحوالي عامين، نفسه المبعثرة، وسأل مبتهجًا: أمال فين؟

ضحكت، ضربته بباطن كفها على صدره، وهي تقول: دا انت غشيم أوي.

قادته في المساء إلى مكانها المفضل مع هيمه تحت "قلبة السلم"، وهي تؤكد عليه بضرورة التزام الهدوء، لم يكتف بالقبلات والأحضان مثل هيمه، مد كفه من فتحة صدر الجلابية، راح يعبث بصدرها النابت، سرى الخوف إلى داخلها مع لذة كفه وهي تتحسس لحمها، لذة جديدة عليها استشعرتها في تلك اللحظة، تختلف عن تلك اللذة التي كانت تشعر بها مع هيمه.. تغلبت فرحتها بالإحساس الجديد على مشاعر الخوف.

في المساء، عندما عادت إلى منزلها، ووقفت أمام المرآة المكسورة بدولاب الملابس، تحسست صدرها وبطنها، ودارت نصف دورة لتشاهد ردفيها، وكأنما أعجبها انتفاخهما النسبي، راحت تلطمهما فرِحةً بباطن كفيها لطمات سريعة متلاحقة، انتبهت لعوار ملابسها الداخلية، في اليوم التالي ابتاعت بشلناتها المدخرة بعض قطع الملابس الداخلية، وقررت، منذ ذلك الوقت، أن تهتم بملابسها الداخلية أكثر من ملابسها الخارجية، وتأكد قرارها في الأسابيع التالية، عندما اخترق كف فتاها الجديد كل فتحات ملابسها الخارجية، ليلامس كل جزء من جسدها.

في الشهور التالية، أصبحت على أعتاب العام الثاني عشر من عمرها، ومع ذلك، فإن من يلمح الصدر والأرداف وتكور البطن لا يقدر سنوات عمرها بأقل من سبعة عشر عامًا، مما دفع معظم شبان الزقاق والحارة لتذوق الثمار الناضجة قبل الأوان، مزقوا شفتيها ووجنيتها لثمًا وتقبيلًا، زادت الشلنات وأرباع الجنيهات، بل والجنيهات المدخرة يومًا بعد يوم.

تظاهرت أمها بأنها لم تلحظ جديدًا يطرأ عليها، وعلى العكس، ظلت تردد أن الحياه التي يعيشونها لا تسير إلا ببركة الله، الذي يبارك في القروش القليلة، فيجعلها كافية لتلبية كل طلباتهم من مأكل ومشرب، وذلك بأن يحبب الله فيهم الجيران والأصدقاء، فيعطفون عليهم، ويهدون ابنتها ملابسهم القديمة، وأحيانًا، الجديدة.

عندما وصلت فاطمة إلى عمر الخامسة عشرة، كانت قد أصبحت أنثى كاملة، تحترف بيع القبلات والأحضان لشباب الحارة والعلواية كلها.

تعودت أن تمشط شعرها مرتين في اليوم، وأن تضع الكحل في عينيها، وأن تلبس حذاءً بكعب عالٍ يُخفي قِصَرها وبدانتها معًا، احتفظت أيضًا في جيبها بقلم روج، تدهن به شفتيها ووجنتيها عند اللزوم، وظلت حياتها على وتيرة واحدة إلى أن التقت بمسعد، سحبها من يدها إلى مكانها المعتاد تحت "قلبة السلم"، أدهشها أن يقودها إليه بدلًا من أن تأخذه هي، لم يعلق على دهشتها، كانت المرة الأولى التي يلمسها فيها، وإن لم يخل الأمر من التحديق فيها بجرأة كلما مرت أمام الورشة الصغيرة التي يعمل بها ميكانيكي سيارات على ناصية حارة العلواية، وعلى بعد خطوات من ميدان محطة مصر.

كيف عرف المكان الذي تتبادل فيه الأحضان والقبلات مع زبائنها؟ رغم ادعائها الدهشة عندما سحبها من يدها إليه، فإنها تعلم أن الصبية والشباب يتناقلون أخبار لقاءاتهم معها فيما بينهم.

في البداية شعرت بالقلق، وتسرَّب الخوف إلى نفسها، ولكن بمضي الأيام، تسرب الخوف من داخلها، وسعدت بمحافظتهم على سرها، وأيقنت أن الأمر في النهاية لم يخرج عن إطار زبائنها، وسعدت أكثر بزيادة وتنوع الزبائن يومًا بعد يوم، ها هي تستقبل شابًا جديدًا، صنايعي يكسب بالجنيهات، ليس مثل الذين سبقوه من الصبية والطلبة، الذين لا يملكون إلا مصروف جيبهم من الشلنات والبرايز والريالات.

عندما حصر جسدها بين جسده وجدار السلم الرطب تأوهت بدلال، ثم تقصعت بين ذراعيه متظاهرة بالانتشاء بعد أن لثم وجنتها وجيدها، داعب صدرها بأصابعه، ثم امتدت كفه إلى بقية أجزاء جسدها، فوجئت بمتعة حقيقية تسري في أوصالها، متعة لم تشعر بمثلها منذ لقاءاتها الأولى مع هيمه، أول من قبّلها في مقابل قضمة ساندوتش الفول الساخن بالسدق.

راحت تتأمل طوله الفارع في ظلمة المكان، هو أطول منها ومن كل الصبية والشباب الذين رافقوها من قبل، هو أيضًا يكبرها بحوالي خمس سنوات.

استسلمت لقبلاته لفترة أطول من أي فترة قضتها مع شخص آخر.

بعد حوالي ربع ساعة، قضاها غائصًا بشفتيه وكفيه في جسدها، تراجع خطوة للوراء حتى التصق بالجدار، كانت حبات العرق قد

تجمعت فوق جبينه، قال مستسلمًا: ما ينفعش. لم تفهم ما يقصد، غمغمت من بين تأوهاتها:

- هو إيه اللي ما ينفعشي؟

مسح وجهه بمنديل قماش أخرجه من جيبه وهو يقول:

- الحتة زنقة زي القبر.

تساءلت مندهشة: يعني إيه؟

زرر أزرار قميصه المفتوح، عدّل من وضع سرواله، دس منديله في جيبه، وأخرج ورقة مالية استطاعت أن تلمحها في الظلام، شهقت سعيدة عندما دس الورقة في يدها وهو يقول: مش حنتقابل هنا تاني.

سألت وهي لم تخرج من حيز الدهشة بعد: أمال حنتقابل فين؟!

- عندي في البيت.

عادت تسأل: بيت مين؟!

رد مؤكدًا: بيت أمي، بكره ولا بعده أسربها وأديكي خبر.

استدار منصرفًا، قبل أن تعدّل من وضع ملابسها، أخرجت الورقة المالية، قلبتها بين يديها تتأملها بسعادة غامرة، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تخرج إلى الحارة ناسية من فرط فرحتها أن تسوي ملابسها وشعرها المهوشين.

في اليوم التالي، استوقفها وهي تمر أمام الورشة، تعمدت أن تمر أكثر من مرة حتى تلفت نظره إلى وجودها، كانت لا زالت تتحسس الورقة المالية في جيبها كأنها غير مصدقة بملكيتها لها، همس في أذنها:

- بُكره الصبحية.

تملكها شعور مثير، لم تستطع أن تحدده، سيطر عليها طيلة ليلتها التي لم تنم فيها إلا ساعات قليلة، استيقظت بعدها في الصباح الباكر، دخلت الحمام الصغير الملحق بغرفة السطوح، تجردت من ثيابها، غسلت جسدها كله بالماء الساخن، تمنت أن تتمكن ضغطة الليفة الخشنة ورغاوى الصابون التي تغطي جسدها من تفتيح لون بشرتها القاتم، بعد جهد طويل بذلته في التفكير، أقنعت نفسها أنها ليست سمراء،-إن لون بشرتها خمري مثل معظم الناس بالعلواية.

غادرت الحمام إلى الغرفة، كانت أمها كعادتها لا زالت ممددة على السرير، أما وفاء أختها فكانت منكمشة على الأرض، ضامة ساقيها إلى صدرها، واضعة بينهما كتابا مدرسيا تقرأ فيه بصوت خفيض.

توقفت أمام المرآة تتأمل شعرها، ومن جديد راحت تقنع نفسها أن شعرها الخشن المهوش أجمل من شعر كثير من نجمات السينما، أو على الأقل مشابه له.

سمعت أمها تسعل، قالت لنفسها: سأشتري لها اليوم الدواء الذي وصفه لها الدكتور في مستشفى أحمد ماهر، كما فكرت أنها ستشتري لأختها حقيبة مدرسية جلد أو مشمع تتناسب مع دخولها المدرسة الإعدادية لأول مرة هذا العام.

عادت تحدق في وجهها وجسدها، هي جميلة رغم التقاطيع الغليظة والبشرة القاتمة والشعر الخشن، يتأكد هذا كل يوم من عديد

من الشباب الذين يدفنون رؤوسهم في صدرها وهم يحتضنونها تحت قلبة السلم.

هي ليست بدينة، هي فقط ممتلئة بعض الشيء، يجد الشباب في هذا الامتلاء لحمًا يمكن أن ينعموا بملامسته وتقبيله واحتضانه.

قبل أن تبدأ في ارتداء ملابسها الداخلية التي اشترتها منذ زمن قريب، كانت قد اقتنعت تمامًا بأن هذا الجسد بالذات هو المناسب والمطلوب لعتمة بئر السلم، ومناسب أكثر للمقابلة المقدمة عليها، ألقت على نفسها نظرة أخيرة بالمرآة، سمعت أمها تقول لها بصوت واهن:

- مالك مبدره النهارده.

ردت وهي تضع القرط البلاستيك ذا اللون الفاقع في أذنيها:

- ما انتي عارفة، خطوبة بدرية النهارده، ولازم اكون معاها من بدري، ما هي مالهاش صاحبات غيري.

لم تذكر أمها يومًا أنها سألت بدرية هل تقضي ابنتها معها معظم ساعات النهار كما تدّعي أم لا؟ حقًا إن فاطمة لا تدع فرصة تتاح لنقاش يجري بين أمها وصديقتها، ولكن الأم، من جهة أخرى، لا يخطر ببالها كذب ادعاءات ابنتها.

مرت أمام نافذة منزله المطلة على الزقاق، لمحت أمه بالداخل، لا تستطيع أن تدخل الآن، حدد الموعد في الصباح ولكنه لم يحدد الساعة بالضبط، لعله كان يراهن على حضورها متأخرة أو على

خروج أمه من المنزل مبكرًا، ما عليها الآن إلا أن تقطع الزقاق جيئة وذهابًا حتى تغادر أمه المنزل.

لم يمض سوى ثلث ساعة حتى أتيحت لها فرصة الولوج إلى الشقة، لم تحتج إلى طرق الباب، لقد تركه لها مفتوحًا، تلقاها بين ذراعيه، حملها رغم ضخامة جسدها النسبية، خطى بها إلى الداخل، عندما ألقاها على الفراش كادت بثقلها تهوي بالسرير، بعدها ألقى بنفسه فوقها، تمددت على الفراش مستسلمة، لم تتبين بدقة ما يسعى إليه، غمرتها أنفاسه، فشعرت بتفكك فجائي في أوصالها، استسلمت أطرافها عاجزة وغير راغبة في الإتيان بحركة واحدة، كانت ممارسته معها تختلف عن ممارسات الآخرين الذين كانوا يكتفون بمحاصرة جسدها بين أجسادهم وجدار السلم الرطب، طغى إحساسها بلذة اللحظة على تفكيرها الذي لم يتوقف طوال اليومين السابقين في الجنيهات الخمس التي أعطاها لها.

استعذبت اللحظة، غاصت فيها، وشملتها بمتعة لم تعهدها من قبل.

أدركت بعد أن غادر جسدها أن شيئًا خطيرًا قد حدث، أن شيئًا جديدًا قد وقع، تأكدت من خطورته عندما وقع بصرها على بقعة صغيرة من الدماء فوق ملاءة السرير، هي بقعتها، دماؤها، أصبحت في هذه اللحظة امرأة، تقاطعت نظراتهما، سمعته يقول لها بلهجة المواساة:

- ما يهمكيش، إنتي من دلوقتي مراتي قدام ربنا.

كان واقفا يرتدي ثيابه بجوار الفراش، رددت بصوت واهن متسائلة: مراتك؟!!

- أيوه مراتي.

عادت تسأل: وقدام الناس؟!

متوقعًا سؤالها ومستعدًا للإجابة قال: دلوقتي قدام ربنا، وبكره لما الظروف تتعدل حيبقى قدام الناس.

لم تستطع إلا أن ترمقه بنظرة متشككة سلبتها جمال اللحظة التي كانت تسبح فيها منذ دقيقة واحدة، سارع بالجلوس بجوارها على الفراش، ومال بوجهه على وجنتها وقال مداعبًا: يا بت هو أنا حلاقي زيك فين؟ استطرد وهو يمر بكفه على رقبتها وصدرها العاريين: ثقي فيا وعمرك ما حتندمي.

لم تستطع كلماته أن تمحو النظرة المرتسمة في عينيها، صمت لحظة ثم قال كأنه يذكرها بشيء غاب عن ذهنها: وبعدين إنتي خايفة ليه؟ إنتي زي ما قلتيلي لسه ماكملتيش ستاشر سنة.

ردت بصوت واهن: ما هو عشان كده.

- كده إيه؟!

أوضحت: ما هو عشان كده كان بدري عليّه.

رد مكررا: يا بت يا خايبة، مش أنا جوزك؟ أعمل اللي أنا عايزه.

في الأسابيع التالية عدته زوجها وعدها زوجته، كانت هباته المالية أكثر بكثير مما كانت تأخذه من كل الصبية والفتيان الذين كانوا يقبلونها ويحتضونها تحت قلبة السلم.

منعت نفسها عنهم، إن أي لقاء لها مع شخص آخر سوى مسعد يعد خيانة زوجية، أخبرته بقرارها في لقائها التالي بشقته، وكان قد انتهى لتوه منها وجلس على حافة الفراش يدخن، رد معلقًا: آه طبعًا، وهيه فيه واحدة محترمة تخون جوزها؟!

على ذكر الاحترام سألته: إمتى حتكتب عليا؟ لوّح بيده دون أن ينظر إليها: لما ربنا يريد، وكأنما تذكر بدوره شيئًا هامًا فسألها فجأة: بتاخدي البرشام ولا لأ؟

أجابته ممتعضة بسبب تغييره لمجرى الحديث.

– باخده.. إطمن.

شعرت إنها لا زالت في حاجة إلى أحضانه وقبلاته، ولكنها أدركت أن هذا ليس شعوره في هذه اللحظة وقد نهض من فوقها، والتي تختلف اختلافًا جذريًا عن اللحظة التي تسبقها، تساءلت هل اختلف لقاؤهما الثاني عن اللقاء الأول؟ هل قلت لذة المعاشرة بهذه السرعة؟! من جهتها تشعر في هذه المرة بلذة أكبر من الموعد السابق وفي نفس الوقت تشعر أن فتورا ما قد تسرب إليه في هذه المرة عن المرة السابقة.

زاد شعورها بفتوره في المرات التالية، تناقصت نشوتها بالمضاجعة، رصدت تباعد اللقاءات لقاءً بعد لقاء؟ ففي الأيام الأولى، كان يتحايل

لإبعاد أمه عن المنزل حتى يستطيع استقبالها، أصبح لقاؤهما كل أسبوع، ثم كل أسبوعين، حتى مضى شهر كامل دون أن تلقاه.

فكرت في استئناف نشاطها القديم مع الشباب تحت قلبه السلم، صدها إعراضه عنها، في كثير من المرات كان ينهي المضاجعة دون أن تصل إلى النشوة المستهدفة، لم تجد في نفسها الجرأة لتطلب منه أن يعود إلى الفراش ولو للحظات قليلة، كان عليها أن تنهض وتنصرف بسرعة حتى دون أن تتمكن من الاغتسال، فأمه على وشك القدوم كما أخبرها من قبل.

تذكرت هيمه، الصبي الذي لمس جسدها لأول مرة، بعد انفراده بها لشهور طويلة، راح يحضر أصدقاءه ليفعلوا بها مثل ما يفعل مقابل قطع الحلوى، لم تستبعد فيما هو قادم من أيام أن يأتي لها مسعد بأصدقاءه من الصنايعية ليضاجعوها مقابل جنيهات يقتسمها معها.

غادرت شقته وقرارها باستئناف استقبال زبائنها يشغل ذهنها، كانت تتمنى ألا تقدم على تنفيذه، تود أن تقتصر معرفتها بالرجال على مسعد، فهي رغم كل شيء قد أحست أنها تحبه.

في الأسابيع التالية دفعها احتياجها للنقود إلى تنفيذ قرارها ولكنها بدأت صفحة جديدة من العمل، لم يعد بئر السلم المعتم هو المكان الملائم للقاء، خاصة بعد أن فقدت عذريتها، كان أول من وقع في حبائلها، أو وقعت هي في حبائله كما تصور هو، أخو صديقتها بدرية، كان الشاب يرصد التطور الذي يجرى لصديقة أخته المقربة، التي لم يكن فيها ما يميزها كأنثى سوى شبابها المتدفق المتجسد في

حمرة الوجنتين والشفتين، حمرة زادتها سمرتها عمقًا، لاحظ المكياج الكثيف التي تعمدت أن تكسو به بشرتها في الشهور الأخيرة، رصد ألفاظها الجريئة أثناء حديثها مع أخته، وصلت إليه الإشارات المرسلة منها في تلميحاتها المختلفة، همس في أذنها قبل انصرافها مستغلًا لحظة ابتعاد أخته عنها: هجيلك بكره بعد العشا.

ردت مرحبة ومستنكرة ومتساءلة في آن واحد: فين؟!

أجاب بصوت خفيض: عندكو في السطوح.

ردت مستنكرة: وامي واختي؟

طمأنها: ما قلتلك بعد العشا، وانا عارفهم بيناموا بدري.

في اليوم التالي، انفرد بها في دورة المياه الضيقة الملحقة بغرفة السطوح، كما توقع، نامت أمها وأختها مبكرتين، مارست تجربتها الأولى بعد مسعد في دورة المياه، لم تكن تتصور إمكانية حدوث هذا الأمر في ذلك المكان، وكادت أنفاسها تتوقف وهما محشورين بين الجدران الرطبة والمساحة الضيقة.

ولكن بعد انصراف أشرف وقفت تتحسس الورقة فئة العشرة جنيهات التي دسها في صدرها بسعادة بالغة. بقدر ما وسّعت من علاقاتها في الأيام التالية، بقدر ما كانت حذرة في اختيار زبائنها، وبرغم محاولتها ادخار جزء من دخلها الذي كان قد بدأ يتضاعف، بقدر ما أدركت أن مهنتها تحتاج إلى إنفاقات كبيرة، تتمثل في الملابس والمكياج، وحتى البقشيش والعمولة التي تعودت أن تدفعها للوسطاء.

اعتاد أشرف أن يوافيها مع قدوم الليل، ولكنهما لم يعودا إلى دورة المياه مرة أخرى، فقد وجدا في السطوح، رغم برودة الطقس، مكانا أكثر رحابه واتساعًا، مستغلين سور السطح العالي الذي يمنع رؤية الجيران لهما وهما يفترشان الأرض.

أما مسعد، فلم يعد يعدو خلفها عندما تمر أمام الورشة ليهمس في أذنها بميعاد مغادرة أمه للمنزل، وفي بعض الأحيان عندما كانت تتقاطع نظراتهما كان يبدو عليه كأنه لم يعرفها مطلقًا، وكأنه لم يكن هو الرجل الأول الذي انتهك عذريتها منذ شهور. مع ذلك، لم تول الأمر اهتماما، فقد فتح مسعد بفعلته تلك عالما جديدًا راح يفتح أبوابه أمامها، لم يكن يضايقها سوى إمكانياتها المحدودة والمحددة لدخول هذا العالم، فهي أقل صديقاتها حظا من الجمال، سواء كان جمال الوجه أو الجسد، فمع تجاوزها السادسة عشرة من عمرها، تضخمت البطن والأرداف، وبرز لها كرش مميز راحت تحاول إخفاءه بشتى أنواع الأحزمة والكورسيهات، وفي أحيان كثيرة، عندما كانت تقف تتأمل تفاصيل جسدها أمام المرآة، كانت تحاول إقناع نفسها بأن ما تراه ما هو إلا بروز مبكر لأنوثتها من الواجب أن تفرح بل تفخر به، ولكنها ما تلبث أن تعود لتتذكر أن ثقل الصدر والأرداف يبطئان حركتها، ويجعلانها أقل رشاقة.

إن جسدها لو استمر نموه بهذا المعدل، فإنها سوف تغدو عن قريب برميلًا مكورًا، وسيكون عليها أن تتدحرج فوق الأرض بدلًا من أن تمشي عليها وتتبختر كما تتبختر صديقاتها بأجسادهن.

تعرفت في الشهور الأخيرة على شباب كثيرين في أزقة وحواري العلواية، تعودت أن تذهب إلى منازلهم، تقضي معهم أغلب النهار وجزءا من الليل، ولكن ما كان يسيئها هو تغيرهم وتجددهم بشكل دائم، فالشاب لا يرافقها إلا مرة أو مرتين على الأكثر، لتشعر بعدها أنه يهرب منها، حقًا أنها سرعان ما تجد غيره، ولكنها تدرك أن هذا أمر لا يبشر بخير، فهي تحلم دائما برجل يعاشرها ويظل معها حتى ولو بدون زواج، رجل تعتبره رجلها وسندها. تعرفت على روحية عندما قادها أحد مرافقيها إلى منزلها، أرشدتهما مرحبة إلى غرفة جانبية، قبل انصرافها طلبت منها أن تعود لزيارتها، عندما زارتها بعد أيام رحبت بها ترحيبًا كبيرًا عن رغبة صادقة في توطيد عرى الصداقة بينهما.

وجدت فاطمة في صحبتها عوضًا عن صديقاتها القدامى اللاتي تقاطعهن الواحدة في إثر الأخرى.

في إحدى السهرات التي تعودت روحية إقامتها بمنزلها لزبائنها، تعرفت فاطمة لأول مرة على عباس، علمت من روحية أنه هو الذي يساعدها في ترتيب هذه السهرات، فهو الذي يجلب الزبائن ويحاسبهم، ويجمع لها الإيراد كل ليلة، بعد أن يحتجز منه نصيبا متفقا عليه.

طلب منها عباس أن تصحبه إلى سهرات في منازل أخرى في تلك الليالي التي يخلو فيها منزل روحية من السهرات، وافقت على طلبه رغم استكثارها لحصوله على نصف ما سوف يدفعه الزبون، وبالإضافة إلى ذلك، أخبرها أن الأمر يستدعي شراء بعض الملابس

الجديدة وبعض المصاغ الفالصو، وأنه سيدفع ثمن المشتريات على أن يُخصم من حسابها في الأيام القادمة.

اضطرت للموافقة، فقد توافق عرضه مع حلمها بعالم جديد تسعى إليه خارج العلواية، عالم لا تتعامل فيه إلا بالأوراق المالية فئة العشرة جنيهات.

بعد شهور من العمل مع عباس وروحية، أخبرته أن حجج تغييبها عن المنزل قد نفدت، وأنها لا ترى حلًا لذلك التغيب عن المنزل مستقبَلا سوى أن يتقدم لخطبتها من أمها، ليسمح لها أن تخرج وتعود وقتما تحب. لم يحر جوابًا وهو جالس على أريكة أمامها في منزل روحية، راحت فاطمة تحدق في ملامحه المتجمدة لعلها تستطيع أن تخمن ما يدور بذهنه، بعد فترة من الصمت، وعندما لم يعترض على ما قالته، أدركت أنه قد اقتنع به.

وعندما عرض الأمر على روحية، علقت بأنه يجب أن يكون زواجًا حقيقيًا وسريعًا، حتى يتم حل المشكلة من جذورها، وتتفرغ فاطمة بشكل كامل لهما.

في الأسبوع التالي، حضر إلى منزلها عباس بصحبة روحية، التي ادعت أنها زوجة أخيه الغائب في العراق، وبعد مرور شهر، أقيم حفل صغير لعقد القران والزفاف، وبينما كانت بنات العلواية يحاولن أن يقنعن أنفسهن بأن ما يجري هو زواج حقيقي لا تشوبه شائبة، فاطمة تتزوج مثل كل البنات والفتيات في سنها، لكن الحقيقة كانت تدق فوق رأسها بعنف فتصيبها بالصداع طوال ليلة العرس.

ها هم الجيران يحيطون بالعريس، ماذا لو علموا أنه ليس إلا قواد، وأنه ما تزوجها إلا ليتاجر بها ويشاركها رزقها! حقًا إنه سيحميها، وسيفتح لها آفاق الرزق في كل الليالي، ولكنها في النهاية لا تزيد عن أن تكون البضاعة التي يتاجر فيها.

عُقد القران، وفي نهاية الليلة اصطحبها في عربة سرفيس كان يعمل عليها أبرز أصدقائه.

طلب عباس منها أن تجلس في المقعد المجاور لمقعد حسن صديقه الذي كان يقوم بقيادة العربة، بينما جلس هو في المقعد المجاور للنافذة.

لاحظت نظرة صديقه النهمة لفتحة صدر الفستان العاري وهي تهم بصعود العربة، جذبها نحوه متظاهرًا بمساعدتها على الصعود، كانت جذبته لها أقوى مما يجب حتى كاد وجهها يصطدم بوجهه، شعرت بأنفاسه الحارة تلفح وجنتها، ربت بباطن كفه على ظهرها وهو يقول: اقعدي يا عروسة.

رغم اعتيادها على مثل هذا الأسلوب الفج في التعامل من زبائنها، إلا أنها الليلة بالذات تريد أن تكون لرجل واحد، رجل شرعي، تريد أن تمارس ممارسة شرعية أمام الله والناس ولو لليلة واحدة، تريد أن تذوق طعم هذه الليلة بالذات التي تحلم بها كل البنات في سنها.

أسرع حسن بالعربة إلى منزلها الجديد، الذي كان يقع، كما أخبرها عباس، على حافة الإسكندرية في منطقة تسمى عزبة سكينة.

توقفت العربة بالقرب من كوبري العوايد، أمام بيت قديم متهدم، عرفت أنه ملك حسن، همس عباس في أذنها ببضع عبارات محاولًا أن يزيل آثار الاحتجاج التي ارتسمت فوق وجهها، أخبرها وهو يشير إلى منزل حسن أنه المنزل الجاهز الآن للسكن حتى يتمكن من تدبير أموره.

ردت بما يعني أنه ليس في حاجة إلى الاعتذار، فهي التي تعجلت الزواج حتى تستطيع أن تهرب من أسر ورقابة أمها والجيران.

دلفت إلى الغرفة الوحيدة بالمسكن بعد أن عبرت فناءً مهجورًا، لم يكن بالغرفة ما يدل على أنها على استعداد لاستقبال عروس في ليلة زفافها.

تقدمها حسن، قام بسرعة بتسوية الملاءة فوق الحاشية المفروشة على الأرض، شاهدت بجوار الجدران مخلفات فئران، تضاعف تقززها من المكان بعد أن أدركت من هيئته أن الفئران هم السكان الأصيلون لهذا المكان.

كان حسن منشغلًا بترتيب أثاث الغرفة البالي عندما همس عباس في أذنها: أنا حنام بره، لاحت منها نظرة إلى الفناء الذي عبرته منذ لحظة، لأول مرة لمحت به أريكة عارية من أي حاشية، هتفت منزعجة:

- وأنا؟!

رد متلطفًا: أبو علي معاكي الليلة، هو برضك اللي لم الليلة، وعمل معانا آخر واجب.

لم تستطع أن تنبس بكلمة، حقًا أنها لم تتوقع مستقبلًا مفروشًا بالورود مع عباس، ولكنها لم تكن تتوقع أن تتدهور إلى هذا الحد، فرغم أنها مارست منذ صغرها حرفة تأجير أجزاء من جسدها، أو جسدها كله، نظير أجر، إلا أنها مع ذلك، كانت تحلم بليلة واحدة تعيشها مثل كل بنات الدنيا، وبعد ذلك فليكن ما يكون، ولكن عباس يصر على ممارسة مهنته كقواد حتى في ليلة زفافه، ها هو يسدد دينه لصديقه من جسد زوجته التي لم يدخل عليها بعد.

في تلك الليلة، عندما كان حسن يضمها بين أحضانه عارية، وأنفاسه الساخنة المشبعة برائحة المعسل والحشيش تلفح وجهها، كانت الفئران تتقافز فوق جسديهما، لم تشمئز في حياتها من لحظة عاشتها مثل اشمئزازها من تلك اللحظات.

مر أسبوع لم يحاول فيه عباس أن يضاجعها إلا ليلة واحدة لم تكن موفقة، حتى كادت فاطمة تصدق أن حسن هو العريس الحقيقي، مما جعلها تسأل عباس صراحة:

- هو أنا متجوزاك ولا متجوزاه.

أطرق بوجهه إلى الأرض ولم يحر جوابًا، خاب ظنها فيه إلى مدى لم تتصوره، ولكن السهرات التي دبرها الصديقان في الليالي التالية شغلت بالها عن كل ما حولها، وجعلتها تنعم بعشاء دافئ مشبع لا يكونون محتاجين فيه إلى أن يشترك ثلاثتهم في تدخين السيجارة الواحدة. كانت لا تفتأ تسأل عباس سؤالها المتكرر عمن يكون زوجها هو أو حسن، ذات مرة أجابها عباس بلهجة ساخرة:

- وحتفرق في إيه سواء كنت أنا اللي كاتب عليكي أو هوه؟!

عاد يهرب بعينيه بعيدًا عنها، تذكرت محاولته الفاشلة لممارسة الجنس معها في الأسبوع الأول من الزواج، بدأ شكها في عجزه الجنسي يتحول إلى يقين.

لمزيد من التأكيد، طلبت منه أن يتبادلاها هو وحسن بدلا من أن يستأثر هذا الأخير بها وحده.

لم يدع مجالًا للشك، صارحها بأنه يعاني من مرض في البروستاتا وأنه يأخذ أدوية، دس يده في جيبه وأخرج محفظته، أخرج ورقة مهترئة شهرها في وجهها وهو يقول: أهيه روشتة الدوا، مكتوب فيها علشان تصدقي.

كان قد مر حوالي ستة أشهر على زواجهما عندما عاد حسن وحيدًا إلى المنزل.

كانت تنتظرهما منذ أول الليل حيث من المعتاد أن يعودا ومعهما زبون أو أكثر، أو حتى بلا زبائن، أما أن يعود أحدهما منفردًا فلم يحدث هذا من قبل.

طالعته متساءلة، بادرها يخبرها أن عباس قد قُبض عليه، سألته عن التهمة الموجهة إليه، أخبرها أنه لا يدري شيئًا، فربما كان الأمر مجرد تحرٍ، حيث لم يكن مع عباس بطاقة.

ردت معترضة ومتشككة في حديث حسن: عباس دايمًا معاه بطاقة.

أشاح بوجهه وهو يقول: مش عارف بقى. سألته بعد مرور لحظات من الصمت الحائر: في أي قسم علشان أدور عليه؟

- ما تتعبيش نفسك، دول رحلوه على المديرية،

قالت بجدية: خلاص أروحله المديرية، استطرد: واحتمال سفروه كعب داير، وأكيد مش حتلاقيه في أى حته في اسكندرية. كادت الدموع تطفر من عينيها وهي تسأله متوسلة: حسن، قولي الحقيقة، عباس جرى له إيه؟

استدار يواجهها، وإن كانت نظراته لا زالت هاربة من وجهها: ورحمة اللي ميتينلي ده كل اللي حصل، أنا هخبي عليكي ليه؟

راحت تنقب في عباراته وصوته عن رنة صدق فلم تجد.

*****

لأول مرة فكرت في زيارة العلواية، وربما الإقامه فيها، حملت معها ما استطاعت من اللحم والفاكهة. عندما وقع بصر أمها عليها تهللت فرحة، حاولت النهوض من الفراش لاستقبالها، ولكن فاطمة سارعت باحتضانها وبكت على كتفها، دفعتها أمها بعيدًا عن صدرها بضع بوصات لتتمكن من تأمل وجهها، ثم هتفت منزعجة: جرى إيه يا فاطمة؟.. جرى إيه يا بت؟

لم تعرف بماذا تجيب، ترددت لحظة ثم قالت: عباس اتقبض عليه. تقلصت ملامح أمها، ثم أطرقت بوجهها إلى الأرض وهي تقول: دا اللي أنا كنت خايفة منه.

في اليوم التالي جاءت روحية لزيارتها، قامت بالزيارة بمجرد معرفتها لخبر عودتها إلى العلواية، راحت تتأمل وجهها وهي تقول: والله الجواز بان عليكي يا بت، وشك ملا وجسمك ربرب.

ردت فاطمة بدلال: بالعكس، دانا حتى خاسه.

شهرت روحية أصابعها العشرة في وجهها وهي تهتف: اللهم لا حسد، إنتي يا بت حَمار وحلاوة.

وراحت تمر بباطن كفها على صدرها وبطنها وظهرها، ثم قالت: ولا تزعلي يا عروستنا، لو راح عباس فيه ألف من يتمناكي.

هتفت منزعجة: يتمناني إيه وأنا لسه على ذمته.

- وحياتك حاجيبلك ورقتك لغاية عندك، بس أنا أعرف يا حبيبتي هوه فين، تعاليلي الليلة ونقعد مع بعض نحكي شويه.

ثم قرصتها من خدها وقالت مستطردة: والله زمان يا بت.

ثم، وهي تتهيأ للانصراف، سلمت على الأم في جلستها المعتادة على الفراش وقالت: والنبي يا ست أم بطة سيبيها تمشي رجليها وتجيلي شويه.

ولم تنتظر إجابة، استدارت منصرفة قبل أن تسمع غمغمات الأم المحتجة، أدركت فاطمة لحظتها أن أمها تعرف كل شيء.. كل شيء، ولا تمتلك إلا الصمت تعبيراً، نظرا لحالة الكساح والعجز التي تعيشها.

عندما وافت فاطمة روحية في الميعاد وجدت زبونا ينتظرها، قادتهما روحية إلى الغرفة الداخلية، قبضت فاطمة نقودًا لأول مرة منذ اختفاء عباس.

في الأيام التالية، وقد أصبحت مقيمة في العلواية، تعودت الذهاب إلى روحية كل يوم أو يومين، وفي كثير من الأحيان كانت تعطيها عنوان منزل الزبون لتذهب إليه.

******

في أغلب الأحيان كانت فاطمة تفضل الزبون الخارجي، لأنها كانت تستطيع أن تقتطع لنفسها جزءا من المبلغ الذي يعطيه لها قبل أن تتقاسم الباقي مع روحية، كانت شهرة روحية تملأ آفاق العلواية ومحطة مصر، أصبحت فاطمة تقضي أغلب أوقاتها في شقتها، فوجئت في إحدى الأمسيات بمن يطرق الباب، وعندما فتحته فوجئت بمسعد أمامها، الرجل الذي اعتبرته زوجها أمام الله، الزوج الأول في حياتها، استيقظت رغبتها القديمة فيه في داخلها. يبدو أنه قرأ ما يدور بخلدها، لعل ملامحها أفصحت عما يدور بداخلها، مد كفه يربت على صدغها مواسيًا، وضعت كفها فوق كفه، سرعان ما سحب يده، ودس في يدها ورقة مالية من فئة العشرين جنيها، وانصرف بعدما تحدث مع روحية، آلمها بشدة أنه لم يطلبها، آلمتها أكثر نظرة الإشفاق التي امتلأت بها عيناه، انتظرت أن يعود لزيارة منزل روحية في الأيام التالية لتتاح لها فرصة أكبر لمحادثته، فرصة تكون

قد تخلصت فيها من وقع المفاجأة التي ألمت بها عندما فتحت الباب ووجدته أمامها.

تأكدت أنه تعمد عدم الزيارة حتى لا يلقاها، وعرفت من روحية أنه قد تزوج منذ شهور قليلة، ومع ذلك يداوم على زيارتها، أدركت أن الجنيهات العشرين التي أعطاها لها كان يبتاع بها صمتها، فتضاعف ألمها، وتضاعفت رغبتها في لقائه حتى تعيدها له.

مرت قرابة ستة أشهر قبل أن ترى حسن يقف أمامها في منزل روحية، كانت تتوقع أن يسعى وراءها في الأيام الأولى لغيابها، توقعت أن يحاول استعادتها للعمل معه بعد غياب عباس، وكانت قد قررت ألا تقاومه كثيرًا قبل أن توافقه، كل ما طمحت إليه هو زيادة النسبة التي تحصل عليها مما يدفعه الزبون.

عندما انتبهت لوجوده هتفت قائلة:

- افتكرتك حتحصل صاحبك لما طالت غيبتك.

أطرق برأسه وهو يقول: عباس؟ أطلبي له الرحمة. صرخت هاتفة: مات؟ مات في السجن؟ أشاح بوجهه بعيدًا وقال: عباس ما دخلش السجن من أصله.

صاحت مستنكرة: إزاي؟ إنت مش قلتلي... قاطعها بائسًا: كذبت عليكي.

ثم استطرد: عباس مات في نفس الليلة اللي جيتلك فيها، اتقتل.

تضاعف انزعاجها، راحت تردد هاتفة:

- اتقتل؟!

- أيوه اتقتل، وبعد ما انتي مشيتي بيومين بالظبط اتقبض عليا، لدرجة إني شكيت إنك بلغتي عليا.

قاطعته محتجة: أبلغ عن إيه؟ هو أنا كنت متنيله عارفة حاجة.

استطرد: أنا باقول شكيت.. المهم، تنتني في السجن أربع أشهر لغاية ما اتحكم في القضية وطلعت من تلات أيام بس، وكان أول حاجة عملتها إني رحت أدور عليكي.

سألت محتدة: مين اللي قتله؟

- مش مهم مين، الأحسن مانتكلمش في الموضوع ده. بإصرار قاطعته: لأ، الأحسن نتكلم فيه، مين اللي قتله؟

أجاب متأففًا: يا فاطمة حتستفيدي إيه لما تعرفي، دا حتى أنا ماعرفش غير إنهم جماعة زباين ما رضيوش يدفعوا الحساب، المرحوم أصر ياخد حقه وضرب اتنين منهم، اتلموا عليه، ضربوه لغاية ما مات وهربوا. سألته محتدة: وانت.. إنت كنت فين؟

في هذه اللحظة بدت فاطمة كنمرة شرسة تدافع عن زوجها المقتول، استطردت ونظراتها النارية تكاد تحرقه: كنت فين؟ كنت فين؟

بدا عليه الضيق من إصرارها على سؤاله، زفر بشدة: كنت موجود يا فاطمة، وماقدرتش أعمل حاجة، تفتكري يعني كنت اعمل إيه؟ والكترة تغلب الشجاعة، ولو كنت كتّرت في الكلام معاهم، أكيد كانوا حيقتلوني معاه.

لم ترتح للتعامل مع حسن منذ اليوم الأول الذي وقع بصرها عليه فيه برفقه عباس، وبالتحديد، في ليلة زفافها المزعوم، ألم يفرض نفسه زوجا لها رغم أنفها؟

أدركت أن من الأفضل أن تصمت، وبعد دقائق، عندما غير دفة الحديث وراح يتطرق إلى موضوع عملهما المشترك، شعرت أنها لا تستطيع أن تعمل معه، لقد والس، وربما تآمر، على قتل زوجها، ورآه يُقتل أمام عينيه ولم يتقدم للدفاع عنه، أشاحت بوجهها عنه واستدارت منصرفة.

لم ييأس حسن، واصل محاولته معها في الأيام التالية، كان يحادثها همسًا بعيدًا عن روحية، بعد أسابيع من المطاردة اضطرت للرضوخ، كانت دائمًا تطمح إلى عالم جديد كانت واثقة أنها لن تصادفه ما دامت في منزل روحية في زقاق العلواية، منزل لا يؤمه إلا عمال الأفران وصنايعية المعمار وبعض الطلبة، ولكن العمل مع حسن يختلف، إنه يصطاد زبائنه من خلال عمله كسائق ميكروباص أو تاكسي، حيث تتنوع مشاربهم ويتضاعف سخاؤهم.

عادت إلى منزل عزبة سكينة، أخبرت أمها أن عباس قد غادر السجن، وإنه اضطر للسفر إلى العراق على وجه السرعة، عندما أتاح له أخوه هناك فرصة عمل في أحد المطاعم، وكانت هذه القصة هي الوحيدة التي تبرر بها اختفاء عباس، وفي الوقت نفسه، تتيح لها مغادرتها لمنزل العلواية، حيث قالت أن زوجها الغائب أوصاها بأن يظل بيتهما مفتوحًا.

*****

نادرًا ما كان حسن يأتي بزبائن إلى المنزل، ففي أغلب الأحيان كان يدبر لها المواعيد في بعض الكازينوهات، حيث تلتقي بالزبون شخصيًا أو بوكيله، فيصحبها إلى شقة مفروشة بأحد أحياء الكورنيش الممتدة من محطة الرمل وحتى شاطئ المنتزه.

تعودت فاطمة على زيارة العلواية مرة كل أسبوع، تحمل إلى أمها الدواء، وإلى أختها النقود التي تشتري بها الكتب التي تريدها، وتدفع ثمن الدروس الخصوصية.

في إحدى هذه الزيارات، وكان قد مضى على عودتها إلى منزل عزبة سكينة حوالي عام، فوجئت عند دخولها إلى الزقاق بإحدى الجارات تعزيها متمتمة:

- البقية في حياتك.

لم تفهم، لم تدرك، سلمت على جارة ثانية، سمعتها تغمغم لها بنفس العبارات، أما الجارة الثالثة، فقد أدركت من تعابير وجه فاطمة أنها لم تعرف خبر وفاة أمها بعد، فأخبرتها. صرخت صرخة لم تصل إلى آذانها، جرت تقفز فوق درجات السلم، كانت وفاء أختها تقيم عند الجيران منذ وفاة أمها التي قام الجيران بدفنها.

احتضنت وفاء، وكانت واقفة على بسطة السلم تبكي، راحتا تبكيان، بوفاة أمهما شعرت فاطمة أن صلتها قد انقطعت بآخر إنسان يربطها بعالم العلواية، أو على الأدق، انقطعت بآخر إنسان تخشاه، ما الذي يمنع وفاء من أن تسلك نفس طريقها حتى تصل إلى السجن بعد عام أو بضعة أعوام، فها هو صدر الصغيرة يتفتح مكونًا

كرات تفاحية تزينه، تاجرت هي في شفتيها ووجنتيها وهي أصغر منها بسنوات، عبثوا بصدرها وهي في نفس سنها، وإن كانت وفاء تتفوق عليها بتقاطيع أكثر تناسقًا وقوام أكثر استقامة، تساءلت: هل كُتب على أمي أن تنجب جيلًا من العاهرات؟

ولما لم تجد إجابة لسؤالها، عادت تسأل ماذا يستطيع الفقراء أن يبيعوا غير أجسادهم؟ وفي أي البضائع يمكن أن يتاجروا وقد خُلقوا بلا بضاعة سوى أجسادهم؟

تذكرت أباها الذي قضى نصف عمره جالسا بمقهى بميدان المحطة يدخن النرجيلة، والنصف الثاني قضاه بالفراش راقدًا، نفس الفراش الذي رقدت عليه أمها من بعده، كان يجلس على الفراش يلف سجائر الدخان والحشيش، أنفق ماله وصحته على مزاجه في المقهى والمنزل، وعندما انتهى المال ونفدت الصحة مات، منفقًا سنوات عمره الأخيرة راقدًا في الفراش، لا يغادره إلا بالكاد للذهاب إلى دورة المياه.

أي حزن يجب أن تحزنه على أمها؟! إن الحزن الكبير يجب أن يكون على نفسها وأختها، إن فراق أمها يعني عقدا رسميًا لوفاء بالاستمرار في نفس الطريق الذي سارت فيه قبلها.

في نفس الليلة اتخذت قرارها بمغادرة العلواية، وبعد عشرة أيام قضتها في البحث عن سكن بشارع الكورنيش، غرفة في بدروم، أو فوق أحد الأسطح، كانت تحمل أثاث الغرفة البالي فوق عربة صغيرة اخترقت الإسكندرية حتى وصلت إلى عمارة تقع في مواجهة فندق

مكة بشاطئ كامب شيزار، قامت فاطمة ووفاء وبمساعدة سائق العربة والبواب بنقل الأثاث البالي إلى إحدى غرف البدروم المظلمة.

لقد وجدت ضالتها بعد بحث طويل، فهذا المكان سوف ييسر لها الذهاب إلى منطقة عملها الجديد بكازينوهات الكورنيش.

تعمدت نسيان حسن وتجاهُل وجوده في حياتها، اعتمدت على نفسها في اصطياد زبائنها، إن ما تحصل عليه في ليلة واحدة قدر ما تحصل عليه عن طريق حسن في ليلتين، فضلًا عن أنها تود أن تنتقي زبائنها بنفسها، خاصة بعد أن أصبحت تقطن في أهم مكان في الإسكندرية.

*****

تنوعت زبائنها، وتمتعت بعملية الاصطياد، التقت بحسن في أحد الكازينوهات بعد أسابيع من استئناف عملها بعيدًا عنه، أخبرته بحزم إنها لن تعود للعمل معه حتى ولو أعطاها كل ما يدفعه الزبون، كعادته لم يرغب في الاصطدام معها، وفي الوقت نفسه لم ييأس، عرف عنوانها وراح يلاحقها كل صباح عند مغادرتها لمنزلها محاولًا إقناعها بالعودة للعمل معه.

وبينما كانت تنتظر أحد السماسرة العابرين، والتي اضطرت للاستعانة به في الفترة الأخيرة لاصطياد الزبائن، بأحد كازينوهات الكورنيش، وقع بصرها عليه، كان شابًا أسمر، أدركت من استطالة وجهه ونعومة شعره الأسود الفاحم أنه ليس مصريا، إن سحنته تلك

تحمل ملامح دول الخليج ورائحة البترول، ظلت تحدق فيه مؤملة أن ينتبه إلى وجودها، ولما طال التحديق ولم يلتفت لها، نهضت واقفة، أطفأت سيجارتها، وغادرت مائدتها متجهة إلى دورة المياه.

لم يكن في ذهنها شيء بعينه تنوي عمله، ولكنها فقط كانت تريد أن تستعرض جسدها أمام بصره وهي تمر أمامه، رغم علمها أنها لا تمتلك قوامًا مميزًا، ولكنها كانت تأمل أن تلفت بدانتُها بالذات نظرَه، فكثير من الزبائن يهوون من كان لها جسد مثل جسدها، على اعتبار أنهن أكثر ملائمة للفراش.

نجحت في لفت نظره أثناء عودتها من دورة المياه، كانت عيناه معلقه بصدرها، بالقرب من مائدته تظاهرت بأن قدمها قد تعثرت، حيلة قديمة، قدم حيل النساء منذ أن اتخذن الدلال سلاحًا من أسلحتهن، كانت تتعمد أن تكون حيلتها مكشوفة تذخر بها الأفلام العربية القديمة، على الفور نهض ليقيلها من عثرتها، ارتمت على صدره، اقتربت بأنفاسها من وجهه، لاحظت سمرته النقية، تأكدت من أنه خليجي من لهجته، راح يردد: سلامتك.. سلامتك مدام.

أجلسها على أقرب مقعد أمام مائدته، قدم لها كوبًا من الماء، رمته بنظرة امتنان.

لم يحتج وهي تجلس بجواره في المرسيدس أخبرها أنه طالب يدرس بالجامعة، وأنه يقيم بشقة مفروشة بالإبراهيمية، تبين لها أن شقته على بعد مئات الأمتار من العمارة التي تقطن في بدرومها.

عندما صعدت معه إلى شقته ووقع بصرها على أثاثها الفاخر، وجدتها أفخم من أي شقة تصورتها في حياتها.

استقبلها بحفاوة، قدَّرت أنها أكثر مما تستحق، وهي التي ما تعودت إلا على المنازل الحقيرة والأسرّة البالية، أشار لها إلى الحمام وإلى غرفة النوم أدركت ما يرمي إليه، دخلت الحمام أولًا، راحت تتذكر ما ارتدته في يومها من ملابس داخلية قبل مغادرتها مسكنها، لحسن الحظ كانت نظيفة معطرة الرائحة.

بعد أن انتهيا استسلم لنوم عميق، طالعت وجهه الأسمر البريء، لم ترغب في إزعاجه، خرجت من غرفة النوم على أطراف أصابعها، توجهت إلى المطبخ، وجدته كما توقعته ممتلئا بالأواني والأطباق المتسخة، والتي تحتوي على بقايا طعام منذ يوم أو يومين على الأقل، طالعت علب البيرة الفارغة مبعثرة في كل مكان، وأطباق بقايا المزة من اليوم السابق، أو ربما قبل السابق، هي... هي مطابخ العزاب تعرفها جيدًا، وعلى الفور غيرت ثيابها، وقامت بتنظيف المطبخ ومحتوياته تنظيفًا كاملًا، نظفت الأطباق والأواني وحتى الجدران المغطاة بالسيراميك، وبعدها فتحت الثلاجة وأسرعت في إعداد وجبة سريعة شهية، وعندما استيقظ ماجد -وهذا هو اسم الشاب الخليجي- بعد ساعات ثلاث، كانت فاطمة قد أعدت له طعامًا يضم بولوبيف ولحم روستو وأطباق أخرى مما وجدت موادها بالمطبخ، فوجئ بمشهد المائدة التي زودتها بكل ما وجدته مناسبًا للأكل بالثلاجة، هتف فرحًا، هجم عليها يقبلها من فرط سعادته بها، كانت تعرف أن الطريق إلى قلب الرجل لا يمر عبر الصدور الناهدة والأرداف المدملجة

والسيقان العارية فقط، إنما يمر أيضًا عبر معدة الرجل نفسه، أخبرها أن جماعة من أصدقائه سيقضون الليلة معه.

لم تمر سوى ساعة حتى زاره ثلاثة من أصدقائه في مثل سنه يتحدثون اللهجة الخليجية، هشوا لها عندما فتحت لهم الباب، مد أولهم كفه إلى عنقها العاري يتحسسه وهمس بكلمة لم تتبينها، أما الثاني فمد يده إلى صدرها البارز، كانت تعلم أن صدرها مترهل لذا أحكمت شده بسوتيان محكم.

أما الفتى الثالث، فقد اكتفى بأن ضربها بكفه على مؤخرتها صائحا بصوت عال: هييه. استقبلهم ماجد مرحبًا، سمعته يقول لهم ردًا على تعليقاتهم: المهم إنها بضاعة جاهزة.

وبدأت طقوس الليلة مثل أي طقوس للشباب الأعزب، راحت تصب أقداح الشراب وتقدم أطباق المشهيات، مستجيبة في جميع الأوقات للمساتهم ومداعباتهم في الأجزاء التي يفضلونها من جسدها.

في نهاية الليلة انفرد بها الواحد تلو الآخر، كان الصباح قد أشرق، فدخلت إلى الحمام تغتسل، ثم خرجت لتنام في أحضان ماجد، ولم يستيقظا إلا قرب الغروب، تذكرت فجأه أختها وفاء فهرعت مغادرة الشقة إلى غرفة البدروم، اطمأنت عليها، تعودت الفتاة على غيابها، وانكفأت على دروسها تقطع الوقت في مذاكرة الدروس، لم تظل مع وفاء سوى نصف ساعة، عادت بعدها إلى شقة ماجد.

من نظراته الحانية التي ظل يلاحقها بها أثناء حركتها في الشقة أدركت أنه يرحب ببقائها معه.

في الأيام التالية، تكررت سهراتهم بنفس مفرداتها تقريبًا إلى أن انتهى العام الدراسي، أخبرها ماجد أنه قد أنهى دراسته بالجامعة، وأنه مضطر للانتقال إلى القاهرة بسبب التحاقه بعمل بسفارة بلده بمصر.

فوجئت بقراره كأنما لم تتوقع رحيله في يوم ما، قالت له أنها تحبه وأنها لن تتركه أبدًا، بدوره أخبرها أنه سيفتقدها وأنه لن ينساها، أخرج رزمة أوراق مالية دسها في يدها، دون تردد وجدت نفسها ترفضها، أعطاها من قبل نقودًا كثيرة، وكانت سعيدة بعطائه، ولكن هذه المرة، وهي تشعر أن المقابل لهذه النقود هو افتراقها عنه، وجدت نفسها ترفضها، ترفضها بشدة، أقسمت أنها لن تأخذها، وستسافر معه، ستلازمه في مسكنه الجديد بالقاهرة، إلا إذا أصر هو على الرفض، رد بسرعة بما يعني أنه يرحب بها، ولكنه استدرك يذكّرها بأختها ودراستها وبأنها ستنتقل إلى المرحلة الثانوية بعد شهور، أكدت له أنها ستستأجر غرفة قريبة من مسكنه تقيم فيها أختها، ولا تذهب إليها إلا في الساعات التي يستغني عنها فيها.

هز كتفيه موافقًا ولسان حاله يردد: على كيفك، بعد شهر من حديثها انتقلت مع ماجد إلى القاهرة، استأجرت غرفة ببدروم عمارة قريبة من عمارة ماجد، لم يتغير في الأمر شيء سوى أنها وجدت بالبدروم الجديد جارة طيبة كانت توصيها على أختها في غيابها.

اختلف أصدقاء ماجد بالقاهرة عن أصدقائه بالإسكندرية، لقد كانوا موظفين معه بالسفارة يأتون في ملابس أنيقة رسمية، ورغم أنهم كانوا يقضون كثيرا من الوقت في شرب البيرة أو الويسكي، ولعب

الورق في كثير من الأحيان، إلا أن أمرين اختلفا عن أصدقاء الإسكندرية، أولهما أن أحدًا منهم لم يطلبها للفراش ولو مرة واحدة، وحتى ماجد، لا تذكر آخر مرة طلبها فيها، شعرت بمرور الوقت أنها قد تحولت من عشيقة ومديرة منزل إلى مجرد مديرة منزل، وأحيانا كانت تفكر في نفسها أنها مجرد شغالة، لا تختلف كثيرًا عن آلاف الشغالات اللاتي تذخر بهن عمارات وشقق القاهرة.

قنعت بمنزلتها الجديدة، قناعة لم تخلُ من قلق، وإن كانت نفحات ماجد ونفحات زائريه لها تخفف كثيرا من مرارة هذا الإحساس.

الأمر الثاني الذي اختلف فيه أصدقاء القاهرة عن أصدقاء الإسكندرية كان يتمثل في الجدية التي تكسو أحاديثهم، فالأصدقاء الجدد كثيرًا ما تحتد أحاديثهم، وتحمرّ وجوههم، وتعلو أصواتهم، حتى ليكادوا يتشاجرون.. أدركت منذ الأيام الأولى لتواجدها معهم أن أصدقاء القاهرة مختلفون عن أصدقاء الإسكندرية، رغم أنهم جميعًا من نفس القطر الخليجي.

رصدت أنهم لا يتصايحون ولا تغلظ وتخشن أصواتهم إلا عندما تتسرب السياسة إلى أحاديثهم، فينقلبون إلى ديوك تتصارع وثيران تتناطح، كانت في هذه الأوقات تطالعهم مشدوهة باحثة عن سبب حقيقي لكل هذا الشجار، وعندما تفشل في تعليل ما يجري أمامها، كانت تحاول معابثتهم أو ملاطفتهم، ولكن الصرامة المرتسمة على وجوههم كانت تجعلها تتقهقر منكمشة متراجعة، حتى في الضحكة أو الابتسامة التي تكون قد ارتسمت على وجهها.

فيما بعد خمّنت أنهم يتحدثون في قضايا سياسية خلافية، أدركت أنهم رغم صدقاتهم، ورغم أنهم يعملون في مكان واحد، إلا أنهم يمثلون اتجاهات سياسية متناقضة في بلدهم.

قالت ذات مرة لماجد في محاولة لمداعبته: ليه ما تتفقوش بدل ما انتو كده عاملين زي ناقر ونقير.

ضحك وهو يسأل عن معنى كلمة "ناقر ونقير" فلم تستطع أن تجيب، عاد يسألها بعد أن عاد التجهم إلى ملامحه: عايزانا نتفق على إيه؟

تغلبت بصعوبة على خجلها الذي استدعاه تجهمه المفاجئ وقالت: تتفقوا في السياسة يعني.

سأل مستفهما: إنتي بتفهمي اللي احنا بنقوله؟!

ردت بدلال نافية: مش للدرجة دي، أنا يا أستاذ ماجد، اسم الله على مقامك، طور الله في برسيمه.

ردد وعلامات التجهم لا زالت تكسو ملامحه: مش فاهم يعني إيه طور الله في برسيمه.

ردت مداعبة: يا شيخ ما تكشرش كده، دا مثَل عندنا، يعني أنا زى البهيمة، البقرة، يعني ما بفهمش حاجة من اللي انتو بتقولوه، إنما بس بيصعب عليا تضيعوا الليالي الحلوة في النقار والشَكَل.

ذابت التكشيرة المرتسمة على ملامحه، عادت تقاطيعه للانبساط، قال: الحكاية مش سهلة زى ما انتي فاكره يا بطة، إذا احنا اتفقنا هنا، الشعب العربي كله يمكن يتفق.

ردت، وقد زادت رنة الدلال في لهجتها بعد انفراجة الحديث التي شعرت بها: مش مهم الشعب العربي، المهم انت وصحابك.. إنتو بس اللي تهموني، أنا والله العظيم ساعات أخاف لتقوموا تمسكوا في بعض وتتعاركوا.

مسح على رأسها بيده، وقال ينهي حديثه معها، محاولًا تقليد اللهجة المصرية: إنتي مش حتبطلي حلاوة يا بت، يالّا روحي جهزي الفطار.

كان يسعدها بكلماته، يسعدها بمجاملته، فلم تكن بطبيعة الحال تستطيع تصديقه، فهي تعرف أنها لا يمكن أن تقارن بالفتيات اللاتي يأتي بهن بعض أصحابه من وقت لآخر، كانت تصبح في هذه الأوقات سيدة المنزل ومديرته وخادمة للجميع، كانت الفتيات يلجأن إليها، يسألنها عن ماجد وأصدقائه، وطباعهم، وجنسياتهم، ونزواتهم، ومدى سخائهم وكرمهم، كانت تشعر في هذه الحالة أنها سيدتهم جميعًا، ولكنها كانت حريصة في الوقت نفسه ألا تفشي أي معلومة عن ماجد أو أصدقائه، كانت تفعل ذلك على الرغم من سعيها لتوطيد العلاقة ببعضهن، فربما تحتاج إليهن في يوم من الأيام، كما كانت تَعِدهن بأن تتوسط بينهن وبين ماجد وأصدقائه لاستدعائهن في ليالٍ قادمة، من بينهن جميعًا توثقت علاقتها بنجاة، التي كانت راقصة ناشيءة التقطها صديق لماجد من أحد الكازينوهات بشارع الهرم، تعودت نجاة زيارتها في غير مواعيد السهرات، وردّت فاطمة الزيارة، وذهبت إلى منزلها بشبرا، حيث كانت تعيش مع أمها المطربة السابقة بالأفراح.

توطدت الصداقة بين نجاة وفاطمة، حتى أسرّت لها نجاة بأنها تتمنى أن يتوب الله عليها وتتزوج، وتصبح مثل أي امرأة، زوجة لرجل واحد، ردت فاطمة بما يعني أن هذه أمنيتنا جميعًا، نحن وكل من كان على شاكلتنا، ولكن كيف يتحقق ذلك، فالشباب عادة لا يسعون خلف من كانت مثلنا إلا ليصطحبوها في الفراش، لتهبهم ما لا تهبه لهم زوجاتهم، وفي الوقت نفسه ،لا يقبلون بالزواج ممن كن مثلنا.

في لقاءاتهما التالية، وفي أحاديثهما عن هذا الأمر، كانت نجاة تصر دائما على رغبتها في ترك مهنة الرقص وحياة الليل، والاكتفاء بالبيت وإنجاب الأطفال وتربيتهم.

أخبرتها نجاة أنها بسبب إصرارها على الوصول لهدفها، لا زالت تحتفظ بعذريتها، وتناضل في كل ليلة تقريبًا كي لا تفقدها.

دهشت فاطمة لما تسمعه من صديقتها، فكل من يعملن في هذا المضمار فاقدات لعذريتهن منذ زمن، منذ أن أصبحت أنثى أو ربما قبل ذلك، فجمالها غير المنكور، ومهنتها غير المأمونة، لن يدعا مجالًا لإمكانية تجاهلها أو السهو عنها، وإعطائها فرصة للإفلات قبل أن ينتهكوا جسدها.

ولكن نجاة أخبرتها أنها لم تتمكن من الصمود حتى هذا الوقت إلا بفضل نصائح أمها وحمايتها طوال السنوات الماضية.

شغلت ذهنَ فاطمة مشكلةُ صديقتها صغيرة السن شديدة الجمال، والتي لازالت بكرًا، ما المانع إذن أن تنجح في الإيقاع بأحد الشباب الأثرياء، إنها مرشحة لكي يقع في هواها أي شاب يحلم

بالصبا والجمال، أما مهنتها كراقصة، فتجعلها أكثر قدرة على العطاء الجنسي والعاطفي، وهي فعلًا كذلك.

لم يرفضها إلا الشباب الذين تقف خلفهم عائلات كبيرة، يبحثون لأبنائهم عن عرائس من عائلات في نفس المستوى.

إن نجاة في حاجة إلى عريس بغير عائلة خلفه تتحدث عن جذور متكافئة للمصاهرة، وترى في مهنتها عيبًا لا يُغتفر، حتى ولو هجرتها عقب الزواج.

صارحت نجاةُ فاطمةَ، أثناء حديث جرى بينهما في مطبخ شقة ماجد، بأنها تتمنى لو تتزوج ماجدا، وأنها توافق على الزواج منه تحت أي شروط يأمر بها، حتى ولو طلب أن يكون زواجهما سرًا، على الرغم من أن أهله هناك في الخليج، واستطردت نجاة تقص عليها ألوان السعادة التي ستنسجها له، وكيف ستجعله يعيش عالما جميلًا لم يجربه بشر قبله.

شعرت فاطمة بسعادة انتقلت إليها من نجاة أثناء حديثها عن حبها لماجد، لقد أحبت هذا الحب، أحبته بشدة، حتى إنها تتمنى أن تبذل كل ما تستطيع لكي تحميه وتجعله يستمر وينمو، سرت حرارة في جسدها وصعدت إلى رأسها، إنها تعتبر ماجدًا رجلها، زوجها غير الرسمي، فهي التي أوقعت به، وتصورته وقتها رجلًا يخصها وحدها.

إنها تسمح له باصطحاب الأخريات، ولكن هذا لا ينفي عنها أنها عشيقته الأساسية، التي يلجأ إليها في وقت الحاجة، هن متغيرات، أما هي فثابتة، مثلها مثل الجذور الضاربة في الأعماق.

سألت فاطمة محدثتها: بس إزاي لغاية دلوقتي انتي لسه بنت بنوت وانتي كل ليلة مع ماجد؟

طلبت منها نجاة أن تخفض صوتها حتى لا يصل إلى غرفة ماجد، طمأنتها فاطمة أن ماجدًا قد غادر الشقة منذ دقائق وأنها تابعت صوت خطواته أثناء حديثهما.

اعترت الدهشة وجه نجاة لحظة لعدم انتباهها للملاحظة الأخيرة التي أبدتها فاطمة.

عادتا إلى حديثهما، قالت نجاة: قليل خالص لما كان يتقفل عليا باب مع راجل، ولما كان بيحصل، كنت ألهي الزبون بالرقص واخليه يشرب لغاية ما ينام، ولغاية دلوقتي ربنا ساترني. قاطعتها غير مصدقة: حتى مع ماجد؟

مؤكدة قالت: حتى مع ماجد.

ثم استطردت: طبعًا أنا نفسي أديله كل اللي هو عايزه، بس نفسي أكتر أديله كل حاجة في الحلال، علشان لو طاوعت هوايا وسبتله نفسي، فده بالذات اللي حيبعده عني، وما يخليهوش يتجوزني.

همست فاطمة لنفسها: نجاة بتحافظ على نفسها علشان عشمانة تتجوز ماجد، وأنا جوزي مات من غير ما يقربني، ومسعد اداني عشرين جنيه شفقة.

أفاقت فاطمة من أفكارها على صوت نجاة، سمعتها تقول لها بإلحاح: ما تقدريش تجيبيهولي.

– مين؟ قصدك مين؟

غمزت نجاة بعينها غمزة فهمتها فاطمة، ولكنها ظلت تحدق في وجهها كأنها تكتشف جمالها في هذه اللحظة فقط.

ولما لاحظت نجاة صمتها قالت، وقد ظنت أن محدثتها لم تفهم ما ترمي إليه: ماجد.. هوه فيه غيره، والله يا بت لو حصل يبقى ليكي الحلاوة الكبيرة.

استطردت نجاة بحماس: ليكي عليا اتكفل بيكى انتي واختك طول العمر.

همست فاطمة لنفسها: بتساومني على راجل، وعايزاني أبقى خدامة عندها بقية عمري.

لاحت نظرة من فاطمة إلى صورتها في مرآة الصالون، الذي كانتا قد انتقلتا إليه أثناء حديثهما، تجمدت نظرتها على المرآة، راحت تتأمل صورتها وهي تقارن صورتها بصورة نجاة، مرت بلحظة اعتراف نادرة، أومأت برأسها إلى الأرض هامسة لنفسها: الحق لو ده حصل يبقى عدل ربنا.

كانت فاطمة من هؤلاء البشر الذين يعترفون بقدسية الجمال ومكانته، وحق صاحبته في أن تتبوأ عرش القلوب.

قرأت نجاة ما يدور بخاطر محدثتها، فتركت قلم الروج الذي كانت تمسكه في يدها شارعة في دهان شفتيها الغضتين به، نهضت، اقتربت من صديقتها، أحاطتها بذراعيها، قبلتها في وجنتها وهي تقول:

- احنا اخوات يا بطة، مش عايزاكي أبدًا تفهميني غلط.

وحانت منها نظرة إلى حقيبتها، فتحتها، وأخرجت منها علبة مكياج كبيرة، قدمتها لصديقتها وهي تقول ضاحكة: خدى.. خدى اتزوقي.. العلبة دي من بلاد بره، مش عارفة فرنسا ولا أمريكا.. إتزوقي كده واتغندري، وإن شاء الله ندرٍ عليا لانقيلك العريس اللي ينغنغك ويهنيكي.

ولما لاحظت صمتها افتعلت ضحكة جاءت أعلى مما يسمح به الموقف، ثم قالت: جوزيني واجوزك.

انتهزت فاطمة أول لحظة صفاء بينها وبين ماجد، سألته: مش ناوي تتجوز يا أستاذ ماجد؟ لمحته بطرف عينها وكانت تتظاهر بالتشاغل عنه بفرد ملاءة على السرير.

وهو يضحك ساخرًا قال: هيه، عندك عروسة؟

ردت: عندي.

رد ضاحكا: على الله تكوني انتي.

ابتلعت سخريته وقالت: أنا عارفة إني مش قد المقام.

ارتسمت علامات الخجل على وجهه وهو يقول:

- مش قصدي، هو انتي زعلتي؟
- ما زعلتش.
- أنا كنت بهزر.
- وأنا كنت بتكلم جد، أصل مش عاجبني حالك كده وانت كل يوم مع واحدة شكل بتضيع عليها فلوسك وشبابك.

ضحك ضحكة عالية رنانة كعادته عندما تستبد به السعادة!

- إيه، انتي اشتغلتي شيخة ولا إيه؟

- أبدًا، بس أنا قصدي ممكن توصل لكل اللي انت عايزه، وبمصاريف أقل وتعب أقل.

- دا انتي حطاني في دماغِك بقى.

ردت صادقة: وهو أنا ليّا همّ في الدنيا غيرك وغير سعادتك.

- وفكرتيلي في إيه بقى يا ماما؟

تجاهلت لهجة السخرية وواصلت بجدية قائلة:

- ولا حاجة، تتجوز واحدة من اللي بييجوا هنا، ومنها مراتك ومنها تشوف مزاجك.

سرحت عيناه لحظة تحلق في سقف الغرفة، قرأت فيهما قبولًا مبدئيا، أعقبه تعليق باركته صدر عنه: والله فكرة.

تهلل وجهها فرحًا لبشائر النجاح التي صادفتها منذ اللحظة الأولى لطرحها عرضها: بنت بنوت، محافظة على شرفها، وبتحبك موت. رفع عينيه متسائلًا: مين؟

كانت فاطمة تقف أمامه ممسكة بطرف الملاءة، راحت تتمايل بدلال وهي تقول: حذّر.

في اللحظة التالية أدركت أنها أخطأت، فلم يكن من الصحيح أن يسرح ذهنه فيمن هي أجمل من نجاة، لذا سارعت بقطع الطريق عليه: بنت بنوت.. وهيه فيه غير واحدة بس اللي كده.

قال متشككًا: أنا ما افتكرش إن فيه بينهم بنت بنوت أصلًا.

ردت بسرعة وتحد: لأ.. فيه.. نجاة.

هتف قائلًا: الرقاصة.

مؤكدة: هيّه بعينها.

- دي لسه بنت بنوت؟ مش معقول.

عادت تؤكد: أيوه، وحتشوف.

مفكرًا قال: غريبة.

- يعني قصدك تكون بتكدب عليا؟

رد نافيًا: لأ ما قصدي.. أقصد..

ولم يكمل عبارته، نهض واقفا متهيئًا للانصراف، خيل لفاطمة لحظة أنه قد نسي الموضوع تمامًا، وبعد لحظات، عندما وجدته يعبر صالة الشقة في سبيله لمغادرتها، صاحت به: ما قلتليش.. ردك إيه؟

أجاب قبل أن يغلق الباب خلفه: أفكر.

بعد انصرافه، سارعت فاطمة لتغيير ثيابها، واتجهت من فورها إلى منزل نجاة، أحست كأنما اكتشفت مشاعرها نحوها في هذه اللحظة، شعرت وهي ذاهبة إليها، ورغم تقارب عمرهما، كأنها أمها أو أختها الكبيرة، ها هي مشاعر الفرح تخالجها كأنها لابنتها أو أختها الصغيرة، لقد افترضت موافقة ماجد، وذهبت لتزف البشرى، وهي ترسم في خيالها صورة تفصيلية لما هو قادم من أيام: "سيكون لي فضل عليه وعليها، وسأعيش في كنفهما، وأنشيء أختي وفاء النشأة اللائقة،

ستدخل الجامعة، وتتزوج من جامعي في مثل سنها، وربما يكون أحد أصدقاء ماجد، يشابهه في أناقته ونظافته".

بعد أن أخبرت نجاة بكل ما دار بينها وبين ماجد، وعدتها نجاة بزيارتها في اليوم التالي، وعندما وافتها في الميعاد، طالعتها فاطمة مشدوهة، كانت في أكمل زينتها، ترتدي فستانًا ضيقًا أبرز تقاسيم قوامها الرائع، أما الوجه، فقد زينته العينان المكحولتان، والبشرة الخمرية، والشفاه الوردية، والشعر الأسود الناعم المنسدل على الكتفين، طالعتها فاطمة ببهجة أم تطالع ابنتها في ليلة زفافها.

استقبلها ماجد بالترحاب الواجب، تركتهما معًا رغم أنها كانت تتحرق شوقا لحضور لقائهما، كانت تعشق عشقها، وتتوق لسماع كل كلمة تدور بينهما.

تشاغلت بإعداد طعام الغداء بالمطبخ، بعد حوالي ساعة، كان ثلاثتهم يتناولون الطعام بغرفة الطعام، لمحت فاطمة النظرات المتبادلة بين جليسيها، أدركت على الفور فحوى النقاش الذي دار بينهما خلال الساعة المنصرمة.

*****

بعد تناول طعام الغداء واحتساء أقداح الشاي والقهوة، تهيأت نجاة للانصراف، قبلت صديقتها بحرارة، وعدتها بأن تحادثها تليفونيًا عقب عودتها إلى منزلها، لتقص عليها كل ما دار بينها وبين ماجد، الذي كان يقف خلفها في صالة المدخل، وعلى وجهه ترتسم كل

أمارات السعادة، بعد انصراف نجاة، وجدته فاطمة يتحدث عن السعادة التي يشعر بها في هذه اللحظة، هرع إلى جهاز التسجيل، أدار شريطا لأغنية عاطفية رقيقة، شعرت فاطمة أن الخجل وحده هو الذي يمنعه من الرقص أمامها من فرط سعادته.

دق جرس الباب، هرعت تفتحه، توقعت أن ترى نجاة أمامها وقد نسيت شيئًا ما، ولكنها لم تجدها، وقع بصرها على رجلين فارعي الطول، غليظي الملامح، سدا بجسديهما فراغ الباب، سألها أولهما بعينين جاحظتين: مش دي شقة ماجد سالم البراوي؟

أومأت برأسها، وسألت بدورها: نقوله مين؟

لم ينتظر إجابتها، دفعها أمامه إلى الداخل.

لمحت عينيه الجاحظتين وهما يمسحان الأثاث والجدران بنظرة حادة، لمحت خلفه عددًا من الرجال اندفعوا بدورهم يحتلون صالة الشقة الواسعة.

كان ماجد قد دخل إلى غرفة النوم، جاءها صوته من الداخل: مين جه يا فاطمة؟ قبل أن تجيب كان قد وصل إلى الصالة، فوجئ بمشهد القادمين، سمعت الرجل ذا العينين الجاحظتين يقول: أستاذ ماجد، إلبس هدومك وتعالى معانا.

هتف ماجد متسائلًا مستنكرًا: إنتو مين؟ رد الرجل: أمن الدولة.

عندما سمعت الرد، لم تكن دهشتها أكبر من دهشة ماجد الذي تسمر في مكانه.

إن ماجدًا يتحدث في السياسة هو وزملاءه، كثيرًا ما ترتفع حدة النقاش بينهم، كثيرًا ما تسمع في محطات التلفزيون العربية عن اعتقالات لأناس مختلفين، حتى في بلد ماجد نفسه، ولكن ما له هو وكل هذا؟

اتجهت فاطمة إلى كبيرهم ذي العينين الجاحظتين، الذي عرفت فيه ضابط الحملة، وقالت بتوسل: عايزين إيه يا بيه؟ يمكن حضرتك يعني.. يمكن فيه غلط.

قاطعها الضابط بإشارة من يده يأمر بالسكوت، ولما لم تسكت قال وهو يرمقها بنظرة أخرستها.

- إنتي مين إنتي؟

انتابتها حيرة فجائية، لم تعرف بماذا تجيب، سألت نفسها من تكون هي بالنسبة لماجد؟ لقد بدأت كعشيقة، وانحدرت إلى أن أصبحت شغالة، ولكنه لا يعاملها كشغالة، فهي تجلس معه ومع أصدقائه على مائدة طعام واحدة، ولا يخلو الأمر من مرافقته في الفراش، هو أو أحد أصدقائه، عندما يطلبون منها ذلك.

أجاب ماجد بدلًا منها كأنه يهرع لإنقاذها من الحرج: المدام تبقى الهاوس كيبر.

كانت دقات قلبها تتسارع، خشيت أن يسمعها الضابط، عندما وقع بصرها على صورتها في المرآة الكبيرة التي تتوسط جدار الصالة فوجئت بالصفرة التي تغطي بشرتها السمراء القاتمة، كان رجال الشرطة منتشرين في كل الشقة، يفتشون، يقلبون الكتب والملابس والدواليب

وزجاجات العطر، واقتحموا غرف النوم والطعام والتراس والمطبخ، وحتى سلة القمامة، قاموا بإفراغ ما فيها وفحصه.

شعرت فاطمة بإحساس بالذنب جهلت مصدره، ولكنها في النهاية أيقنت أنه بسبب عجزها أمام ما يتعرض له ولي نعمتها من إهانات واعتداءات.

فتحت فمها لكي تعترض، حاولت أن تبدي احتجاجها، خُيّل إليها أنها قد أصدرت أصواتًا ما، ولكن لم يصل إلى أذنيها أي صوت صادر عنها، حاولت مرة ثانية، سمعت نفسها تقول: ما يصحش كده.. ماجد باشا في السفارة ومش وش بهدلة.

قام أقرب مخبر لها بدفعها في صدرها، كادت تقع على ظهرها لولا أن الحائط القريب تلقى جسدها وهو على وشك السقوط، لمحت وجه ماجد في هذه اللحظة، كانت سمرته قد تضاعفت، أو بالتحديد تحولت إلى سمرة قاتمة أشبه بلون البن المحروق، سمعت الضابط يقول: إلبس وتعالى معانا.

حرك ماجد شفتيه مذهولا: ليه؟

رد ذو العينين الجاحظتين: مش حتغيب، هيّه نص ساعة مفيش غيرها، ويمكن ما نكملهاش.

همس الضابط لمخبريه بكلمات لم تسمعها فاطمة، ولكنها فهمت أن كلماته بخصوصها، لأن عيني الضابط الجاحظتين كانتا متجهتين إليها.

بعد دقائق خرجوا جميعًا مصطحبين ماجدًا، جرت فاطمة إلى التليفون لتخبر بنجاة بما حدث، قبل أن تكمل حديثها عاد جرس الباب يدق، تركت مسماع التليفون وذهبت لتفتح الباب، وقع بصرها على المخبر الذي سبق أن همس الضابط في أذنه ببضع كلمات، قال لها: تعالي يا بت.

لم يتنظر إجابتها، سحبها من يدها، أو على الأدق، جرها جرًا إلى خارج الشقة، كانت ترتدي ملابس المنزل وفي قدميها شبشب حمام، تذكرت في هذه اللحظة كل الأفلام والتمثيليات التي شاهدت فيها مناظر مشابهة.

هناك في المكتب، قام الضابط ذو العينين الجاحظتين من أمام مكتبه، كان في هذه اللحظة أكثر هدوءًا وأكثر وسامة وأكثر استعدادًا للتفاهم، ومع ذلك، شعرت بنظراته سكاكين حادة تخترق كل قطعة في جسدها، مسح وجهها بنظراته، ثم نزل بها إلى صدرها وبطنها، شعرت بخجل ما يستولي عليها في هذه اللحظة، ربما بسبب البطن البارز بأكثر مما ينبغي، سأل ساخرًا:

- إنتي الشغالة يا بت؟

أومأت برأسها علامة الموافقة، ورغم أن بصره كان فوق وجهها في هذه اللحظة إلا أنه صرخ فيها: انطقي يا بت.

همهمت مستسلمة: أيوه يا بيه.

- قولي لنا بقى، مين اللي بييجي الشقة؟

أجابت: صحابه يا بيه، تلاته مفيش غيرهم.

- أساميهم إيه؟

ردت: ما انتو عارفينهم يا بيه، أكيد عارفينهم.

نهرها قائلًا: إنتي حتتلامضي يا بت؟ انطقي أساميهم إيه؟

ردت مرددة أسماءهم الأولى، عاد يسأل: بيتكلموا في إيه؟

- ما اعرفش يا بيه، هما لما بيقعدوا دايمًا يكونوا بيشربوا، والكلام دايمًا بيبقى حوالين المزة والخمرة وأصنافها وحاجات كده.

عاد إلى نهرها بلهجة أكثر حدة:

- يا بت ما تضيعيش وقتي، قلتلك بيتكلموا في إيه غير الحاجات دى؟ بيتكلموا في السياسة يعني؟

متوسلة ردت: يا بيه أنا ما اعرفش، حتى ولو اتكلموا في أي حاجة تانية مابفهمهاش، ما أقدرش أعرف هما بيقولوا إيه.

عاد الضابط للجلوس مرة أخرى أمام مكتبه بعد أن كان يدور حولها وهي واقفة أمامه، لمحت في عينيه الجاحظتين، على عكس ما توقعت، نظرة مستكينة، كانت التعبيرات الحادة المرتسمة على تقاطيع وجهه قد لانت، قال لها: طب اطلعي بره، فيه واحد حياخد منك شوية بيانات.

خرجت مهرولة، غادرت الغرفة على الفور، استقبلها في الخارج ضابط آخر، خمنت أنه أقل رتبة، راح يسألها عن أمها وأبيها وأختها، حمدت الله أن الأسئلة قد بعدت عن ماجد وأصحابه، فقد خشيت أن تقول أي شيء يضرهم دون أن تقصد.

قبل منتصف الليل أطلقوا سراحها، وجدت أختها ونجاة جالستين مع بواب العمارة، استقبلوها بفرحة كادت تغطي على حزنها على ماجد.

طلبت نجاة ووفاء منها أن تعود إلى منزلها، ولكنها أصرت على أن تبيت في شقة ماجد، شعرت أنها لو تركت شقته ستكون في حكم من تخلى عنه في محنته.

حاولت نجاة أن تثنيها عن قرارها، فذكرت لها أن الشرطة ربما تأتي لتأخذها مرة أخرى، ردت عليها: ياخدوني، يعني حيعملوا بيا إيه؟! إيش ياخد الريح من البلاط؟

عندما غادراها وأصبحت وحيدة، جلست تفكر فيه طوال الليل.

في الصباح الباكر استيقظت، راحت تعد له الطعام، أعدت طعاما فاخرا بقدر ما استطاعت، تعمدت أن تطبخ كمية كبيرة، فمن المؤكد أنهم قد أخذوا أصدقاءه أيضًا، وضعت كل ما طبخته في حقيبة كبيرة وذهبت به إلى مديرية الأمن، نفس المكان الذي كانت به في الليلة السابقة، ولكن عندما حاولت أن تدخل مكتب الضابط ذي العينين الجاحظتين، وكانت قد عرفت أن اسمه المقدم/ أسعد طه، منعها الشرطي الواقف أمام الباب، توسلت إليه، ولما زاد إلحاحها دخل إلى المكتب وخرج ليقول لها: اللي انتي عايزاهم اترحلوا النهارده الصبح من هنا لمكان ماحدش في المديرية كلها يعرفه.

رددت بذهن غائب: ماحدش في المديرية كلها يعرفه؟ يعني إيه؟ ثم استطردت سائلة: إنت متأكد؟

رد مؤكدًا: طبعًا، ماحدش يعرفه إلا سعادة الحكمدار طبعًا.

- وفين الحكمدار ده وأنا ادخل له؟

- لسه ماجاش.

ثم استطرد ساخرًا: ولما ييجي حاولي تقربي من عربيته كده وتكلميه علشان يضربوكي بالنار. تمنت لحظتها أن يطلقوا عليها الرصاص فعلًا، وتخيلت وجه ماجد عندما يسمع بخبر مصرعها ويقول: والله بطة دي بنت جدعه بحق ربنا.

كانت مستعدة للموت بالفعل حتى قبل أن تسمع ماجدًا ينطق بهذه الكلمات، فهي متأكدة من أنه سينطق بها.

دفعها الشرطي في صدرها وهو يحثها على الانصراف:

- أنا طولت بالي عليكي قوي.

عادت بالطعام، وضعته في الثلاجة، ظلت طوال الأيام التالية تتردد على المديرية في كل صباح وهي تحمل حقيبة الطعام، وهي تدعو ربها أن تعثر على ماجد أو أحد أصدقائه، أو حتى شخص ما يطمئنها عليه، ولما تلف الطعام قامت بصنع غيره وبنفس الكمية الكبيرة، آملة أن تنجح في إيصاله له ولزملائه.

*****

بعد مرور عشرة أيام، دق جرس الباب، في أول الأمر ظنت أن وفاء أو نجاة بالباب، وقد جاءت إحداهما لزيارتها؛ ولكنها بعد لحظة تذكرت أن كلًّا من وفاء ونجاة لا تأتيان لزيارتها في هذا الوقت المتأخر،

طرأ في ذهنها أن يكون القادم هو ماجد نفسه وقد أُفرج عنه، هرعت إلى الباب، تعثّرت في طرف السجادة، نهضت، فتحت الباب،

فوجئت بأحد المخبرين الذين سبق أن جاءوا برفقة الضابط أسعد في الليلة المشيءومة، بصوت خشن، وبلهجة حازمة لا تحمل أي دلالة لإمكانية المراجعة قال:

- تعالي يا بت، الباشا عايزك.

واستطرد بصوت أقل خشونة: مش انتي عايزه توديله أكل ومش عارفة طريقه؟

أومأت برأسها وهي تقول: آه والنبي يا اخويا. أكمل عبارته: الباشا حيقولك على مكانه علشان توديله اللي انتي عايزاه.

استطرد وهو يطالع ترددها: ولا اروح أقول له إنك مش عايزه تيجي؟

على الفور هتفت: لا يا اخويا أنا جايه أهه.. جايه معاك، حلبس وآجي معاك هوا.

عندما وجدت نفسها بمكتب الضابط أسعد شملتها رعدة عابرة، انتفض لها كل جسدها.

بعد لحظة دخل الضابط، شعرت بغصة في حلقها، وبعرق بارد على جبهتها، كانت مهيئة في هذه اللحظة لترى ماجد وماجد بالذات، سألته متوسلة: فين سي ماجد يا بيه؟ نفسي اشوفه واطمّن عليه.

لمحت على وجهه ابتسامة خفيفة لم تطمئن إليها، ومع ذلك تجاهلت إحساسها بالقلق، وراحت تكرر متوسلة طلبها الحار لرؤية ماجد، قاطعها قائلًا: أقعدي يا بطة.

- أقعد ليه؟ هو سى ماجد حبيبي لنا هنا؟

رمقها بنظرة حادة، وبصوت أكثر حدة أعاد أمره.

- أقعدي.

وجدت نفسها تجلس دون كلمة، وعيناه تزدادان جحوظًا، تحاشت النظر إلى الوجه الجاف والعينين الجاحظتين، التقط ورقة من وسط أوراق كثيرة أمامه، ومد بها يده حتى لامست الورقة وجهها وسأل: تعرفي ده؟

كانت الورقة صورة فوتوغرافية لشخص تعدى سن الشباب.

ردت على الفور: لأ ما اعرفوش.

- محتجًا قال: بتجاوبي بسرعة ليه؟ ما تبصي في الصورة كويس.

أعادت النظر إلى الصورة، الوجه الأسمر الخليجي، والشعر الأبيض في الفودين، تذكرت أنها رأته من قبل، لكنها لا تعرف لماذا عادت تقول وبإصرار: لأ ما اعرفوش. نهض واقفًا وهو يقول: يظهر إنك ناوية تقرفينا.

قفزت ملامح وتفاصيل الليلة الوحيدة التي زار فيها صاحب الصورة ماجدًا في شقته، حدث هذا بعد منتصف الليل، كان يحمل حقيبة سمسونيت سوداء، فوجئ به ماجد، بدا عليه أنه لم يتوقع

زيارته، كان المنزل خاليًا من الأصدقاء المعتادين، احتضن ماجد وقبّله بين عينيه، قابل ماجد حرارته ببرود حاول أن يداريه، صنعت لهما القهوة.

كانت المرة الأولى التي يأمرها فيها ماجد بأن تغلق باب الغرفة في جلسة تجمعه مع أحد ضيوفه.

خرجت وأغلقت الباب خلفها، لاحظت أن الحديث الذي بدأ بينهما قبل أن تغادر الغرفة لم يتعد حدود الهمس، لم تستطع فاطمة أن تسمع منه كلمة واحدة.

بعد حوالي ساعتين خرج الرجل، لم يدعُه ماجد للمبيت كما هي عادته، خاصة في الأوقات المتأخرة من الليل.

لاحظت القلق الشديد على وجه ماجد عقب انصراف الضيف، جلس يدخن صامتًا، اقتربت منه باحثة عن كلمات تحاول أن تخفف بها عنه، أمرها أن تذهب وتعد له قدحًا كبيرًا من القهوة، أدركت أن القلق قد تحول إلى ضيق شديد.

شعرت فاطمة في تلك الليلة بكراهية شديدة لذلك الرجل الذي لم تسمع له صوتًا إلا عند انصرافه، سمعته يقول لماجد وهو يقوده إلى باب الشقة: مش حاتكلم في الموضوع ده تاني، إنت مدرك أهميته وخطورته.

أومأ ماجد برأسه ولم يرد.

عندما دخلت الصالون على ماجد بقدح القهوة، لاحظت أن المطفأة الموضوعة على الطاولة الصغيرة مليئة بأعقاب السجائر.

دار في خلدها أن تسأله عما يضايقه أو يشغل باله، ولكن ملامحه الصارمة الصادمة في هذه اللحظة منعتها من الحديث، ظلت جالسة في الغرفة المجاورة طوال الليل، لم تستطع أن تنام وتتركه على هذه الحالة من الضيق والقلق، وعندما أشرق الصباح نهض، ارتدى ملابسه وغادر المنزل.

تذكر فاطمة أنه عاد في المساء، كان قد استعاد حالته الطبيعية، ولم يذكر ولم تذكر فاطمة أي إشارة بعد ذلك إلى هذا الرجل وزيارته الغريبة.

ورغم ذلك، ظل هاجسٌ من القلق يساورها كلما تذكرت تفاصيل تلك الزيارة، وخُيّل إليها أن ماجدًا قد اعترته بعض العصبية في الأيام التي تلت الزيارة.

وعندما جاء رجال الشرطة بعد ذلك التاريخ بأكثر من شهرين، شعرت، من اللحظة الأولى، أن مجيئهم وثيق الصلة بزيارة الرجل الليلية.

كان الضابط لا زال يلف حولها، بدا كأنه مولع بتأمل جسدها المكور، وعندما أصبح أمامها مباشرة، شهر إصبعه فجأة في وجهها، صرخ هاتفًا: إذا كنتي عايزه تشوفي ماجد، أو حتى عايزاه يروح معاكي، حتقولي كلمة واحدة مفيش غيرها، شفتي الراجل اللي في الصورة بيزور ماجد ولا لأ؟

شعرت بحمل ثقيل يضغط على صدرها، أيقنت أنها لو ردّت بالإيجاب فإن شرًا كبيرًا سوف يقع لماجد، ربما يقومون بسجنه مدى

الحياة أو حتى يقتلوه، لا تعرف بالضبط ماذا سوف يقع له، ولكنها موقنة أن ضررًا فادحًا سوف يقع عليه، وأذىً كبيرًا سوف يلحق به، دون أن تدري وجدت نفسها تصرخ هاتفة: لأ.. لأ، ما اعرفوش. هوى كف الضابط فوق صدغها، ضربة قوية، نزفت لثتها دمًا على إثرها، رفع كفه مرة أخرى ولم يتوقف عن النزول فوق وجهها بصفعات متوالية، انبثق الدم من فمها وأنفها، كان صوته مجنونًا مجلجلًا يصرخ: مش عايزه تنطقي يا بنت الـ....

وصف أمها بما ليس فيها، وهي لا تنكر أنه أساس عملها، ولا تعرف لماذا شعرت بإهانة شديدة لم تشعر بها من قبل لسماعها هذا اللفظ في هذه اللحظة بالذات.

عادت تصرخ بعصبية: ما اعرفش... ما اعرفش، ما شفتش الراجل اللي في الصورة دي قبل كده.

كانت مغمضة العينين، والصفعات تهوي فوق وجهها، تحول صراخها إلى هستيريا، توقف عن الضرب لحظة ليسترد أنفاسه وتسترد أنفاسها، كان صوت أنفاسها يعلو، يكاد يغطي على صراخه وهو يقول متوعدًا: اسمعي يا بت.. إحنا عارفين إنه جه زار ماجد من حوالي شهرين قبل نص الليل، تحبي أوصفلك الشنطة اللي كانت معاه والبدلة اللي كان لابسها؟ احنا بس كنا بنختبرك، وكلامك زيّ قِلّته، ودور الجدعنة اللي انتي فاكرة نفسك عاملاه طلع على فاشوش.. إحنا بس كنا بنشوف حتحاولي تساعدي ماجد ولا جبنك حيمنعك؟

فتحت عينيها تحدق في وجهه، كانت عيناه جاحظتين أكثر من أي وقت مضى، بدت كأنها تستفسر عن معنى الجملة الأخيرة التي سمعتها، هل هي جبانة؟!

الآن أصبح صوته أكثر هدوءًا وهو يقول مستطردًا: بيني وبينك دول عالم زبالة ما يستاهلوش أي عزية أو تقدير، صحيح الواد أمور شوية، سخي شويتين، إشتغلي عنده آه، خدي حبابب عنيه ياريت، لكن نحبهم؟! نعزهم؟! نبقى هبل، وأنا ما ارضاش إن بنت بلدي تبقى هبله أو عبيطه، والموضوع في الآخر وفي الأول حيقعد يومين وبعدين يغور يروح بلده.

شعرت أن التوفيق قد خان هذا الضابط الكبير، فشل أمامها، ها هو يلجأ إلى الأسلوب الناعم، ولكن ذكاءه خانه في هذه المرة أيضا، فالدماء لا زالت تنزف من فمها وأنفها، وآلام صفعاته لا زالت على وجهها، إدراكها لهذه المفردات في هذا الوقت بالذات دفعها لتقول متحدية: بس الحكاية مش عزية لماجد.. أنا لحم كتافي من خيره.

ضحك ضحكة صفراء، وجلس على مقعد أمام مكتبه، وقال ساخرًا: مش باين يا بطة، لو شهدتي قدام النيابة إن الراجل اللي في الصورة زاره، الراجل هوه اللي حيلبس التهمة، وماجد يطلع صاغ سليم.

كادت تصدق ما يقول، ولكن ضحكته الصفراء منعتها من الكلام، أيقنت في هذه اللحظة بالذات أن هذا الرجل، جاحظ العينين، ثقيل اليد والقلب، لا يمكن أن يحمل في داخله خيرًا لها أو

لماجد، أكدت إحساسَها سنُّها التي شعرت بها تسقط في قاع فمها، لمستها بلسانها، وقامت بلفظها مع الدم المنبثق من فمها فوق سجادة غرفة المكتب.

نظر إليها الضابط بقرف شديد، كانت تقول: أنا ما شفتش الراجل اللي في الصورة قبل كده، والله العظيم ما شفته.

كانت توقن أن الله سوف يغفر لها هذا القسم الكاذب بالذات.

رد الضابط: طب والله العظيم انتي شفتيه لما زار ماجدِ.. أوعي تفتكري إن احنا حنسيبك ونفوّت كذبك ده، ماجد واللي معاه حيغوروا في ستين داهية، إن ما كانش النهارده يبقى بكره، لكن انتي هنا معانا، حنقرفك انتي واختك وفاء بقية عمركم.

ارتعد جسدها، شعرت برعشة تشمله عندما نطق باسم أختها، شعرت أنها مستعدة أن تعترف بأي شيء يريد منها الاعتراف به، فقط كل ما تريد ألا ينطق باسم أختها، ولكن الاعتراف الذي نوت أن تتفوه به تجمد على طرف لسانها، ليس من المعقول أن تخون الرجل الذي لم تشعر بالأمان في حياتها إلا وقت أن أصبحت في بيته.

كانت لا زالت واقفة أمامه وجسدها يقطر دمًا وعرقًا معًا، نهض عن مكتبه، دار حولها دورة، وعلى حين فجأة ركلها بساقه، شعرت بحذائه في بطنها، صرخت من الألم، اهتز كل جسدها ووقعت على ظهرها.

لم تشعر بعد ذلك بشيء إلا وهم يحملونها خارج المكتب وسط حالة هياج عصبي شديدة للضابط الذي كان يواصل ركلها بحذائه،

ويصفها ويصف أمها وأباها بأقذر الألفاظ، حتى وهم يحملونها إلى خارج مكتبه.

*****

ظلت في مستشفى السجن فترة من الزمن، انتقلت بعد تماثلها للشفاء إلى زنزانة بسجن الاستئناف، فوجئت بزيارة المقدم أسعد.

بدأ معها حوارًا وديًا أثار هواجسها وقلقها، بل وآلامها، أكثر مما أثارته أي ضربات أو صفعات تلقتها منه من قبل.

علمت منه أن ماجدًا قد رحل بالفعل إلى بلده هو وأصدقاؤه بالسفارة، وأن الموضوع قد انتهى، وماجد أصبح هناك في بلاده في أمان، وأن كل المطلوب منها الآن مجرد عبارة بسيطة، بل هي كلمة واحدة، لإغلاق المحضر والإفراج عنها، كلمة واحدة تؤكد بها الزيارة الليلية ثم بعدها ينتهي كل شيء، مثلما انتهى من قبل بالنسبة لماجد وزملائه.

غزاها الهاجس القديم، لا يمكن لهذا الرجل أن يحمل خيرًا لها أو لماجد، تلقت حديثه بالصمت، عاد يؤكد أن كل شيء انتهى، وأنها مجرد كلمة تتفوه بها ويُفرج عنها بعدها مباشرة، ولكنها ظلت على صمتها، جحظت عيناه فجأة جحوظًا كان واضحا أنه قد بذل كل جهده لمنعه على مدى ثلث ساعة كان يتحدث فيها إليها في مكتب مدير السجن، استدعت صورة ماجد في خيالها، شعرت أن جلد وجهها وبطنها وكل جسدها يُشد استعدادًا لتلقي الضربات والركلات

والصفعات، لم يتأخر ما انتظرته كثيرًا، صرخ فيها: يا بت.. كلمة منك، كلمة واحدة آخد دبوره.

وهوى بيديه وساقيه فوق وجهها وجسدها. لم تصرخ، تلقت الضربات الموجعة في صمت زاده هياجًا على هياجه.

تكررت زيارات المقدم أسعد في الأيام التالية، وتكرر نفس مشهد الحديث الهادئ الذي يقابل بصمتها، ثم هياجه الفجائيّ، ثم دخول مدير السجن والضابط إلى المكتب، ثم حملها إلى المستشفى لتقضي فيه يومها، تعود بعدها إلى الزنزانة، ويمر يوم قبل أن يعاود المقدم أسعد زيارته.

قضت بالسجن أكثر من شهرين، أفرجوا عنها بعد ذلك، علمت من بواب العمارة أن ماجدًا وأصدقاءه قد تم ترحيلهم منذ أسبوعين فقط، فتأكدت ظنونها بكذب الضابط الذي كان قد أخبرها بترحيلهم منذ أكثر من شهر ونصف.

ذهبت إلى نجاة، التي كانت وفاء قد انتقلت للمعيشة عندها، بعد أن توقفت نجاة عن ممارسة مهنة الرقص.

كانت الفتاتان خلال الشهرين المنصرمين لا يفعلان شيئًا إلا البحث عنها في سجون مصر، علمت منها أن ماجدًا قد ترك لها مبلغ ألفي جنيه، كما ترك رسالة يتمنى لها فيها كل توفيق.

في الأيام التالية راحت نجاة تعد أوراقها للسفر هي وأمها إلى ماجد، حيث سيعقد قرانه عليها هناك وسط أهله.

لم ترغب فاطمة في مصارحتها بشكوكها حول مدى إمكانية تحقيق ما وعد به ماجد وسط عائلته، لقد اقترحت على ماجد أن

يتزوج نجاة هنا في مصر، أما أن يتم هذا هناك، فذلك في رأيها ضرب من ضروب الخيال.

قررت فاطمة أن تعود مع أختها إلى الإسكندرية، إن تواجدها في القاهرة لم يكن له مبرر إلا عملها عندما كان ماجد بها، أما وقد رحل، فلا معنى لوجودها بها.

عادت بمفردها إلى الإسكندرية تاركة أختها في رعاية نجاة.

توجهت إلى منزل روحية بالعلواية، فوجئت بأنها قد تركت شقتها لسكان جدد، سألت عن مسكنها الجديد، علمت من جارة لها أنها انتقلت إلى شقة فاخرة بالعصافرة بشارع كمال.

فوجئت بموقع السكن القريب من البحر، صاحت من هول فخامته عندما وقع بصرها على أثاث الشقة الفاخر، والذي لا يقل فخامة عن شقة ماجد نفسه.

هتفت فرِحة غير مصدقة: إيه ده كله؟ إنتي وقعتي على كنز ولا إيه؟

ضحكت روحية مبتهجة، أسعدها أن ترى انعكاس الشقة الفاخرة والأثاث الفخم في عيون فاطمة، سحبتها من يدها إلى الداخل تُطلعها على الغرف المختلفة، فوقع بصرها على التحف واللوحات، فتحول إعجابها إلى انبهار.

عادت تسأل: قوليلي يا أبلتي، ما تسيبنيش حيرانة كده، نهبتي نهيبة؟ ولّا ورثتي قريبك اللي في البرازيل؟ ولّا..

ربتت روحية على كتفها، رمقتها بنظرة باسمة وقاطعتها: يا بت إهدي امال، حتعرفي كل حاجة في أوانها.

سألت متفائلة: يا ريت يبقى ليّا من الحب جانب. طمأنتها روحية صائحة: جانب.. جوانب ياحبيبتى جوانب. كانت فاطمة لازالت حائرة، لذا سألت: إوعي تكوني اتجوزتي.

شهقت روحية نافية: جواز.. جواز إيه يا هبله انتي؟

– أمال إيه؟

– ما قلتلك اهدي بس.. نتغدى الأول، وبعدين حتفهمي كل حاجة.

قادتها إلى حجرة الطعام، كانت أفخم غرف الشقة، جلست تطالع الأطباق التي بدأت الخادمة تضعها أمامها، تحسست الألفي جنيه التي تحتفظ بها في صدرها، تذكرت ما دار بخلدها وهي قادمة إلى الإسكندرية، كانت تخشى أن تطلب منها روحية بضع مئات من الجنيهات على سبيل القرض إن هي علمت بامتلاكها للألفي جنيه، لذا قررت ألا تذكر هذا المبلغ على الإطلاق أثناء سردها لقصتها، أما الآن، بعد أن قابلتها وشاهدت ما لديها، فإنها موقنة أن أي ركن صغير في منزلها يساوي أضعاف الألفي جنيه التي هي كل ثروتها.

لم تستطع فاطمة أن تكبح جماح فضولها أثناء تناولها الطعام، فعادت تسأل:

– ما قلتيليش مين هوَّ؟

ردت روحية: ما تقوليش مين هوَّ، قولى مين هيّه.

- قصدك اللي وصلتك له؟

- لأ.. قصدي اللي وصلتني للي انا فيه.

- والله ما انا فاهمة حاجة.

- أفهمك يا عنيّه.. أنا بعمل سويت للستات، بس الستات الهاي لايف أوي.

مندهشة ومستنكرة هتفت فاطمة: سويت حلاوة يعني؟

- أيوه، حلاوة وتحفيف من مجاميعه.

- وإيه يعني؟ هوه التحفيف يجيب كل العز ده؟

- يا هبله، دول ستات هاي لايف أوي.

- ولو يا أبلتي، ورحمة أمي ما اصدق، بتخبي عليا ليه يا أختي؟

- يا بت افهمي، التجار الكبار في اسكندرية فلاحين وصعايدة، ما يحبوش إن ستاتهم يروحوا الكوافير ويشوفوهم الرجالة، فبيطلبوا إن ستات تروح لهم بيوتهم يعملوا اللي بيعمله الكوافير واللي ما بيعملهوش.

رن جرس التليفون، أحضرت لها خادمة صغيرة المسماع، سمعت روحية تتحدث:

- أهلًا ياست الكل.. آيوه يا جميل، من عنيّه، حا ابعتلك ميرفت، على الله تكون قامت بالواجب.

صمتت لحظة، كانت تسمع محدثتها على الطرف الآخر، ثم استطردت مسترسلة: أيوه، أنا عارفاها، دي بنت مزاج ع الآخر، أيوه

متجربة وحياة غلاوتك، والأفلام أنا منقياها بنفسي، حاجة حتعجبك بشكل ما حصلش، وحياتك لتقطعيني بوس لما تشوفيني.. حاضر ياحبيبتي... خيرك سابق يا حاجة.. والله مالك حق، دا إحنا في الأول وفي الآخر عشاق، بنحب الجمال ونحب نخدم الجمال.

أنهت حديثها مع محدثتها بسيل من القبلات بعثتها عبر الهاتف إلى أجزاء بعينها من جسدها.

أخذت الشغالة الصغيرة التليفون، وعادت روحية لاستئناف حديثها مع فاطمة: زي ما انتي شايفة، طول النهار ما اعملش حاجة غير الرد على التليفونات.

لم تكن الخادمة قد غادرتهما، بل انشغلت بطلب أحد الأرقام، ناولت المسماع لروحية وهي تقول: مدام ميرفت يا هانم، أمسكت روحية بمسماع الهاتف واسترسلت ضاحكة: أهلا يا روحي، اتجدعني مع الحاجة.. لأ بتشكر فيكى، أيوه كده، عايزه الشغل بمزاج، روحيلها الليلة هيّه مستنياكي ومعاكي الشرايط الجديدة.. الله، هو انا باحوش عنك حاجة.. افتكري يا بت الحاجة، دي كنز واتفتحلك، خدي منه على أد ما تقدري، سلام يا وحشة، مش حا اوصيكي.

ألقت بالمسماع جانبًا فتلقته الخادمة، وعادت لمواصلة الحديث مع فاطمة، تألقت البهجة في وجهها، استطردت والتباهي يقفز من عباراتها: مش ملاحقة ياحبيبتي ع الطلبات، دا عالم تاني خالص يا بطة، غير القرف والفقر اللي احنا كنا فيه، مش عارفة كان خافي عننا فين؟ قُطعوا الرجالة وقُطعت ملاليمهم، والآداب والدوشة اللي ع

الفاضي.. إحنا دلوقتي ياحبيبتي بنشتغل في النضيف، في السليم، ومحدش يقدر يقول لنا تلت التلاتة كام.

كانت معالم الصورة تنجلي جزءًا بعد جزء، عندما وصل صوت روحية إلى أذني فاطمة وهي تقول:

- عمركيش سمعتي عن شبكة نسوان مع نسوان؟ الله! إنتي بطلتي تاكلي ليه؟ كلي يا حبيبتي علشان تحلوّي.. دا انتي حتنورينا.

رفعت فاطمة عينيها إلى روحية كأنها تسألها: أنفع؟ قرأت روحية سؤالها في عينيها، ردت هاتفة: اسم الله عليكي، دا انتي أكتر واحدة تنفع، دا انتي أسطى يا بت، تربية إيدي، ولّا نسيتي؟!

وكأنما انتبهت روحية إلى شيء قد نسيته، فسألت: إلا قوليلي، عامله إيه مع الجدع اللي كنتي شغاله عنده، اللي سبتينا وسبتي اسكندرية كلها عشانه؟ لوحت فاطمة بيدها دلالة انتهاء العلاقة وقالت: راح.

واصلت روحية حديثها كأنما اكتفت بإجابتها: آه، ما همّا كده كل العرب، يومين ويفلسعوا، بس أنا مرّة قلتلك اللي تقدري تاخديه من عينهم خديه.

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء، قصت فاطمة على روحية كل ما حدث لها مع ماجد.

في المساء سألتها فاطمة: حنبدأ من إمتى؟ كانت تقصد عملها الجديد، ضحكت روحية ضحكة مبتذلة، وعقّبت بتعليق أحمرّ له وجه

فاطمة خجلًا، ردت فاطمة على تعليقها: لا وانتي الصادقة، أنا بس واقعة.

أجابتها روحية: خلاص، يلزمك شوية تدريب وترويش، ما هو ده شغل يختلف خالص عن شغلنا زمان.

للمرة الثانية في لحظتين متقاربتين شعرت فاطمة بحمرة الخجل تكسو وجهها.

في الأيام التالية، بدأت في تلقّي تدريباتها على العمل الجديد، قامت بذلك روحية نفسها، وفي بعض الأحيان، كانت تستعين في شرح تفاصيل عملها بالخادمة الصغيرة.

كما ألحقتها بنادٍ للتخسيس، وابتاعت كمية من الملابس الداخلية وملابس المنقبات لها، حيث كان الزي الأخير هو الزي الرسمي لكل العاملات مع روحية، التي نجحت في خلال عدة أسابيع في خلق فاطمة جديدة في كل شيء، تختلف تمامًا عن فاطمة التي جاءت من القاهرة، اختلفت في طريقة اللبس والمكياج، وطريقة الحديث وعبارات المجاملة، كل ذلك التغيير أفهمتها روحية أهمية حدوثه، وذلك لبدء تعاملها مع جنس مختلف، أفهمتها أن التعامل بهذه الطريقة هو وحده الذي يسعد زبائنها، ويجعلهن كريمات معها، بل كريمات بلا حدود، لأن ثراءهن هو أيضًا بلا حدود.

******

عقب إتمام التدريب ذهبت إلى أول زبونة، امرأة في الخمسينيات، يتقدمها كرش كبير، اتّبعت تعليمات روحية بالحرف في كل ما قالته وما فعلته، قضت معها أربع ساعات، شاهدتا فيها أكثر من فيلم، كانت المرأة سعيدة بها لاجتهادها الواضح، عبّرت فيما بعد عن ذلك تليفونيًا لروحية، وإن ذكرت ضمن مديحها لها أنها "لسه خام".

طلبت منها أن تأتيها يوما بعد يوم، وأن تكون تحت أمرها أيضًا في حالة الطوارئ، أخبرتها أنها ستنقدها ألف جنيه شهريًا بخلاف الهدايا.

أثناء مغادرتها لقصرها القائم في إحدى قرى الساحل الشمالي، تذكرت قروش الصنايعية والفرّانين التي كانت تتقاضاها في شقة روحية بالعلواية، واقترن تذكرها لهم بتذكر رائحة عرقهم التي لا تطاق.

عندما وصلت إلى شقة روحية بالعصافرة، كان هناك موعد آخر في انتظارها.

قبل أن تذهب إليه، لفتت روحية انتباهها إلى أن اتفاقها مع زبونة الساحل الشمالي يعد اتفاقًا خاسرًا، وحذرتها من الانبهار بمبلغ الألف جنيه، فهو يعد مبلغًا ضئيلًا نسبة إلى ما تدفعه الزبونات الأخريات، وختمت حديثها معها قائلة: بس حنرضى بيه علشان دي عايزه أبونيه، وبعدين بقى انتي وشطارتك معاها في حكاية الهدايا دي.

ثم، وهي توصلها إلى باب شقتها، قالت تحثها على العمل: المفروض يا حبيبتي ما نبطلش شغل ما دام ربنا فاتحها علينا.

ذهبت إلى عنوان العميلة التالية، كان بأحد شاليهات المعمورة، كن ثلاث نساء، وكانت ميرفت، أبرز زميلاتها، قد سبقتها إلى هناك، وكذلك الخادمة الصغيرة التي كانت روحية تستعين بها عند اللزوم.

قضوا ليلة كاملة بالشاليه، لم تكتفِ السيدات الثلاث بساعة أو ساعتين، استبقوهن حتى الصباح، وبعدها غادرن المكان محمَّلين بكمية من الهدايا أدارت رأس فاطمة، وجعلتها تصدق تعليق روحية على زبونة الساحل الشمالى بأنها بخيلة جدًا.

وعندما وصلت إلى شقة روحية، هرعت إلى أقرب فراش لتستطيع الحصول على أكبر عدد من ساعات النوم، قبل أن تدق إحدى العميلات جرس التليفون، وتطلبها في لقاء جديد عليها أن تُلبّيه على وجه السرعة.

في الأيام التالية، بحثت فاطمة لنفسها عن شقة منفصلة، وعندما وجدت شقة مناسبة بكليوباترا، سافرت إلى القاهرة لإحضار وفاء، أخبرتها نجاة أن خطابًا قد وصل من ماجد يعتذر فيه عن عدم استطاعته تنفيذ عرضه بالزواج في الوقت الحالي، وأنه هو نفسه يبحث عن فرصة عمل في دولة عربية أخرى، وأنه سيبعث لها بمجرد أن يجد هذه الفرصة.

وأنهى خطابه بقوله أن العمل والزواج في بلد آخر غير بلده هو الحل الأمثل، حيث لا يدع ذلك لعائلته فرصة لإثارة المشاكل وعرقلة زواجهما.

عبر ماجد في خطابه عن كل ما توقعته فاطمة وتنبأت به، أخبرتها نجاة أيضًا بأن ماجدًا بعث لها بألف جنيه، وتعهد بأن يبعث بمثلها لها كل شهرين على الأكثر، وأن هذا، كما ذكر في خطابه، أقل ما يمكن أن يقدمه لها مقابل شجاعتها وصمودها وإنكارها لمعرفة الرجل الذي رأته يزوره، وقد أنقذه هذا الإنكار من مصير مجهول لن يكون أقل من أن يقضي بضع سنوات خلف القضبان، سواء في مصر أو في بلده.

وأنهى رأيه في فاطمة بقوله أنه يراها أشرف من رجال كثيرين في عالمنا العربي، تملأ صورهم الصحف وشاشات التليفزيون.

لم تفهم فاطمة بدقة ماذا يقصد بعبارته الأخيرة، ولكنها، وبطريقة غامضة، كان يدور في ذهنها أن الشرف لابد وأن يكون شيئًا آخر غير مجرد المحافظة على غشاء البكارة.

ولما أعربت عما يدور في ذهنها لنجاة، وافقتها على ما تقول، ولكن عندما تذكرت فاطمة مهنتها الجديدة، اعتراها خجل فجائي شديد، وتوقفت عن الحديث مع صديقتها، إنها مضطرة للكذب، في الوقت الذي تتلقى فيه أجمل الأوصاف من ماجد ونجاة، لذا طلبت من نجاة أن تكتب له ترجوه أن يكف عن إرسال أي مبلغ مالي، لأنها ترفض أن تتقاضى ثمنًا لموقف رأته صحيحا، وأنه يجب أن يشكر الله، لأنه هو وحده الذي ألهمها الإنكار، الذي لم تكن في الحقيقة واثقة من جدواه له.

عادت إلى الأسكندرية، ومعها وفاء، التي طارت فرحًا بشقة كليوباترا، كان الصيف يوشك على الانتهاء، أخبرتها روحية أن هذه

الفترة تعد موسما مزدحما بالعمل بالنسبة لهن، وذلك بسبب أن المصطافات اللائي يزرن الإسكندرية يرون في البعد الجغرافي عن أسرهن فرصة سهلة لممارسة كل ما يردن.

قضت فاطمة الشهر الباقي على قدوم الخريف في شاليهات وفيلّات مراقيا، ومارينا، وعدد من قرى الساحل الشمالي، التحقت وفاء بإحدى مدارس الإسكندرية، نجحت في توفير نفقات الدروس الخصوصية المطلوبة للحصول على الثانوية العامة بمجموع كبير.

عقب انقضاء أشهر الخريف وقرب حلول الشتاء، زارتها نجاة بالإسكندرية، أخبرتها أن ماجدًا نجح في إيجاد عمل بدولة عربية أخرى، وأنه بعث لها بتذكرتي سفر لها ولأمها، للذهاب إلى تلك الدولة من أجل الزواج.

سعدت فاطمة بما سمعت، ها هو مشروعها في تزويج ماجد ينجح أخيرًا.

كانت زيارة نجاة لشقة كليوباترا هي الزيارة الأولى، سألتها في استرابة عن سر اليسر المالي الذي تعيش فيه، اجتاحت فاطمةَ موجةٌ من الخجل، أشاحت بوجهها بعيدا عنها، كان ذهنها يبحث عن رد مناسب، عندما كان عملها يتعلق بالرجال وحدهم كانت مستعدة للدفاع عن مهنتها رغم كل مساوئها، كانت مستعدة أن تثبت أنه لا مجال أمامها سوى ممارسة ما تمارسه، ولم تكن نجاة تستنكر عليها دفاعاتها، أما الآن وقد تغيرت المهنة، وأصبحت خاصة بالممارسة مع النساء، فهي لا تستطيع أن تخبر أحدا بها، حتى نجاة، أصدق

صديقاتها وأقربهن إليها، لذا أجابتها بما سبق أن أخبرت به وفاء، وهو أنها تعمل مديرة منزل بالقطعة لدى عائلات كبيرة.

أحست بأنها تبتعد عن نجاة، وأن ميرفت، زميلتها في المهنة، أصبحت أقرب إليها من أي إنسان آخر، فهي وحدها التي تستطيع أن تتحدث إليها، وتقص عليها كل مشاكلها ومتاعبها مع الزبائن دون حياء أو خجل.

أفاقت على نجاة الجالسة أمامها في شرفه شقتها المطلة على طريق الكورنيش، كانت نجاة لا زالت تنتظر إجابتها عن مصدر الفخامة والعز الذي تعيش فيه، قالت لها محذرة: إوعي يا بت تكوني بتشتغلي في الممنوع، إسمعي يا بطة، الحجر الداير لا بد عن لطه.

كانت لا زالت مشيحة بوجهها بعيدًا عنها، خشيت أن تلمح دمعة كادت تسقط من عينها، لم تستطع حتى أن تكذب عليها، قالت فجأة تغير من موضوع الحديث:

- إنتي مسافره إمتى؟ لازم نوصلك لغاية المطار.

ردت نجاة معاتبة: بتغيّري الموضوع يا بطة؟ تنهدت نجاة بعمق واستطردت: على كل حال زي ما تحبي، أنا حبعتلك عنواني، وفي أي وقت عايزاني حتلاقيني جنبك.

لم تستطع فاطمة أن تكبت مشاعرها في هذه اللحظة، استدارت تواجهها بوجه مبلل بالدموع، تلقتها نجاة بين ذراعيها، وسالت دموعهما معًا بغزارة.

لا تعرف فاطمة لماذا تذكرت المقدم أسعد في هذه اللحظة وهو يقول لها: يا بت دي قضية كبيرة أوي، كلمة منك تبنيها وكلمة منك تهدها.

تذكرت كيف كان ينهي سبه لها بركلة عنيفة في بطنها كانت تتوقعها منه في كل مرة يستدعيها لمقابلته بمكتب مدير السجن، عندما كان يضربها كانت، في أحايين كثيرة، تصر على عدم البكاء، كانت تشعر أن هذا بالذات يزيده غيظا، فتعمدت أن تتماسك أمامه كنوع من الانتقام منه ومن ركلاته.

تحولت القضية في ذهنها وقتها من الدفاع عن ماجد، إلى الصمود أمام المقدم أسعد ذي العينين الجاحظتين، الذي يصر على معاقبة أناس تحدثوا في شؤونهم وشأن بلادهم بطريقة توافقهم ولا تضر المقدم أسعد، بينما يصر هذا المقدم ومن معه على تركها هي وأمثالها للعدم والضياع.

وفي ظلمة الزنزانة كانت تصرخ: "لو كنتم حقًا رجالًا، لو كنتم حكامًا عادلين، لما أصبحت البلاد تحتوي على مئات وآلاف مثلي يملئون شوارع القاهرة والإسكندرية، لو كنت رجلا يا أسعد طه، لما استخدمت رجولتك وفحولتك في تعذيب وإيذاء امرأة مسكينة مثلي، إنني سعيدة بتلك الفرصة التي حصلت عليها بالصدفة، فرصة أن أوقف ترقيتك، وأضيع عليك، وعلى آخرين يعملون معك، فرصة نسج قضية كبيرة، تحلمون فيها بالتهام لحم الأبرياء". قبل أن تغادر

بجاة الإسكندرية إلى القاهرة طمأنتها فاطمة قائلة: ما تخافيش يا بت، أختك جدعة وبميت راجل.

نطقت العبارة الأخيرة بطريقة عفوية، وعندما استرجعتها في ذهنها فيما بعد، وجدت نفسها تضحك بسخرية، فهي حقًا أفضل من مائة رجل يتزوجون مائة امرأة من زبائنها هي وميرفت، ومن كل العميلات اللاتي تتعامل معهن روحية.

شهدت الأيام التالية انضمام زبونة جديدة إلى شبكة النساء اللاتي تتعامل معهن فاطمة، كانت تدعى مدام خيرية، تختلف كثيرًا عن بقية النساء اللاتي تعاملت معهن فاطمة، واللائي كن لا يزدن عن أن يكنّ براميل أسطوانية، كانت فاطمة تقول لنفسها كثيرًا، إن لأزواجكن بعض أو كل الحق في هجركن، أما خيرية، فكانت شيئا آخر، جميلة، جميلة بأكثر مما ينبغي، طويلة، بيضاء، أنيقة، سيدة تبتهج العين لمرآها، سواء كانت عين رجل أو سيدة، وعندما تجردت من ثيابها أمامها، كانت من الداخل أجمل بكثير مما ذهب إليه خيال فاطمة، التي وقفت مبهورة تطالع تقاسيم الجسد، التي لا تقل جمالًا عن تقاطيع الوجه.

سألتها، أثناء تناولهما لطعام الغداء في أحد مطاعم الكورنيش، عن زوجها، وكيف انصرف عنها وهي تحمل كل هذا القدر الأسطوري من الجمال.

في البداية قالت لها أنه موظف بالداخلية، وأنه منصرف عنها بسبب انشغاله الشديد في عمله، وأنه لم يدفعها إلى طلبها إلا معاناتها الشديدة من الوحدة.

عندما توثقت العلاقة بينها وبين فاطمة، أخبرتها خيرية أنها زوجة منذ حوالي عشر سنوات، وأنها خلال كل هذه السنوات العشر لم يُشعرها زوجها بالإشباع ولو لليلة واحدة، حتى ليلة الزفاف نفسها، وأن ذلك بسبب ما يعاني منه من عجز جنسي.

سألت فاطمة: وليه مابيتعالجش؟

ردت خيرية: بيرفض.. بيرفض يروح لأي دكتور، تقتليه وما يروحش، بيعتبر ده إهانة لكرامته واعتراف بعجزه.

سألتها: أمال كان بيعمل إيه؟

– كان بيحاول معايا، ما بطلش محاولة، وفي كل مرة كان بيفشل كان بيتألم، وكنت أنا بتألم أكتر، ومش عارفة أعمل إيه، كنت بتألم عشانه وعشان نفسي.

ضاعفت مشاكل خيرية من هموم فاطمة، تمنت أن تنجح خيرية في عقد صلة جنسية مع زوجها، حلمت باللحظة التي تخبرها فيها خيرية بأنها استغنت عنها، وأن زوجها أصلح حاله بطريقة ما، سواء عن طريق قوة إرادته، أو علاج الأطباء، أو تحت تأثير جمال خيرية الفتان.

وعندما صارحت خيرية بأمنيتها، أخبرتها تلك الأخيرة بأن هذا الأمر قد أضحى مستبعدًا، خاصة في العام الأخير، بعد أن ساءت

معاملته لها بسبب إحساسه بالضعف والنقص أمامها، في هذا العام بالذات، أصبح يتهمها بالبرود، وبأنها سبب ما يعانيه، وأضحى يمارس رجولته عليها بالضرب والإهانة وافتعال مشاجرات يخرج فيها منتصرًا، الأمر الذي جعلها تكرهه وتطلب الطلاق، ولكنه رفض، ولعل هذا ما دفعها إلى البحث عن المتعة بطريقة كانت تراها من قبل تمردًا منها وإهانة لزوجها، ولكن معاناتها من قسوته جعلتها تستبيح لنفسها أي نوع من المتعة، مهما كان شاذًا وغير طبيعي.

كان قد مر على عمل فاطمة مع روحية أكثر من عام، عندما جاءتها روحية مرتاعة مذعورة تهتف قائلة: شفتي ميرفت ناوية على إيه؟

هزت ملامح روحية المرتعشة أعماق فاطمة، سألت هاتفة بدورها: ناوية على إيه؟

ردت: ناوية تتجوز.

تذكرت فاطمة حديث ميرفت معها، وكيف أنها نجحت في الإيقاع بزوج إحدى العميلات، وذلك بأن تعمدت أن تُسقط النقاب، اللائي كن يرتدينه جميعًا، عن وجهها أثناء انصرافها من منزل العميلة، في اللحظة التي كان زوجها واقفا بالقرب منها بشكل يسمح له برؤية وجهها بوضوح.

كانت ميرفت صغيرة الحجم، في مثل طول فاطمة تقريبًا، ولكنها تتميز عنها وعن نساء كثيرات بوجه أسمر جميل، يتمتع بتقاطيع أنثوية دقيقة من الصعب أن تخطأها العين، أو ألّا تعلق بالذاكرة لو وقعت

عليها عين أي رجل، فبشرتها تتمتع بسمرة نقية رائعة، تهواها النفس من اللحظة الأولى.

ومن وجهة أخرى، جسدها، رغم قصرها، فقدّها ممشوق، يميز فيه المرء بسهولة بين الصدر البارز، والبطن المشدود، والأرداف المدملجة، لكل هذا، وقع زوج العميلة في شباكها من اللحظة الأولى، سعى خلفها، تركته يلاحقها فترة قصيرة، ثم استجابت لرجاءاته واستعطافاته، تواعدا والتقيا، توثقت العلاقة بينهما، أصرت ألّا يلمسها إلا في الحلال، وافق، طلب أن يكون الزواج سريًا، ترددت، سألت فاطمة، لم تعرف بماذا تجيب، ذهبت لتسأل روحية غير مدركة ما في سؤالها من خطورة.

إن ميرفت أفضل من يعمل مع روحية، ومعظم العميلات يطلبنها بالاسم، ويفضلنها على غيرها من الفتيات والسيدات اللائي يعملن مع روحية.

كانت روحية لا زالت تحدق في وجه فاطمة، تقرأ وقع الخبر عليها، ولما وجدتها صامتة لا تجيب، غيرت من لهجتها بشكل لفت نظر فاطمة وأثار ريبتها، قالت: ليّا طلب عندك يا بطة.

- خير.
- قبل ما اقولك عليه، إوعديني انك ما تكسفينيش.
- مش حكسفك، قولي بقى.
- قبل ما اقولك، إنتي شايفه الخير اللي بقيتي فيه على إيديّا.

ردت فاطمة، وقد تملكها شك شغلها عن كل ما حولها:

- ما ينكر النعمة إلا الجاحد.

- كمان تقدرى تحلمي بالخير اللي حتبقي فيه بعد سنه أو أكتر، لما تعمليلك قرش، وتاخدي شقة تمليك، وكمان ممكن تجيبي عربية.

ردت فاطمة، محاولة أن تسبر أغوار محدثتها: مش في دماغى الحاجات دي، أنا كل أملي أعلم أختي بالجامعة واسترها.

تهلل وجه روحية فرحة كأنما وصلت إلى غايتها، هتفت: هو ده المطلوب.

- مش فاهمة، مطلوب إيه؟!!

- تعليم أختك وتستيرها.

باستعطاف قالت فاطمة:

- ما تنوريني يا مدام ربنا يسترك.

- جايالك يا حبيبتي طبعًا، إنتي شايفه الشغل كل يوم بيزيد عن اللي قبله.

بنفاد صبر قالت فاطمة: وبعدين؟

- مش مطلوب من أختك غير مشوار في الأسبوع، مش حيعطلها عن مذاكرتها.

علت ملامح الانزعاج والاحتجاج وجه فاطمة، هتفت مستنكرة: مشوار إيه؟

- مشوار ياحبيبتي زي اللي بتعمليهم.

صرخت هاتفة: لأ.. لأ.

حاولت تهدئتها: أصبري كده، ما تبقيش حِمأيه وهبله، في ظرف سنة واحدة حيبقى معاكي ومعاها اللي يخليكي تجوزيها مليونير لو عايزه، ماتنسيش كمان إن معاها علمها وجمالها، وفوق ده بنت بنوت، دا لو طلبت ابن وزير، والله أجيبهولها يترمي تحت رجليها.

علا صراخ فاطمة بالرفض، كان من الواضح أنها لا تستطيع السيطرة على أعصابها: لأ.. لأ، لا يمكن، وأنا بعمل كل اللي بعمله عشان إيه غير إني أحميها من السكة دي؟

ردت روحية مستنكرة: مالها السكة دي ياحبيبتي؟ مالها؟ بنزوق ونبسط نسوان أجدع رجاله في البلد، حكام البلد بذات نفسهم.

عادت فاطمة تصرخ: لأ

بينما استأنفت روحية: ما تقوليش لأ وآه دلوقتي، فكري على أقل من مهلك، وبشوق شوقك، وجاوبيني يا حبيبتي، آديكي شايفه ميرفت بتزقزق ع المشي، ولو حصل، حيطير معاها كام زبونة متريشه، وحييجي يوم يا حبيبتي نقعد أنا وانتي جنب الحيطة، ونقول لله يا محسنين.

عندما استبد الغضب بفاطمة تركتها روحية، أرادت أن تعرض ما تريد دون أن تزيد الموقف سوءًا.

انصرفت فاطمة، ولا يشغل بالها إلا علاقتها بأختها وفاء، تلك الأخت التي لا تعرف عنها أكثر من أنها هاوس كيبر، أو على الأدق، خادمة لدى بعض الأثرياء.

وقد ساعد فقدان فاطمة لعناصر الجمال على تصديق وفاء لهذه الكذبة، وارتاحت فاطمة لاعتقاد أختها، واطمأنت له، إلى أن جاء اليوم الذي يراد فيه أن تطلب منها أن تشاركها عملها الذي تخجل هي نفسها من مصارحة نفسها به، شملها اضطراب شديد، ربما لأول مرة منذ أن غادرت السجن، ولم يصرفها عما تفكر به، ولو لبعض الوقت، إلا لقاؤها بميرفت في المساء، كانت حالتها هي الأخرى سيئة، أخبرتها أنها قد صارحت الحاجة، زوجة الحاج الذي يريد أن يتزوجها، بأمر زوجها، ورغبته في الزواج منها، أخبرتها أنها إذا وافقت سوف يكوّنون معًا أسرة ينعم أفرادها الثلاثة بالسعادة طوال الليل والنهار.

ثارت الحاجة (الزبونة) ثورة لم تتوقعها ميرفت، التي ظنت أن قربها من الحاجة سوف يسعدها أكثر، بصقت في وجهها، صاحت فيها بأنها لا تريد أن تراها بعد اليوم تخطو عتبة منزلها، هددتها بأنها إن حاولت أن تقابل زوجها، أو استجابت لمحاولته مقابلتها، فإنها تعرف كيف تسجنها.

كانت ميرفت تبكي، سألتها كيف تخبر روحية بالأمر، فإن الأفضل أن تعرف الموضوع منها قبل أن تعرفه من الحاجة نفسها، كالعادة لم تعرف فاطمة بماذا تجيب، ولكنها شعرت بتعاسة شديدة تتسرب إلى داخلها، أشفقت على ميرفت، التي لا يقل حبها لها عن حبها لوفاء.

بعد يومين، أخبرتها ميرفت أن الحاج يلاحقها ويريد مقابلتها، وهي تتهرب منه للدرجة التي تفكر معها في تغيير مسكنها.

في اليوم التالي، فوجئت بها، بعد منتصف الليل، تطرق باب شقتها بكليوباترا، أخبرتها أن الحاج قد حدّثها تليفونيًا، وأعلمها أنها قد خربت بيته بما قالته للحاجة، وأنه لن يتركها تهنأ بحياتها بعد ذلك يومًا واحدًا.

كانت ميرفت قد هربت من منزلها من سلم الخدم، حتى دون أن تغير ثيابها.

وجدت فاطمة جسدها يرتعش بشدة من الخوف والهلع، والدموع الغزيرة تغمر وجهها، رغم الخوف الذي كانت تشعر به فاطمة، إلا أنها ضمتها إلى صدرها في محاولة لتهدئتها.

كانت ميرفت تقول متحسرة: اتصورت في وقت إني ممكن أفوز بكل حاجة، الراجل ومراته، فما فزتش غير بالخيبة القوية.

قالت فاطمة مهدئة: إهدي شويه.. إنتي حتعيشي معايا هنا، ولو عايزة تسيبي روحية والشغل كله سيبيه، وأنا كمان بفكر أسيبه.

كست الدهشة وجه ميرفت المبلل بالدموع، سألت: إنتي بتفكري تشتغلي لوحدك؟

ردت فاطمة نافية: شغل إيه يا شيخة، بفكر ما اشتغلش خالص، أنا معايا قرشين ممكن احطهم في البنك، على أجرة شغله بسيطة اشتغلها، ممكن أعيش بده وده عيشة معقولة، وممكن انتي كمان تعيشي معايا.

ردت ميرفت بحسرة لم تستطع أن تخفي جمال تقاطيع وجهها في هذه اللحظة، بل ربما زادتها عذوبة: أنا خيبتي خيبتين، سبت الشقة وكل حاجتي فيها، زمانهم دلوقتي هجموا عليها.

ردت فاطمة مخففة: يا ستي ما تخافيش، أنا الصبحية أروح أجيبلك أي حاجة انتي خايفة عليها، وبعدين نشوف لها بيعة، سيبيني انفذلِك الموضوع ده، وخليكي انتي بعيد، وبعدها ممكن تسيبي اسكندرية كلها.

كانت فاطمة تطمئنها، وهي أكثر منها خوفًا وهلعًا، فرجال الحاج، الذي كان شخصية شهيرة بالإسكندرية، قادرون على فعل أي شيء، حتى ضد رجال البوليس أنفسهم إذا تضاربت المصالح بينهم.

في السابعة من صباح اليوم التالي، تسللت فاطمة إلى العمارة المزدحمة بمكاتب شركات ومحامين وعيادات أطباء، صعدت إلى الشقة متعمدة أن تقف بالمصعد في الدور التالي للدور الذي تقع فيه الشقة.

نزلت على السلالم، وفتحت الشقة بالمفتاح الذي أعطته لها ميرفت، نجحت في حمل كل ما كان بشقة ميرفت من نقود ومشغولات ذهبية وبعض الهدايا الثمينة.

وعندما عادت إلى شقتها، كانت وفاء قد أخلت للضيفة الجديدة غرفة خاصة بها، كانت تُستخدم من قبل للاستقبال.

في نفس اليوم، تلقت فاطمة رسالة من ماجد، يخبرها فيها أنه قد تزوج من نجاة، وأنهما على استعداد لاستقبالها هي وأختها ليعيشا

معهما، وأنه من الممكن أن يوفر لهما كل احتياجاتهما، بما في ذلك فرصة عمل لفاطمة وتعليم لوفاء.

أدركت فاطمة بعد الانتهاء من سماعها الرسالة أن نجاة قد نقلت مخاوفها واسترابتها في حياتها إلى ماجد، لا شك أنها قد أخبرته بأنها تقوم بعمل تجهله، يدر عليها دخلًا كبيرًا.

طلبت فاطمة من وفاء أن تكتب رسالة لماجد، تخبره فيها أنها تفكر جديًا في أمر السفر إليه، على أن يكون هذا بعد نهاية العام الدراسي.

******

في الأسبوع التالي، وبينما كانت فاطمة تتهيأ لمغادرة شقة خيرية، بعد ساعات طويلة قضتها معها بين المتعة والدموع التي كانت تميز جلساتها مع خيرية، وبينما فاطمة تضع النقاب على وجهها، كالعادة عند الانصراف من منازل العميلات بعد انتهاء مهمتها، فوجئت بزوج خيرية يدخل إلى الشقة، وعندما وقع بصرها عليه تسمرت في مكانها، هو.. في هذا المكان، الضابط أسعد طه حراز، مقدم مباحث أمن الدولة ذو العينين الجاحظتين.

كانت فاطمة قد طالعت اللافتة التي تحمل اسمه على باب الشقة أكثر من مرة، ولكن لجهلها بالقراءة، لم تستطع تبين الاسم والتعرف عليه.

لاحظت أن عينيه قد ازداد جحوظهما، وملامحه أصبحت أكثر غلظة، رمقها بنظرة عابرة، ثم أشاح بوجهه بعيدًا وهو يلقي التحية.

سارعت بالانصراف، حتى كادت تتعثر على درجات السلم، غير منتظرة أن يأتيها المصعد، أسعد طه حراز، الطويل العريض، الذي يتباهى برجولته على كل من حوله، سواء كانوا متهمين، أو حتى من العاملين معه، يتباهى برجولته على الجدران، والحوائط، وأثاث المكاتب، والأرض التي يخطو فوقها.

أنت يا أسعد تشكو ضعفًا جنسيًا وفقدان رجولة، تخفي ضعفك بالصراخ، تخفي فقدانك للرجولة بجحوظ عينيك وممارسة العنف مع النساء.

أنت يا أسعد تشكو زوجتُك من إجدابك، من عجزك المتواصل، من جبنك عن مواجهة الحقيقة، ورفضك الذهاب إلى الأطباء.

إن ما كنت تفعله معي بسجن الاستئناف، ليس أكثر من ممارسة الوجه الآخر من عجزك وضعفك، تمارس العجز بركلي في بطني ولطمي على وجهي، إن زوجتك خيرية، التي تمتلك جمالا لا نظير له، وأنوثة تكفي لإشباع عشرات الرجال، لم تجد سواي لإشباع رغبتها.

شعرت فاطمة برغبة شديدة تدفعها للعودة إلى شقة خيرية، ومواجهة زوجها بحقيقة شخصيتها، بعد أن تسقط النقاب عن وجهها ووجهه في آن واحد، سيكون هذا أفضل انتقام لنفسها ولماجد ولزملائه، سوف تنتقم في شخص المقدم أسعد من كل العاجزين، الذين يحاولون تغطية هذا العجز بالقسوة وبمزيد من القسوة.

في الأيام التالية، ازداد إلحاح روحية على فاطمة، خاصة بعد اختفاء ميرفت الذي لم تعرف له سببا، سألتها عنها كثيرًا، ولكنها أنكرت أي معرفه لها بمكان أو سبب اختفائها. سعت فاطمة إلى النجاة بكل من وفاء وميرفت من براثن روحية في آن واحد.

صارحت ميرفت بمخاوفها، قضيا الليلة يصيغان خطابا لماجد، تطلب فيه منه أن يهيأ فرصة الحياة والعمل لشخص ثالث هي ميرفت، منذ اللحظة التي أرسلا فيها الخطاب، أخبرت فاطمة ميرفت أن تعتبر أن موافقة ماجد قد وصلت بالفعل، فهو لا يؤخر لها طلبًا، واتفقوا على أن يبدؤوا على الفور في استخراج جوازات السفر.

سافرت ميرفت إلى القاهرة، واستأجرت شقة بها، وقررت أن تقضي الأسابيع الباقية على السفر بالقاهرة، هروبًا من تهديدات الحاج تاجر الأخشاب الشهير.

وصلت موافقة ماجد كما توقعت فاطمة، وأدت وفاء امتحانات الثانوية العامة، اتصلت نجاة من القاهرة لتخبرهما بموعد الطائرة التي ستقلع بهم بعد يومين في منتصف الليل، كانت سعيدة للغاية، ها هو حلم الخلاص يقترب من التحقق، ستهرب من الحاج ومن روحية، ستنجو وفاء من براثن مستقبل مظلم، آن الأوان لفاطمة أن تستريح أخيرًا وسط من تحبهم ويحبونها، ماجد، ونجاة، ووفاء، وميرفت.

اتصلت فاطمة بميرفت في اليوم الباقي على السفر، لم يجبها غير رنين متواصل للتليفون، لا توجد وسيلة أخرى للاتصال، قضت يومها في محاولة الاتصال، ولما فشلت، قررت السفر ليلًا إلى القاهرة.

وصلت إلى عمارتها قرب الفجر، عندما لم تجدها بشقتها امتكلها قلق شديد، أيقظت البواب وزوجته من نومهما، أخبرها أن عربة مسرعة صدمتها أمام العمارة، أثناء عبورها الطريق صباح أمس، وأنها نُقلت على الفور إلى المستشفى، لتموت قبل أن يتمكن الأطباء من إسعافها.

قضت الأيام التالية في حالة ذهول، بصعوبة استطاعت تسلم جثتها والقيام بدفنها في إحدى المقابر، فهي، على طول صداقتها لميرفت، لا تعرف لها قريبًا.

عندما عادت إلى الإسكندرية، وكانت قد قررت إخفاء كل شيء عن روحية، أخبرتها تلك الأخيرة أن الحاجة التي كانت زبونة لميرفت قد اتصلت بها، وروت لها كل شيء بخصوص الحماقة التي أقدمت عليها ميرفت، وأخبرتها أنها أنذرت زوجها الحاج بأنها لن تقبل الصلح معه، إلا بعد أن يأتيها بخبر مصرع هذه الفتاة، وأنهت حديثها بأنها قد أنهت خصامها مع زوجها وتصالحت معه بالفعل، بعد أن حقق لها غرضها منذ يومين.

سقطت فاطمة مصابة بإعياء شديد، لازمت الفراش لعدة أسابيع، كانت روحية تستحثها أثناءها على إنهاء إجازتها المرضية من أجل العودة إلى العمل.

ما إن استطاعت مغادرة الفراش، حتى نهضت مصطحبة أختها معها، غادرا المنزل، كانت أوراق سفرهما كاملة، توجها إلى المطار، باتا

على مقاعده، حتى حان موعد قدوم الطائرة، التي نقلتهما إلى البلد الذي يعيش فيه ماجد ونجاة.

انقضت أربعة أعوام على وصولهما، أنهت فيها أختها دراستها، وتقدم لخطبتها شاب مصري يعمل في المستشفى التي التحقت بها للعمل بعد تخرجها، واستطاع ماجد أن يجد لفاطمة فرصة عمل مناسبة، بعد أن تعلمت القراءة والكتابة على يد أختها.

فوجئت، ذات يوم من أيام السوق، بخيرية تقف أمامها في سوق المدينة، ألقت كل منهما بنفسها في حضن الأخرى، كان وجه خيرية لا زال يحمل نضَارته القديمة، زاد عليها أن علت ملامحها نظرة ثقة واطمئنان لمحتها فاطمة فيه لأول مرة.

سحبتها خيرية من يدها، قادتها إلى أقرب كافتيريا، أجلستها أمامها، وراحت تقص عليها كيف نجحت أخيرًا في التخلص من زوجها بصعوبة بالغة، اضطرت فيها إلى مواجهته في قاعات المحاكم بعجزه وضعفه الذي دفعها إلى الشذوذ، وذلك بعد أن أصر على عدم تطليقها، وبعد انقضاء شهور العدة، تزوجت من قريب لها كان يتمنى الارتباط بها منذ زمن، ولم يمنعه إلا زواجها بأسعد، واصطحبها زوجها الجديد إلى هذه المدينة، حيث يعمل مهندسًا في إحدى شركات المقاولات.

ابتهجت فاطمة بما سمعت، وهنّأت صديقتها، ثم راحت تقص قصتها هي الأخرى.

ولما حان موعد فراقهما، تبادلتا أرقام الهواتف، وتواعدتا باللقاء في أقرب وقت.

في المساء، انفردت فاطمة بنفسها لتكتب رسالة إلى المقدم، الذي خمنت أنه قد أصبح عقيدًا، أو حتى عميدًا بعد انقضاء هذه السنوات الأربع، ذكرت له فيها أفعاله معها في سجن الاستئناف أثناء اعتقالها، وأكدت على أنه في الوقت الذي كان يستعرض فيه رجولته الزائفة باللطم والصفع والركل، قامت هي بعد ذلك بدور الزوج الذكر بدلًا منه مع زوجته الجميلة خيرية، وذلك على مدى عام كامل. وأرسلت الرسالة باسمه على مبنى مباحث أمن الدولة بالإسكندرية، والتي علمت من خيرية أنه لا زال يعمل بها.

تمت

ميمون يقدم الليمون

لا أحد يعرف التاريخ الحقيقى لمدحت الزينى لكثرة ما رددت عنه أقاصيص مختلفة تتنوع طبقا للمناسبة التي تقص فيها، للشخص الذى يلقيها، ولموقفه منى، وطبيعة شخصيته إلى آخر ذلك من الأمور وأكاد أدعى إنه لا يوجد شخص يعرف تاريخى الشخصى بدقة فكل شخص يعيد صياغة تاريخه طبقًا لما يحب ويهوى وطبقًا للصورة التى تمنى أن يراه الناس بها.

ولكنى أنا مدحت عبد الحميد الزينى أحاول هنا وبصدق شديد أن اكتب اعترافات حقيقية وليس مجرد مذكرات أتحدث فيها عن بطولاتى وأمجادى، أكتب هذه الاعترافات رغم يقينى أن لحظة الاعتراف لم تحن بعد، تلك اللحظة التى يسقط فيها المعترف من قمة عالية ويجد نفسه منحدرًا إلى قاع سحيق فيلجأ إلى الاعتراف لنفسه ولله وربما للآخرين لعل هذا يحد من انحداره إلى القاع الذى هوى إليه بعد وصوله إلى قمة عالية فى مجال من المجالات... هذا بالتأكيد لم يحدث معى فأنا لازلت على القمة بل إننى لازلت أواصل الصعود ولازال العمر أمامى مديدًا والمستقبل مزدهرًا، كما إنى لا أعترف من قبيل المفاخرة، إنما ربما ما دفعنى إلى هذا الاعتراف رغبه خفية تجول فى داخلى رغبة أن أعيش لحظة صدق حقيقية أكاشف فيها نفسى فأنا لم أصل إلى ما وصلت إليه إلا عبر حزمة من الأكاذيب نلت بها مكانه مميزة فى معظم الأماكن التى طرقتها ومعظم المجالات التى خضتها.

سأحاول جاهدًا أن أتذكر ما حدث بالضبط وماذا كان يجرى فى ذهنى وماذا كانت نيتى ثم كيف أصبحت النتائج فى صالحى محاولاً أن

أبتعد تمامًا عن الصيغ المعهودة للمذكرات أو ما يسمونه اعترافات وذلك بإعادة صياغة التاريخ بالطريقة التى تلائم صاحب المذكرات وترضى غروره وترفع من شأنه.

بدأت حياتى العملية فى اليوم الأول الذى قبضت فيه مرتبى من عملى بالشركة العربية للغزل والنسيج، فى نفس اليوم قررت أن أهجر أسرتى، تلك الأسرة التى طالما سببت لى مشاكل وعذابات كثيرة على مدى سنوات عمرى الأربعة والعشرين.

كان والدى يملك محلا صغيرًا أو على الأدق مطعم صغير يبيع فيه الفول والفلافل فى حارة ضيقة من حارات حى كرموز، لم يكن مشهده وهو واقف أمام طاسة الزيت المستديره يلقى فيها بقطع الفول المطحون مع الخضرة والبصل يمكن أن يشرّف أى إنسان، هذا هو أبى، صلعته المستديرة والفوطه البالية التى يضعها على صدره ذات الجيوب الواسعة التى يضع فيها قروش الفول والفلافل التى يتقاضاها من زبائنه ثمنًا لما يقدمه لهم. هؤلاء الزبائن الفقراء كان أول ما فعلوا هو أن أسموا الرجل "فلافلاية" بالتحديد "عبده فلافلاية" وأسمونى بالتالى ابن عبده فلافلاية لم أكن أستطيع أن أمنعهم من هذه التسمية بل إنهم استنكرو اعتراضى مجرد اعتراض.

كرهت الحارة والحى، أذكر إنى لم أدعو أحدًا من زملائى بكلية التجارة إلى منزلنا حتى لا يرى حارتنا والدكان الصغير وأبى الشاخص دائمًا أمام طاسة الزيت، ولم تستطع الكلمات التى كانت مشاعة فى ذلك الوقت، وقت نهاية ستينيات القرن العشرين أن تحسن من الصورة

تلك الكلمات التى كانت تدعى أن العمل شرف والعمل واجب، أى شرف وأى واجب وأنا أسمع النكات الكثيرة عن أبى الذى يشبهون رأسه الصلعاء بقرص الطعمية قبل استوائه فى الزيت.

أما أختى التى تصغرنى بخمسه أعوام فقد فشلت فى الحصول على دبلوم التجارة واكتفت بالإلتحاق بأحد "المشاغل" التى تعلم الخياطه، أما أخى عطية فقد تسرب من التعليم الإبتدائى إلى دكان أبى بعد ثلاثة أعوام من التحاقه بالمدرسة الإبتدائية ورحب أبى بهذا التسرب كى يستطيع عطية أن يساعده فى القيام بأعباء البيع وأعباء صناعة الفول والفلافل.

لم أندم على قرارى بهجر منزل شارع العمرى بل إننى عشت سنوات عمرى أنتظر تلك اللحظة خاصة بعد وفاة أمى وأنا فى بداية دراستى الجامعية، كانت أكثرهم اقترابًا منى، فى الوقت الذى كان أبى يلومنى ويوبخنى لأكثر من سبب لعل أبرز هذه الأسباب هو امتناعى عن مساعدته بمطعمه الصغير فى فترات ما بعد الظهر متعللاً بالمذاكرة وزاد الطين بلّة عندما رسبت بالثانوية العامة واضطررت للإعادة للحصول عليها فى العام التالى، الأمر الذى أهلنى للالتحاق بكلية التجارة وليس كلية الهندسة كما كان يريد أبي، مثل نجل ابن عمه الذى نسمع عنه والذى نجح فى الثانوية العامه من المرة الأولى والتحق بكلية الهندسة، منذ ذلك الحين كان أبى كثيرًا ما يعايرنى ويلومنى ويوبخنى أمام زبائن المحل وأمام جيراننا بالمنزل، وعلى العكس كانت أمى تعيش محاولة دائمة لمراضاتى وإمدادى بالمفضل من ألوان الطعام الذي تحرم نفسها منه لتزودنى به... وعندما ماتت بعد مرض قصير

أظلمت الدنيا بالكامل أمام عينيَّ، حاولت هناء أن تقوم معى بنفس الدور ولكنها لم تمتلك يومًا حكمتها وثباتها فضلاً عن افتقادها لحبات الفاكهة ولقطع اللحم التى كانت أمى تحتفظ بها لى بعيدًا عن الآخرين لأتناولها وحدى عند عودتى فى المساء. عند مغادرتى المنزل

بكت هناء بشدة وأوصلتنى إلى باب شقتنا الصغيرة بينما لم يعبأ عطية وأبى بالأمر حيث قال الأخير إن هذا بالضبط ما كان يتوقعه منى والتزم عطية الصمت ولجأت هناء إلى دموعها تحاول أن تخفف بها عما يجول فى نفسها.

لم أكلف نفسى حتى أن أربت على رأسها، استدرت منصرفًا لا ألوى على شيء، إننى لا أهرب من هذه الأسرة فقط، إننى أهرب من الحارة والشارع وعبده فلافلاية وابن عبده فلافلاية، اخترت مسكنًا فى الجانب الأخر من الإسكندرية وفى الوقت نفسه يقع بالقرب من الشركة العربية التى أعمل بها.

هربت براتبى الذى كان من المنتظر، على الأقل كما تقدر هناء، أن أساهم بجزء منه فى مصروف البيت، إن وجودى معهم كان سيقيدنى فى مكانى إن لم يشدنى إلى الوراء، سيخمد بركان طموحاتى الذى أحمله فى داخلى.

عينت بإدارة العلاقاءت العامة بالشركة، لم يكن بالإدارة سوى ثلاثة غيرى بما فيهم مدير الإدارة الذى اقتراب من سن المعاش ولم يكن يحمل إلا شهادة الإبتدائية القديمة أما الشابان الآخران فقد عُيّنا بالثانويه التجارية، لذا نظر إليَّ الجميع على إننى يمكن أن أحتل

منصب مدير الإدارة بعد رحيل مديرها الذى لم يبق على إحالته للمعاش إلا عامان.

طمحت منذ اللحظة الأولى لوجودى بالإدارة فى المنصب فأنا الوحيد الحاصل على البكالوريس بينهم ولكن وقفت الدرجة الوظيفة عقبة كؤود أمامى، فالرجل يحتل الدرجة الرابعة وسوف يحصل على الدرجة الثالثة قبل إحالته للمعاش أما أنا فقد عينت مثل جميع الخريجين فى ذلك الوقت على الدرجة السابعة ولن أصل إلى الدرجة الرابعة أو الثالثة إلا بعد مرور سنوات، ويصبح مركز مدير الإدارة مهددًا عند خلوّه أن يقفز عليه أى شخص من الإدارات الأخرى، لذا يجب ألا أكون موظفًا عاديًا أكتفى بالحركة فى حدود واجبى الوظيفى المحدود، رحت أنتهز الفرصة لمحاولة الظهور أمام مديرى الإدارات الأخرى الأكثر أهمية بالشركة وسعيت سعيًا حثيثًا للإلتقاء برئيس مجلس الإدارة فى أكثر من مناسبة، ولكن خاب أملى عندما لم يحسّن هذا من وضعى ولم يزد مرتبى قرشًا واحدًا عن الراتب المقرر أن أحصل عليه وحتى المكافآت المحدودة رحت أحصل عليها مثل زملائى دون ميزه واحدة تميزنى عن الآخرين رغم إننى كنت أبذل أقصى جهدى فى المهام التى أكلف بها إلى أن واتتى الفرصة عندما دخل إلى مكتبنا، مكتب إدارة العلاقات العامة بالشركة، شاب أسمر فى مطلع العشرينات طويل نحيل يضع على عينيه عوينات سمكية، قام بتعريفى بنفسه:– حسنى النجار صحفى بجريدة الصباح.

كانت مكاتب الإدارة خالية إلا منى، حيث ذهب رفاق المكتب إلى دورات المياة للوضوء استعدادًا لصلاة الظهر.

أومأت للرجل بالجلوس، فى عجالة أخبرنى إن لديه مستندات تثبت سرقات حدثت بالشركة فى الفترة السابقة حيث بيعت كميات من غزل المصنع بالسوق السوداء لبعض مصانع القطاع الخاص بسعر يصل إلى ضعف السعر الحقيقى.

كان المفروض أن أشعر بالاضطراب لسماعى مثل هذه العبارات، إن تهمة التهريب موجهة إلى زملاء لى وأغلب الظن لو ثبتت وأظنها ستثبت فإنها تعنى ذهاب البعض إلى السجن، كان المفروض أن أشعر بالتوتر أو الحزن أو الغضب ولكن شيئًا من هذا لم يحدث بل على العكس شعرت براحة شديدة تسرى فى أعماقى ففى مثل هذه الظروف فقط أشعر بالإنتعاش، لقد سعيت خلال فترة عملى بالشركة وربما خلال حياتى كلها إلى خلق الأزمات واحترفت وأبدعت أشكال كثيرة فإذا هوّن محدثى من أمر ما قمت بتهويله بكل الطرق حتى يشعر محدثى بخطئه ويعترف بأنه فى أزمة حقيقة. وهنا، هنا فقط أتقدم أنا مقترحًا حلولاً للأزمة ليس المهم أن تكون حقيقية أو وهمية ولكن أقوم بالتخفيف عن محدثى بأن أطلب منه أن يدع الأمر لى فإننى لن أنام الليل قبل أن أنجح فى حل أزمته.

أما إذا هول محدثى من أمر ما فأنا على العكس أقوم بالتهوين منه والاستخفاف به لأبرر أن الخطورة تقع فى مساحة أخرى من المشكلة التى يقص على قصتها، مساحة لم ينتبه لها وهى أفظع بكثير من تلك المشكلة التى يظن إنه يعانى منها... ولا تمر دقائق حتى أنجح فى حرف محدثى عن أفكاره ليقع فى حبائل أفكارى ويعتقد اعتقادًا راسخًا إننى المنقذ الوحيد. تلك كانت طريقتى التى اكتسبت خبرتها فى سنوات

عمرى المنصرمة كان محدثى يجلس أمامى يتأمل ملامحى صامتًا لا أعرف لماذا شعرت فى هذه اللحظة بأن هذا الشاب قريب منى، أقصد يشابهنى فى أفكاره، لماذا لم يذهب بمستنداته إلى النيابة العامة أو حتى النيابة الإداريه بل لماذا لم يذهب بها إلى الشيءون القانونية بالشركة؟ لقد جاء بها إلى إدارة العلاقات العامة، جاء ليساوم بمستنداته، ليطلب ثمنًا لها، أنه لو ذهب بها إلى أى جهة تحقيق فإنها لن تفعل سوى أن تقوم بفحص المستندات ثم التحقيق فيها ولن يستفيد هو شيء أما العلاقات العامة فهى وحدها الباب الخفى للمساومة.

كان المؤذن يؤذن لصلاة الظهر واجتمع الموظفون فى مسجد صغير بالإدارة ولم يبق بالمكاتب إلا من تخلفوا عن الصلاة مثلى.. لن تمر دقائق إلا ويأتى الزملاء وعلى رأسهم مدير المكتب الأستاذ بهجت كيف سيتصرف فى مثل هذا الأمر؟ لا أستطيع أن أتنبأ بدقة ولكنى واثق إنه سيرفع الأمر إلى رؤسائه ويترك أمر اتخاذ القرار وربما التنفيذ لهم، ولكن ماذا سيكون الموقف من هذا الإتهام الصريح بالسرقة، بسرعة نهضت واقفًا كأنما لأجبر جليسى على الوقوف قلت معتذرًا:- لا أستطيع التحدث فى مثل هذا الأمر فى مكاتبنا الحكومية.

انتظرت لحظة طالعت قسمات وجهه، كان من الواضح إنه ينتظر أن أفضح عما أرمى إليه استطردت:-

من الممكن أن تترك لى رقم هاتفك وسأتصل بك الليلة لنلتقى فى مكان مناسب.

كأن الفتى كان ينتظر عباراتى مد يده فى جبيه وأخرج منه كارت صغير، طالعت فيه رقم هاتف تحت اسمه الذى سطر بخط دقيق. كان من الذكاء بحيث فهم إن عليه أن يسارع بالإنصراف.

لم يلحظ أحد من العائدين من الصلاة انغماسى فى التفكير، تلهى كل منهم بأموره الخاصة، انكفأ بهجت الحسينى على المصحف، فتحه وراح يقرأ فيه بصوت مسموع، أما الزميلان الآخران فقد لجأ كل منهما إلى لفافة صغيرة بدرج مكتبه فتحها وراح يلتقط ما فيها من بقايا طعام يودعه فمه فى صمت، قطعة خبز، حبة طماطم، قطعة جبن وأخيرًا إصبع موز، أما أنا فقد انشغلت بدورى بأمر الزائر الغريب لمكتبنا حسنى النجار، أشعلت سيجارة ورحت أراقب من خلال النافذة ندف السحاب الطائرة فى سماء يونيو الساكنة، ستكون ورقة تهريب الغزل وبيعه فى السوق السوداء هى الفرصة الثرية لأتعرف بها على رئيس المجلس الإدارة أو على الأدق ليتعرف بى عن قرب.

فى المساء هاتفت حسنى النجار التقينا بمقهى فى شارع السلطان حسين بوسط البلد، خريج كلية التجارة يصغرنى بعامين تخلف فى الدراسة كما تخلفت، لم يتطرق الحديث إلى أسرتينا إنما ولجت فورًا إلى الهدف من المقابلة سألته مباشرة عقبه إنتهائي من مطالعة صور المستندات.

- طلباتك؟!

مط شفته السفلى فبدت سمرته أدكن مما خيل لى فى لقائى معه بالظهيرة وبدا عليه كأنه يفكر وقال ببطء بعد لحظات من الصمت:-
حملة إعلانات

أجبته:-كنت أعلم إن هذا ما سوف تطلبه ولكن دعنى أؤجل الرد عليك حتى مساء الغد.

فى صبيحة اليوم التالى تسللت إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة، طلبت من مدام خديجة أن تستأذنه فى مقابلة خاصة، ارتسمت علامات الدهشة على ملامحها، ما العلاقة الخاصة أو حتى العامة بينى وبين رئيس مجلس الإدارة؟! أجبت على التساؤل المرتسم على ملامحها:- صدقينى أمر خاص وإذا وفقنى الله فلك الحلاوة.

انفرجت أساريرها وقالت:- من حسن حظك إن مواعيده لن تبدأ قبل نصف ساعة.

غابت لحظات عادت لى بعدها تسمح لى بالدخول، همست فى أذنها:- ليكن أمر زيارتى سرًا بيننا.

ضحكت ضحكة جذلة وهى تقول:- إذا نسيت الحلاوة نسيت تحذيرك.

مثلت أمام رئيس مجلس الإدارة لأول مرة فى مكتبه، منعت نفسى بصعوبة من الإنصراف إلى تأمل السقف المطلى حديثًا والجدران المزينة بعديد من البراويز المذهبة التى تحمل آيات قرآنية عديدة والأرضية المفروشة بأفخر أنواع السجاد.

ذكرت اسمى أمامه أذكره بنفسى، تعمدت أن أظل واقفا حتى أومأ لى بالجلوس، فى عبارات قصيرة سريعة رحت أشرح له الأمر مؤكدًا له على إننى اطلعت على المستندات بنفسى، فى الوقت نفسه

ختمت حديثى بإننى فضلت أن يجرى أمر إنهاء هذا الموضوع بعيدًا عن الأطر الرسمية.

لمحت، سعيدًا، موافقته ومباركته لعبارتى الأخيرة، استحسن الرجل أسلوبى فى الحديث، فكر لحظة ثم قال:- دعه يطلب الحملة الإعلانية بشكل رسمى وسأوافق عليها شرط أن يسلمنا أصول المستندات.

ثم استطرد بعد لحظة:- وسأتولى أمر التحقيق فى هذا الأمر بنفسى وفى سريه تامة فنحن لا ينقصنا تشويه سمعة الشركة.

وجدت نفسى أهمس مشفقًا:- الحملة الإعلانية ستكلفنا كثيرًا.

معترضًا رد:- وخسارة سمعتنا ستكلفنا أكثر.

- لا أقصد يا سيدى.

- ماذا تقصد إذن.

- نعطيه راتب شهرى، سألنى:- هل هذا مطلبه.

- نافيًا قلت: كلا بل هى فكرتى لعدد من الأسباب فى مقدمتها ضمان عدم خيانته، لذا يجب أن يقسم المبلغ على شهور طويلة ومن جهة أخرى يمكن أن يكون هذا الصحفى رجلنا داخل جريدته وجرائد أخرى.

مرت برهة صمت، كان يقلب فيها الأمر على وجوهه المختلفة، كان يقارن بين ما أقترحه وبين أن يعطيه مبلغ ما وينتهى الأمر، هز رأسه موافقا، قفز قلبى بين ضلوعى فرحًا، نهضت واقفًا مستأذنًا فى الانصراف فكاد يقف هو الآخر لوقوفى وكأنه تنبه لهذا فى اللحظة

الأخيرة فعمغم قائلاً:– افعل يا أستاذ مدحت ما تراه مناسبًا للصالح العام.

فى الخارج التقيت بمدام خديجة، كانت ابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها وهى تسألنى:– هل أستحق الحلاوة.؟

غمغمت مبتهجا:– بالتأكيد عندما ينتهى الأمر.

فى اليوم التالى وفى الموعد الصباحى عاودت الزيارة، لم أكن فى حاجة إلى أن أرجوها لتأذن لى بالدخول، فهمت ما يمكن أن يكون قد جري بينى وبين السيد رئيس مجلس الإدارة، فاستأذنت لى فى الدخول وبعد لحظات كنت أجلس بين يديه أخبره بالمبلغ الذى اتفقت عليه مع حسنى النجار ووعدته بأن أحصل على الأوراق فى اليوم التالى.

وافق الرجل على المبلغ وأخبرنى كيف يمكن تدبيره شهريا من المصاريف النثرية لإدارة العلاقات العامة ووعدته أن أحضر له الأوراق والمستندات كاملة فى اليوم التالى.

بادرت مدام خديجة عقب مغادرتى لمكتب رئيس مجلس الإدارة قائلاً:–

- تستحقين غذاءً فاخرًا بمعطم كباره.

شهقت فرحة:– أسماك بحري.

همست مشجعًا:– وأنا أغمز بعينى بحرى وما أدراك ما بحرى

قالت:- سأحضر الأولاد معى فغير معقول أن أتناول غذائي بعيدًا عنهم.

كنت أعلم أن زوجها الضابط غائب بالجبهة بالإسماعيلية، فقلت لها:- أفضل أن أبعث لهم بغذائهم بدلا من أن يتعبوا أنفسهم.

أومأت برأسها موافقة، فقلت لنفسى من حقى أن أهنأ بجلسة رومانسية على الكورنيش كجائزة صغيرة أقدمها لنفسى بعد أول نجاح لى أحققه فى التقرب لرئيس مجلس الإدارة.

وبت أحلم فى تلك الليلة بمقعد مدير إدارة العلاقات العامة، قلت لنفسى سوف أكون أصغر مدير ينال هذا المنصب وربما أول مدير نال تعليمه فى ظل مجانية التعليم.

فى المساء وفى مقهى شارع السلطان حسين سمعت مع حسنى النجار أخبار معارك الجبهة، أعطانى الأوراق وأعطيته راتب الشهر الأول، قلت مداعبًا ومراوغًا:- لن أسألك إذا كنت تحتفظ بنسخ أخرى لهذه الأصول.

أجابنى مطمئنًا:- لقد اتفقنا ومن المحال أن أخون الأمانة.

كتمت ضحكة ساخرة كانت على شفتى عندما ذكر كلمة الأمانة، سمعته يستطرد مشيدًا جسرًا للثقة بيننا:-كدلالة واضحة على حسن نيتى سوف أذكر لك اسم الموظف الذى أعطانى هذه المستندات.

لم بكن طموحى فى هذه اللحظة يمكن أن يصل إلى معرفة اسم هذا الموظف من خلال رجل كان يتحدث منذ لحظة عن الأمانة

ولكن اعتبرت إخبارى بإسمه دلالة واضحة على رغبة صادقة فى التعامل الأمين.. ومع ذلك فقد كان يذكرنى بنفسى لقد تركت عائلتى فى اللحظة التى أصبحت فيها قادرًا على الكسب والعطاء وأصبحت مطالبًا برد الجميل وإعالة أبى فى شيخوخته.

ما إن وصلت إلى مكتبى فى اليوم التالى حتى غادرته ذاهبًا إلى مكتب شئون الأفراد، طلبت ملف حسن منصور وكان هذا هو اسم الموظف الذى قام بتسريب بعض أسرار الشركة إلى الصحفى حسنى النجار.

******

بدأت نسائم الصيف على شاطئ الإسكندرية، اكتظ ميدان محطة الرمل بالهاربين من حرارة الطقس، رأيتها وهى تغادر التاكسى على حافة السور الصخرى فى الجهة المقابلة لتمثال سعد زغلول، كان الحديث يدور بين الجالسين على الأرصفة عن تساقط الطائرات الفانتوم الإسرائيلية، تذكرت زوجها القابع هناك على الجبهة كشف الرداء الأحمر عن ذراعين سمينين، لمحت كمية المكياج المضاعفة على وجهها، ترى هل يمكن أن يعلم زوجها بمثل هذا اللقاء؟ استقبلتها مسلمًا كدت أضمها بين ذراعي على قارعة الطريق، لمحت فى عينيها مشاعر مشابهة لما يدور فى ذهنى أطبقت بكفها على كفى فشعرت بحرارة زائدة تسرى فى جسدى، انتزعت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فاستسلمت لى، فسرنا فى اتجاه المنشية، بدونا رغم فارق السن كزوجين يطالعان مياه البحر العكرة عند نادى اليخت.

قالت معترفه:- لم أحظ بمثل هذه النزهة منذ سنوات.

متسائلاً قلت:- وكيف يقضى أجازته معك.؟

وهى تجيبنى:- فى الفراش.

- فقط؟

- لا يغادره طيلة أيام الأجازة العشر.

قلت متأسيًا:-مساكين ضباطنا بالجبهة.

معترضة ومتنهدة قالت:- بل مساكين زوجات الضباط.

جمعتنا مائده نائية فى مطعم كباره، أنفقت نصف راتب الشهر فى وجبة الغذاء التى ضمت بجانب السمك والجمبرى والكابوريا أربعة زجاجات من البيرة، ورغم هذا كنت سعيدًا، همست لها وأنا أودعها:- من الغد ستعرف الإدارة كلها إنى مكلف بمهام خاصة من السيد رئيس مجلس الإدارة.

بدلال قالت:- إذن لم تكن دعوتك مقابل كتمان سرك

ضحكت بدورى وقلت معترفًا:-كانت دعوتى مقابل الساعات التى قضيتها معك.

وهى تعبث بأصابعها بأزرار قميصى المفتوح:- هل يمكن أن تتكرر؟

أجبتها صادقًا:- بالتأكيد ولتكن الدعوة القادمة على حسابك.

قالت متبهجة لصراحتى:- صدقنى إنى أرحب أن تكون كل الدعوات على حسابى.

افترقنا على موعد بلقاء فى يوم الجمعة التالى.

عن طريق الإشاعة التى أشعتها بإننى مكلف بمهام خاصة من رئيس مجلس الإدارة والتى ساعدتنى مدام خديجة فيها دون أن تدرى فتحت لى أبواب الإدارات المختلفة، وجدت من أستطيع تكليفه بإعداد تقرير مفصل عن الموظف حسن منصور.

لم تمض سوى أيام قليله حتى كنت فى مكتب رئيس مجلس الإدارة أقدم له تقريرًا شاملاً عن حسن منصور مبرزًا الثغرة التى وجدتها فى أوراقه والتى يمكن أن تتيح لنا الفرصة لتقديمه للتحقيق.

فى الحقيقة لم يكن هناك عيب فى أداء حسن منصور الوظيفى ولكني أعرف جيدًا كيف أخلق هذا العيب خلقًا وأبتدعه ابتداعًا وذلك لغرامى الدائم بمعرفة تفاصيل عمل كل قطاع بالشركة.

هنأنى رئيس مجلس الإدارة على مجهوداتي ووعدنى بمكافأة سخية ووقع أمرًا بإحالة حسن منصور إلى التحقيق، كدت أطير فرحًا ها هى مجهوداتى تثمر وأنا الذى بذلتها كثيرًا اثناء حياتى الجامعية ولم أكن أجنى من ورائها إلا أقل القليل المتمثل فى علبة سجائر أو كتاب دراسى أو سهره مجانية مع بعض الرفاق.

عندما عدت إلى مكتبى رمانى مدير المكتب بنظرة مريبة، تجاهلتها مبتسمًا فارتسمت علامات الغيظ على ملامحه، فلم أعره انتباهًا ورحت أدبج تقريرًا آخر عن حسن منصور اتهمته فيه إنه يحرض العمال ضد نظام الدولة وضد رئيس مجلس الإدارة.

فى المساء ذهبت إلى مبنى المباحث العامة بالفراعنة لأقوم بتسليم التقرير بنفسى تساءلت هل يمكن أن يرفعنى هذا التقرير درجة مثلما رفعنى التقرير الأول ولكن الضابط الذى سمح لى بمقابلته طالعنى صامتًا وهو يتصفح الوريقات التى قدمتها له ثم سمح لى بالإنصراف على أن أعاود الزيارة فى الإسبوع التالى.

عدت إلى منزلى بشارع أحمد أبو سليمان محملا بالأفكار والهموم، لا أعرف لماذا كنت خائفًا إن التعامل مع المباحث العامة أو أمن الدولة كما كنا نطلق عليها أمر يختلف عن التعامل مع رئيس مجلس الإدارة رفعت بك درويش، ربما أساءوا الفهم أو اتهمونى بالتدخل فى عملهم، إننى أمارس دورى كمواطن صالح أقوم بدورى فى حماية الجبهة الداخلية، ضحكت من نفسى عندما تواردت على ذهنى العبارات الأخيرة ولا أعرف لماذا تذكرت خديجة إن موعدى معها غدًا وقد أصرت أن يكون لقاؤنا بشاطئ باردايس بأبى قير، يبدو كشاطئ شبة خال من المصطافين، ذهبت إلى الموعد محملاً بأحلام وكوابيس عن المستقبل.

سبقتنى إلى الشاطئ، تحت المظلة جلست غطى "البرنص" جسدها من خلال فتحاته الواسعة بدت ككتله ثرية من اللحم الأبيض الطازج رغم سنوات عمرها التى تقترب من الأربعين، جسدها شهى وشاطئ خال ورغبة جارفة تعتمل فى داخلى طالعت نظراتى الشهوانية بسعادة أرضت غرورها ثم قالت تغير مجرى الحديث والتفكير:- قبل عبد الناصر وقف إطلاق النار.

هززت رأسى وكتفي دلالة أن الأمر لايعنيني. استطردت :. سوف تكثر أجازاته.

أدركت علاقتي فى هذه اللحظة بقبول عبد الناصر وقف إطلاق النار فقبوله هذا يعنى أن تقل لقاءاتنا وربما تنعدم إذا نجح الضابط فى الإنتقال إلى وحدة عسكرية بالإسكندرية.

تنهدت متأسيًا فمدت كفها تفك أزرار قميصى ومرت بأصابعها على صدرى العارى وهى تقول:--حتمًا سنجد طريقا للقاء.

كان هذا لقاءنا الثانى، وجدت نفسى أتساءل ماذا تفيد هذه اللقاءات؟ بل ماذا يمكن أن يفيد استمرارنا فيها؟ إن خديجة ليست هى الهدف ولا يمكن أن يكون مثلها هدفًا لى إنها مجرد مديرة مكتب رئيس مجلس الإدارة وقد تجاوزتها بعد لقائى الأول معه حتى أصبح الآن يمكنني أن أدخل مكتبه بدون استئذان، الجسد شهى وسنواتى الخمسة والعشرين تغلى فى داخلى ومع ذلك فهى زوجة رجل آخر يمكن أن يعود فى أى لحظة بل يمكن أن يفاجئنا الآن وهى تكاد تكون بين ذراعى شبة عارية فى هذا الشاطئ النائى الذى يقع فى اقصى شرق الإسكندرية، لا أعرف لماذا تذكرت فى هذه اللحظة لطيفة ابنة عضو مجلس الإدارة المنتدب، سمراء نحيلة تفتقر على وجه التقريب إلى كل مقومات الجمال، ولكننى لا أستنطيع أن أنكر أنها أنيقة للغاية ولا أستطيع أن أنكر إنها ابنة عضو مجلس الإدارة المنتدب الذى تعادل وربما تفوق سلطاته رئيس مجلس الإدارة نفسه، لا أستطيع أن أنسى إعجاب كل الموظفين بعربتها التى تدخل بها الشركة عندما تكون فى زيارة

لوالدها، في النهاية لا أستطيع أن أنكر إن لطيفة هى الزوجه المبتغاة، هى التى يمكن أن ترفعنى، بل إن التقرب لها قد يفيد أكثر بكثير من تقربى من رئيس مجلس الإدارة الأرمل الذى ليس له إلا ولدان مسافر أكبرهما إلى الخارج أما الأصغر فلازال فى مراحل التعليم الثانوى.

كانت على وجه التقريب قد جردتنى من ثيابي فبدا جسدى بلباس البحر متناسقًا، كنت أدرك مدى ما أمتلكه من شباب ووسامة غير متكررة لفتت إليّ أنظار كثيرات من فتيات الجامعة ولكنهن كلهن كن يهدفن إلى الأخذ وليس العطاء، فلم نكن من بينهن من يمكن أن تساعدنى فى تحقيق أهدافى ومع ذلك لا أنكر إننى قد قمت باستغلال بعضهن فى الحصول على بعض المكاسب الصغيرة وكانت علاقتى بهن تنتهى بتحقيق مأربى.

قضينا يومنا عابثين بين المياه والرمال، ضحكنا لعبنا، التهمنا كميات كبيرة من الأسماك والجمبرى والكابوريا، احتسينا عدة زجاجات من البيرة قامت بتدليك صدرى وظهرى ودهانهما بالكريم حماية لبشرتى من حرارة الشمس وطلبت أن أقوم بنفس الشيء بالنسبة لها وعندما فعلت قررت فجأة أن يكون هذا اللقاء بخديجه آخر لقاءاتى على الأقل بسبب تجنب عذاب الجسد الذى أعيشه فى مثل هذه اللحظات.

صارحتها بعزمى فى اليوم التالى فاستقبلت قرارى مغتمة ولكنى تعللت بإمكانية حضور زوجها إلى الإسكندرية فى أى وقت.

****

كنت أخمن ما يمكن أن يقدم عليه ضابط أمن الدولة بعد أن يقرأ تقريرى، لذا بعثت بأكثر من شخص أوكلت إليهم مهمة نشر مقولات بعينها وسط العمال عن هذا المدعو حسن منصور الموظف الشيوعى- هكذا أسميته- مقولات تفيد بأنه يمارس نشر سموم يسارية وسط العمال.

فى زيارتى التالية لمباحث أمن الدولة، كنت أتوجس خيفة من مغبة الزيارة حتى إننى فكرت مترددًا أن أتوقف عن سلوك هذا الطريق، استقبلنى نفس الضابط ليسلمنى إلى ضابط آخر، قرأت اسمه من لافتة نحاسية وضعت فى مقدمة مكتبه مقدم صفوان المراغى، يبدو إنه هو المسئول عن شئون العمال بأمن الدولة، استقبلنى باسمًا ومرحبًا فسرت الطمأنينة إلى نفسى ولكن تلك اللحظات لم تطل، فعندما أنبأته بأن قرارًا قد صدر بوقف حسن منصور عن العمل كست سحابة قاتمة ملامحه ونهض واقفًا وهو يقول مستغربًا:- أبمثل هذه السرعة؟

رغم غضبه قلت مفاخرًا:- يجب أن يجازى المخطئ.

تصاعد غضبه وقال:- يجب أن يوقف هذا القرار فورًا.

- لقد صدر القرار بالفعل.

حدقنى بنظرة حازمة كادت تجمد الدم فى عروقى حتى إننى أسفت أسفًا شديدًا لتصرفاتى الهوجاء التى أدت بى إلى هذا المكان.

ومع ذلك قلت معترضًا:- لقد أثبت التحقيق.

قاطعنى حازمًا وآمرًا وقد عاد للجلوس خلف مكتبه:- نفذ ما آمرك به سوف نستفيد من رجوعه أكثر مما تستفيد من عقابه.

تساءلت تعبيرات وجهى بما يفيد:- كيف؟

أجابنى:- ستسعى إلى حسن منصور وتظهر صداقتك له وسيكون عربون هذه الصداقة مساعيك الحميدة لإلغاءِ قرار الوقف وإرجاعه إلى عمله.

ختم حديثه بنظره حادة رمانى بها أجهضت فى داخلى أى رغبة لسؤاله عن معنى طلبه أو الهدف منه.

غادرت مكتبه واعدًا بتنفيذ الأمر على أن أعود للزيارة فى الأسبوع التالى.

****

فوجئ بزيارتى بمنزله بشارع دنا الرئيسى، كانت المرة الأولى التى اخترق فيها هذا الشارع الغريب الذى يربط بين منطقتين متباعديتن منطقة الشركة العربية من جهة الشرق وحى باكوس وأرض سليم اسكندر من جهه الغرب يقع بين الناحتين كتلة مبانى ضخمة متلاصقة لا يفصل بينها إلا هذا الشارع الذى لا يزيد عرضه عن أربعة أمتار، كان حسن منصور يقطن بزقاق مسدود بهذا الشارع المسمى بالرئيسى.

فضلاً عن مفاجأته بالزيارة فإنه عندما أفاق إلى نفسه لم يبد أي ترحيب بى، بدورى لم أفاجأ بنظراته المستريبة المتسائلة عن سبب الزيارة، استقبلنى فى صالة متواضعة يفتح عليها باب غرفة موارب لمحت من خلاله ولداه اللذان لم يتجاوز عمرهما سن الصبا.

اقتحمته قائلاً:- لقد أسفت جدًا لما جرى لك، بل إنى لم أعرف بالأمر إلا صباح اليوم.

تجاهلت نظراته المكذبة التى رمانى بها، استأنفت حديثى:- أنت زميل وزميل عزيز وما حدث لك يسيئ إلينا جميعًا.

عقب بائسًا:- الله يجازى أولاد الحرام

مؤكدًا قلت:- لن يجازيهم الله إلا بأيدينا نحن أيدى أولاد الحلال

ملأ الاستنكار نظراته لصدور مثل هذه الكلمات منى إذ أن الجميع كان يعلم صلتى الوطيدة بالإدارة وتأييدى المطلق لها فى مواقف سابقة، تساءل سافرًا:-كيف؟

مواصلاً نوبة حماسى ومتحديًا نظراته المستنكرة قلت:- إذا كنت ستقف ساكنًا حيال ما جرى لك فهذا شأنك أما أنا فلا استطيع أن أخذ موقفًا سلبيًا تجاه ما يجرى لك أو لأى زميل وسأبذل قصارى جهدى لمساعدتك.

مستمرًا فى نوبة سخريته قال: كيف يمكن أن تساعدنى؟

قلت لن يهدأ لى بال حتى أنجح فى إلغاء القرار حتى لو نالنى بعض الأذى جراء ذلك.

جادًا قال :- لن تستطيع لقد صدر القرار وانتهى الأمر.

واعظًا قلت:- لست وحدك يا حسن إن الله معك وكل الشرفاء معك أما أنا فلا أبغى منك إلا أمرًا واحدًا.

عادت الريبة ترتسم على ملامحه وهو يسأل عن ماهية الأمر الذى أبغيه.

واصلت:- أرجوك أن تضع ثقتك فيَّ.. إذا أوليتنى ثقتك فسأشعر إنك تكن لى بعض ما أكنه لك من احترام وتقدير فأنت قبل كل شيء زميل عزيز.

صدرت عنه تنهيدة بائسة فقال مراوغًا:- أنا أثق فيك ولكن لا أثق فى قدرتك على إلغاء القرار بعد أن تم توقيعه.

عدت إلى اسطوانة الوعظ فقلت:- علينا أن نحاول والله الموفق

رمانى بنظرة بعثت الراحة فى نفسى لأننى لمحت بعضًا من الثقة المتسربة إليه، سعدت للغاية بسبب نجاح كلماتى فى زحزحة رأيه فيَّ حتى ولو كان هذا بقدر ضئيل.

نهضت واقفًا فنهض بدوره مسلمًا فقمت باحتضانه وضمه إلى صدرى فطلب منى بصوت خجل ضرورة معاودة الزيارة.

على درجات السلم المتهالكة التى رحت أهبطها بحذر مغادرا منزله إلى الزقاق المسدود ومنه إلى شارع دنا الرئيسى رحت أضحك من المشهد الذى نجحت فى أدائه.

لم أكن قد التقيت بحسن منصور من قبل فهو مجرد موظف صغير بإدارة المبيعات لم تجمعنى به علاقة عمل ولم اسع لرؤيته إلا عقب إفضاء حسنى النجار باسمه لى، أما أنا فكان يعرفنى بالتأكيد مثلما يعرفنى كل العاملين بالإدارة ومثلما يعرفنى كثير من عمال المصنع.. صدقنى الرجل رغم ملامح الرجولة والجدية المرتسمة على وجهه،

الرجل يكبرنى بنحو عشر سنوات ذو شارب كث يزين قسمات وجهه المتناسقة، شعرت بالفخر بنفسى وأنا أتوجه فى اليوم التالى إلى مكتب رفعت درويش رئيس مجلس الإدارة، ابتسمت لى خديجة ابتسامة مشجعة وهى تومئ لى بالدخول تجاهلتها وحاولت جاهدًا أن أبعد صورة جسدها العارى بثياب البحر عن ذهنى وأنا فى حضرة رئيس مجلس الإدارة.

كعادته حدق فى وجهى متسائلاً عما ورائى، قلت راجيًا: لى طلب ربما لا تتوقعه سعادتك.

تساءلت تعبيرات وجهه عن ماهية الطلب، واصلت أرجو أن تسمح بإلغاء قرار إيقاف حسن منصور عن العمل.

مندهشًا أوضح:- إنه لم يحقق معه بعد.

واصلت:- أطمع سيادتك فى إلغاء التحقيق أيضًا.

هتف معترضًا ومستنكرًا:- أنت الذى تطلب إلغاء التحقيق وإلغاء قرار الإيقاف وأنت الذى سعيت سعيًا لتنفيذه.

أوضحت:- إن عفوك عنه بعد صدور قرار الإيقاف سيغيره ليصبح من رجالنا بل من أخلص رجالنا.

تراجع الرجل فى مقعده، عقد ذراعيه على صدره لحظات، راح يحدجنى بنظره متفحصة من خلف عدسات النظارة التى يضعها على عينيه، طال الصمت بيننا فأدركت أن الرجل كعادته يقلب الأمر على وجوهه المختلفة، فقررت أن أدفعه دفعًا إلى قبول طلبى فرحت أحدد مزايا اقتراحى فقلت:

- هو رجل لا يفتقر إلى الكفاءة يحمل عديد من الخصال الحميدة التى يمكن أن تكون معنا لا علينا.

خطر فى بالى فى هذه اللحظة أن أسأله عن نتائج التحقيق الذى ألمح لى من قبل إنه يجريه سرًا ليعرف حقيقة تهريب كمية من الغزل إلى السوق السوداء، ولكنى بالطبع لم أسأله فعبارة خصال حميدة التى وردت على لسانى فى وصف حسن منصور هى التى أوحت لى بسؤاله بل ربما تكون هذه العبارة بالذات سببًا فى رفض رفعت درويش لعودة الرجل إلى عمله.

عقب انقضاء برهه الصمت هز رأسه موافقًا وسمعته يقول:

- أوافقك ولكن لن يصدر قرار إلغاء التحقيق والعودة إلى العمل إلا بعد حوالى شهر يقدم خلالها التماس بالعفو.

قاطعته مرحباً:- بل عدة التماسات يا سيدى.

رحت أنحنى شاكرًا ومددت يدى مسلمًا وانا أكاد أقبل يده لفرط شعوري بالامتنان.

التقيت بخديجة فى الخارج، فوجئت بملامح البهجة المرتسمة على وجهى كذلك البسمة العريضة التى تنيره، سألتنى مستفسرة وقد تناست تجاهلى لنظرتها المشجعة أثناء دخولى مكتب رفعت درويش. متجهمة قالت:- دعنى أشاركك فرحك وسعادتك.

فمددت يدى أقرصها فى وجنتها المنتفخة وأنا أردد:-كل خير كل خير.

انتهزت الفرصة وقالت:- نلتقى الجمعة القادمة فى نفس المكان.

أسقط فى يدى، كنت بالفعل فى حاجة إلى لقائها فقد بدأ جسدها العارى الشهى لا يغطيه إلا ثوب البحر يزورنى فى أحلامى، كدت أومئ برأسى موافقًا ولكنى فى اللحظة الأخيرة وجدت نفسى أقول وأنا أهرب بنظراتى من نظراتها:- اعذرينى إننى مشغول للغاية فى هذه الأيام واستدرت منصرفًا أو على الأصح أوليتها ظهرى وسارعت إلى مغادرة المكتب بل والشركة كلها، سمحت لنفسى بالانصراف قبل مواعيد العمل فقد أصبحت العلاقة بينى وبين رئيس مجلس الإدارة تسمح بذلك أو على الأقل هذا ما شعرت به فى هذه اللحظة.

****

عندما أصبحت فى الشارع تملكتنى عديد من الانفعالات واختلطت الصور فى ذهنى فسرت فى شارع الشركة حتى وصلت شارع أحمد أبو سليمان قمت باختراقه حتى أصبحت فى شارع دنا الرئيسى، كانت شمس أغسطس قاسية ولكنى لم أشعر بها فى هذه اللحظة لفرط انفعالى رحت أتصور الأستاذ بهجت مدير إدارتنا وهو يعلم خبر مغادرتى الشركة دون استئذانه بل إننى لم أعثر فى ذهنى على سبب أستطيع أن أتعلل به ومن جهة أخرى، بعين الخيال رحت أرى خديجة عقب انصرافى والتعبيرات التى راحت ترتسم على وجهها الجميل، لقد تركت أصابعى على وجنتها أثار إحمرار بسبب تكويرى للحم الوجنة البيضاء المكتنزة بين أصابعى وضغطى عليها لقد ضاعفت من احمرارها الطبيعى فزادت المرأة جمالاً على جمالها ولكن ماذا يمكن أن آخذ منك ونحن مهددين بمشهد وقف إطلاق النار وأصبح ضباطنا فى حالة

تسمح لهم بمغادرة الجبهة بشكل يختلف عن فترة مضت كانوا فيها فى حالة قتال حقيقية سواء بالتصدى أو الهجوم.

تذكرت إننى قرأت فى الصباح إن إسرائيل تتهمنا بتحريك قواعد الصواريخ فى اتجاه القنال، ترى هل يشترك الضابط محي فى هذا التحريك أم أن الأمر كله لا يعدو إتهامًا كاذبًا من قبل إسرائيل.

اكتشفت فجأه إننى أصبحت على بعد خطوات من منزل حسن منصور، لقد كنت أسعى للذهاب إليه دون أن أدرى دفعتنى موافقة رفعت بك على التوجه إلى منزله لإبلاغه الخبر بشكل غريزى. تذكرت الآن فقط طيف زوجته الذى لمحته من خلال الباب الموارب وهى تحدث صغيرها لم أكن أستطيع أن أحكم من خلال تلك اللمحة العابرة إلا على قوامها الممشوق مع ميل إلى الامتلاء، حكم جعلنى أهنئ الرجل على حسن اختياره وربما أضاف بذلك إلى مزاياه التى لا أعرفها على وجه الدقة ميزة جديدة.

التقط أنفاسى على باب شقته قبل أن اقرع الباب برفق، من خلال شراعة زجاجية لمحت جانب وجهها، بتصور قوامها المختفى وراء الباب أدركت أن الوجه وجهها والجمال جمالها، جمعت بين القوام الرشيق المائل إلى الامتلاء وبين الملامح الدقيقة، أغلقت فرجة الشراعة ليفتح الباب ويستقبلنى حسن منصور، كانت صورتها تملأ صفحة خيالى لم أشاهدها بالصالة الصغيرة التى استقبلنى فيها.

مرت برهه قبل أن أنجح فى استرداد نفسى وتجميع مشاعرى وأفكارى وبدأت فى قص قصة طويلة عن لقائى مع السيد رئيس

مجلس الإدارة، قصة مختلفة تمامًا عما جرى بالفعل، رواية مختلقة من الألف إلى الياء، قصصت عليه كيف أن الرجل فى البداية رفض الحديث فى الأمر نهائيًا وكيف إننى ألححت عليه بحرارة مدة طويلة حتى إننى اضطررت لإسماعه بعض العبارات الكاذبة عن مزاياه غير المسبوقة حتى لانت بعض ملامحه المتجهمة واختفت تلك التكشيرة المخيفه فوق وجهه وبدأت الحديث عن أمر رجوعك للعمل وأنا متوجس خيفة أن يقاطعنى أو يعود لتجهمه عند نطقى بأى لفظ من الألفاظ التى قد لا تروق له ولكن الله ستر، استمع إلى صامتًا ثم عقب بعبارة واحدة:- حسن سوف نبت فى هذا الأمر فيما بعد.

كان حسن ينصت لى متحفزًا وما إن توقفت عن الحديث حتى انفجر يائسًا:- ألم أقل لك؟ لا يوجد أمل.. ألم أقل لك؟

قلت متوددًا:- لا تجعلنى أندم على حضورى لك الآن، لقد فكرت جديًا ألا أقوم بزيارتك حتى أنجح فى حل مشكلتك ولكنى عدت وقدرت نضجك الشخصى وقدرت أيضًا إنك ستتفهم تفاصيل الموقف.

قال وهو يهرب بنظراته من نظراتى خشية أن ألمح فيها أطياف الشك:- إنى لا أثق فيهم.

قلت مؤكدًا وحرارة تعبيراتى ترتفع تدريجيا:- ولا أنا ولكن على المؤمن أن يسعى والله وحده عليه التوفيق.

كنت أعلم أن حسن منصور ليس من المنتظمين فى أداء الصلاة فى أوقاتها وأنه لا تنطلى عليه بعض العبارات ذات المدلول الدينى التى أتعمد أن أدسها فى حديثى.

ومع ذلك رأيت أن من الصواب أن أبرز أمامه المبرر الذى يفسر مساعدتى له ولا يوجد مبرر فى حالتنا هذه أفضل من الاعتصام برداء الدين.

كنت جالسًا فى مواجهته موليًا ظهرى للطرقة الصغيرة التى أظنها مؤديه إلى المطبخ، سمعت حفيف ثوب وصوت خطوات رشيقة خلفى، بطبيعة الحال ظللت أكمل حديثى مع حسن. إلى أن برزت حاملة صينية بها قدحين من الشاى وضعتها على منضدة صغيرة أمامنا وهى تلقى التحية، لا أعرف لماذا شعرت فى هذه اللحظة بأنفاس أمى وهى تلفح وجهى، شاع فى المكان دفء الزوجة الريفية، قمت برد التحية دون أن أحول بصرى إليها استقامت واقفة عقب تقديم أقداح الشاى واستدارت منصرفة وتمنيت أن أنجح فى اختلاس نظره صريحة إلى قوامها أو وجهها ولكن نظرات حسن المحدقة فى وجهى منعتنى، فلم أجد ما أقوله بمناسبة ولوج زوجته إلى الغرفة ثم انصرافها سوى أن أهمس متوددا وأنا أميل عليه:- أرجو ألا تنقل حديثنا هذا إلى زوجتك، إنك يجب أن تطمئنها فى كل الأحوال وكفاك ماتعانيه أنت من قلق.

استقبل نصيحتى شاكرًا وبسط يده بكوب الشاى يحثنى على ارتشافه قبل أن يفقد حرارته.

رحت أشرب الشاى الساخن صامتًا، وأنا أتلمس الطريق لكى أخطو الخطوة التالية قلت له فجأه متظاهرًا بأن قولى قد طرأ على ذهنى فجأة:- ماذا لو قدمت طلب التماس بالعودة.

بدا كأنه ينتظر اقتراحى أو يتوقعه فبعث هذا رياح القلق فى داخلى سمعته يقول:- وماذا لو رفض طلبى؟

- لن نخسر شيئًا.

محدقًا فى وجهى بتحدٍ غاضب ضاعف من قلقى وقال:- على العكس فسوف أخسر كل شيء.

- لا أفهم.

موضحًا قال:- لقد خسرت كل شيء ولا أملك الآن سوى كرامتى فإن خسرتها فقد خسرت كل ما بقى لى.

مهدئًا قلت:- لا كرامة فى الرزق يا أخى.

ثم استطردت واعظا:- فمن أجل أطفالنا يجب أن نتحمل ثم إنك لا تعمل فى عزبة رفعت دوريش، كلنا موظفون... كلنا حتى رفعت بك نفسه، نقف فى آخر الشهر أمام نفس الصراف لنقبض مرتباتنا.

تنهد صامتًا فأدركت إننى أصبت منه هدفًا فواصلت إلقاء عباراتى التى لم تفقد حرارتها لحظة:- إن علينا أن نسعى بكل الطرق كى ننال حقوقنا.... كل الطرق.

****

عقب مغادرتى لمنزل حسن منصور قررت العودة إلى الشركة، وجدت أن من الصعب أن أنفرد بنفسى فى مثل هذه اللحظات، اعترف إننى أعانى من الوحدة ولا توجد وسيلة للهروب منها سوى فى التفكير فى النساء كانت مخيلتى تضم صورًا عديدة لكثير من فتيات الجامعة وأخريات من جيراننا بشارع العمرى أغلبهن نساء يكبرننى سنًا، خيالات كثيرة تحفل بها ليالى الوحدة فى شقتى الصغيرة بشارع أبو سليمان، فكرت مرة أن أعود إلى أسرتى أوحشتنى هناء كثيرًا ولكننى لا أجرؤ على العودة، لو كانت أمى لازالت على قيد الحياة لكان الأمر سهلاً ويسيرًا بالنسبة لى فهى قادره دائمًا على غفران أخطائى، دائمًا تذكرنى بالله سبحانه وتعالى، هى كانت تسامحنى دائما تسمعنى دائما تقتنع بمبرراتى وتفسيراتى أيًا كانت كاذبه ومختلقة ومجافية للحقيقة حتى إننى كنت أحيانًا أشفق عليها من كذبى أشفق عليها من شرى، ولكنها ماتت، ماتت وخلفت هناء أو على الأدق قامت هناء بوراثتها فى حبها لى ومع ذلك هل نجحت فى ملء الفراغ الذى شعرت به عقب فراق أمى؟ فرسبت فى الثانوية العامة ولم أحصل فى العام التالى على مجموع يؤهلنى للكلية التى أود الالتحاق بها ورسبت كذلك فى العام الأول من التحاقى بكلية التجارة.... لم تنجح هناء بالتأكيد رغم حبها الشديد لى ورغم تفضيلها لى على نفسها فى كل الأمور الخاصة بالمأكل والملبس ونفقات المنزل الصغيرة رغم هذا عانت هى نفسها من مشاكل خاصة باضطهاد أبى لها وحاكاه عطية فى اضطهادها، حاولت أن أمنع هذا ولكننى الآن وأنا أتذكر هذه الأمور أعترف إن محاولاتى لم تكن أبدًا بالقدر الكافى فلم

أستطع أن أمنع عطية من الإعتداء عليها باللكمات والصفعات وأحيانًا بالركلات، كل ما فعلته هو أن تضاعفت كراهيتى لأبى ولعطية وللمنزل كله واتخذت قرارًا بالفرار، أدركت الآن أن هناء كانت ترجونى أن أتراجع عن قرارى ليس لمجرد حبها لأخيها ولكن حتى لا أتركها لينفرد بها عطية وأبوها آملة أن أدافع عنها، يوما شعرت بالإشفاق الشديد عليها تمنيت أن أراها وأطمئن عليها ولكننى كنت موقنا إن أمنياتى لن تتعدى حيز رأسى ولن تتحول فى يوم ما إلى خطوة مادية ملموسة.

فجأة قفز مشهد زوجه حسن منصور إلى ذهنى، يوجد علاقة بين الدفء الذى تشيعه فى منزلها وبين الدفء الذى كانت تشيعه أمى فى منزلنا، تأكدت من هذا، أشعر الآن على طرف لسانى بطعم مميز لكوب الشاى الذى احتسيته منذ قليل فى منزلها، لعله هو نفس طعم الشاى الذى كانت أمى تدخل عليَّ به أثناء انغماسى فى المذاكرة ساندوتشات الفول الدافئة وقطع الطرشى وكوب الشاى الساخن وفوق كل هذا الحنان الدافق الذى يفوح فى الغرفة عند دخولها وعند مرآها وعند حديثها، عرفت الآن فقط لماذا شعرت بالحب الشديد لهذه المرأة التى جاوزت الثلاثين من عمرها، بل شعرت بالغيرة من حسن منصور لحصوله عليها زوجة وأم لأولاده وحرمانى فى نفس الوقت من أمى فى سن مبكرة، فى السن الذى أدركت فيه أهمتيها وقيمتها، كأن الله كان يتنظر منى أن أدرك هذا ليحرمنى منه ولأعذب بقية عمرى ولأجد نفسى أعذب بكل النساء اللاتى أقابلهن، زميلات فى الجامعة ومدام خديجة وجسدها الأبيض اللدن وهى تطلب

منى أن أدهنه لها بالكريم الذى يحميه من حرارة الشمس، لحظتها تحاشيت النظر إلى وجهها الذى كان يختلج بكل انفعالات اللذة وتحاشيت بالمرور بأصابعى قرب المناطق الحساسة من جسدها وسرحت بذهنى بعيدًا للتفكير فى لطيفة ابنة عضو مجلس الإدارة المنتدب القبيحة الأنيقة عندما رأيتها وهى فى زيارة أبيها، تهامس الموظفون وتجمعوا خلف الأبواب لمشاهدتها فقد كان نادرًا ماترتاد الشركة منهم من قام بمدح أناقتها والتغزل فى رشاقتها وآخرون سخروا من سمرتها ومن تقاطيعها غير المتناسقة ولكن الشباب جميعًا تمنوا الزواج منها وكنت واحدًا منهم بل كنت على رأسهم إن شعارى الذى وضعته لنفسى منذ زمن فلأحب كما أشاء ولأغرم بالنساء وأستضيفهم فى أحلامى ومنامى وصحوى كما أشاء أما الزواج فأمر آخر لن يحكمه سوى أن أجد من تثب بى وثبة كبيرة إلى أعلى.

ما إن شاهدنى مسئول البوابة ألج إلى داخل الشركة حتى أسرع إليَّ يخبرنى أن الأستاذ بهجت مدير إدارتى يبحث عنى بشدة، هززت رأسى مستخفًا ومهونًا من لهجة التحذير الحماسى التى يحدثنى بها مسئول البوابه ولكن ما إن اقتربت من مكتبى حتى شاهدت الأستاذ بهجت يسير فى الطرقة فى اتجاهى وما أن وقع بصره عليَّ حتى اندفع نحوى وهو يقول لاهثًا:- أين أنت ؟!

لم ينتظر إجابتى وما كنت لأجيبه، اندفع مستطردًا:- إن رئيس مجلس الإدارة يطلبنا على وجه السرعة.

مستغربًا سألته:- يطلبنا معًا؟

أجابنى وهو لازال يلهث لفرط انفعاله:- نعم معًا.

رددت بينى وبين نفسى:- هذا أمر يحدث لأول مرة فمن المعتاد أن يطلبه هو كمدير للإدارة ولكن....

تنازعتنى الهواجس واختلطت الأفكار والتوقعات ما بين سيئة وسارة ووجدت نفسى أسير معه إلى مكتب رفعت بك، وقع بصرى على مدام خديجة ولمحت على وجهها انعكاس رؤيتها للتعبيرات المتجهة المرتسمة على وجهى ولمحت أيضًا تعمدها الإشاحه بوجهها بعيدًا عن نظراتى وهى تومئ للأستاذ بهجت ولى بالدخول إلى مكتب رفعت بك.

كان من المستحيل أن أخمن سبب الاستدعاء لذا سعدت بولوجه إلى الموضوع مباشرة:- تريد الشركة أن تقيم حفلاً لبعض عملائها ولشخصيات هامة بالمؤسسة وعليكما تدبير الأمر، لدينا استراحة قديمة كما تعلمان بميامى بالقرب من الشاطئ، الحفل سيقام بعد عشرة أيام، تصرفا طبقا للقوانين والقواعد وفى الوقت نفسه لكما صلاحيات فى استخدام عمال أو عاملات الشركة فى تنظيم الاستراحة وخدمة رواد الحفل.

لاحظت أنه عندما استخدم لفظ الصلاحيات اتجه ببصره فى الجهة التى أجلس بها وكنت أجلس فى المقعد المقابل للأستاذ بهجت أمام مكتب رفعت بك.

ها هو يكافئنى ينتقل بى خطوة، لم يجعلنى مديرًا لإدارة ربما رأى أن الوقت لم يحن بعد ولكنه جعل القيادة ثنائية، اخترق القواعد وكأنه يمهد للتعديل الجديد والذى لا يعنى إلا انفرادى بقيادة الإدارة.

بعد أن غادرنا مكتب رئيس مجلس الإدرة، مال الأستاذ بهجت على أذنى وهو يقول مهنئًا:- أعد نفسك للقيادة يا فتى.

ضحكت وأنا أقول:- أدامك الله لنا، باقى عامين كاملين قبل أن تغادرنا.

رد مصححاَ:- إلا أربعة أشهر على وجه الدقة.

قلت:- من يعلم ربما يأتينا بعدها بمدير جديد من أى إدارة أخرى وأنت تعلم أن هناك كثيرين يتلمظون عليها.

ضحك وهو يربت على كتفى:- ليس معك يا مدحت فأنت قد لفت الأنظار من الوهلة الأولى وسوف أطلب منك طلبًا بسيطًا أتمنى أن يسعدك بعد أن توافق عليه.

سألته مستفسرًا عنه فأجابنى:- سأعينك منذ الآن مدير غير رسمى للإدارة تولى أنت مهام الحفل بالكامل خدمة لى فأنا منشغل فى الفترة القادمة بالإعداد لعرس ابنتى.

أطرقت برأسى لحظة كأننى أفكر وقلت:- مبارك يا أستاذنا اعتمد على الله وعليَّ.

******

فى زيارتى التالية لصفوان المراغى ضابط أمن الدولة بارك عدم إخبارى رفعت دوريش بأن أمر رجوع حسن منصور إلى العمل صادر من المباحث العامة.

وفى الحقيقة إننى أصبحت منذ هذا الوقت أعد علاقتى بأمن الدولة من أهم أسرارى حتى أفوز بثمرة هذه العلاقة وحدى ولا يشاركنى فيها أحد حتى ولو كان رئيس مجلس الإدارة.

حظيت فى تلك الفترة بزيارات متعدده لمنزل حسن منصور، كأننى كنت أهرب من وحدتى ولم يكن يشغلنى عنه إلا مهام إعداد الحفل الذى تطلب منى جهدًا كبيرا، كذلك كنت آمل فى رؤية زوجته التى علمت أن اسمها نظيرة استحسنت الاسم، لم يكن أى اسم يليق ويناسب جمالها ودقتها وريفيتها وحنانها، من الصعب أن تجتمع كل هذه الصفات فى امرأة واحدة ولكنها اجتمعت فيها فلا بد أن تحظى بإسم لم تحظ به امرأة غيرها، وفى ظلمة الليل وعندما كان الفراش يضجر من كثرة تقلبى عليه كنت أصرخ هاتفًا:- أمن العدل أن يفوز حسن منصو وحده بمثل هذه المرأة؟!

لم أفز خلال كل هذه الزيارات إلا بنظرة أو نظرتين صريحتين إلى وجهها لذا قررت ان أؤجل زياراتى إلى ما بعد انتهاء الحفل حتى يحق لى تعجل إلغاء قرار وقف حسن منصور عن العمل.

كنت أعرف استراحة الشركة القديمة الواقعة فى زقاق ضيق عمودى على شارع الكورنيش أمام شاطئ أبو هيف، ذهبت لتفقدها صالة واسعة تسع لعد ضخم من المدعوين ولكن الأثاث قديم والمكان

كله متسخ لم يفتح منذ سنوات ربما منذ أن غادرها أصحاب المصنع الأصليين قبل التأميم.

عدت إلى الشركة، دلفت إلى صالات المصنع وبالتحديد صالة "اللازونة" وكنت أعرف أن هذه الصالة يعمل بها معظم الفتيات العاملات بالمصنع، سرت بين الماكنيات أتفقدهن، أطالع وجوههن أتأمل انفعالاتهن وردود أفعالهن حتى وقع اختيارى على شمس كانت أجملهن ولم يكن هذا فقط ما يميزها ولكن جرأة معينة فى ملامحها لا يمكن إنكارها أو تجاهلها بالإضافة إلى لمعة مميزة فى عينيها، طلبتها فى مكتبى غير مبالٍ بدهشتها أو دهشة ملاحظ العنبر ورئيس الوردية، قلت لها بعد أن دعوتها لاحتساء كوب من الشاى:- لقد اخترتك لمهمة خاصة بالشركة.

غمغمت:- خير.

- هو خير بإذن الله.

شرحت لها الأمر، عليها أن تختار ست بنات على الأقل وتذهب بهن إلى الاستراحة سيقمن بتنظيفها وإعدادها لاستقبال زائرين على مستوى عالٍ وبعدها ستختار بنات أخريات سيغيرن ثيابهن ويأخذن زينتهن وستكون على رأسهن للتخديم فى الحفل الذى قررت الشركة إقامته بعد بضعة أيام.

استمعت إلىَّ صامتة، سرنى عدم مقاطعتها لى وانتظارها أن يتضمن حديثى الإجابة على الأسئلة التى تدور برأسها، ولم تعلق فى

النهاية بكلمة سوى أنها أومأت برأسها وهى تقول:- تحت الأمر والطاعة سيادتك.

بعثت معها أحد الموظفين بالإدارة وشعرت بالسعادة لنجاحى فى اختيار الإنسانة المناسبة للقيام بالمهمة وهذا بالتحديد سوف يكون أفضل بكثير مما لو كنت قد اخترت بنفسى كل البنات المرشحات للمهمة فالأغلب إنهن سيختلفن ويتشاجرن ولا ينجزن ما هن مكلفات به.

****

زرت الاستراحة بعد يومين فوجدتها على خير ما تمنيت، قمن بتنظيف الجدران والسقف والأثاث، تلونت المفردات بألوان جديدة، استلزم الأمر شراء بعض قطع الأثاث وإصلاح التالف والمتعطل فى أجزاء معينة من الاستراحة التى كانت فيللا لصاحب المصنع القديم فقمت على الفور بإنجاز كل هذه الأعمال وبقى الجزء الثانى من المهمة فأعدت شرحه لشمس التى أخبرتنى إنها قد اختارت البنات بالفعل فصرفت لها المبالغ اللازمة لشراء الملابس المناسبة للتواجد للتخدم على الضيوف.

كنت أقدر إن نجاحى فى إقامة هذا الحفل سوف ينتقل بى خطوة كبرى للأمام لذا انقطعت عن زيارة حسن منصور، بل لم أعد أذهب إلى منزلى وقضيت الأيام الباقية فى الإشراف على إعداد كل شيء فى الحفل من مشروبات ومأكولات وملابس العاملات إلى آخر كل هذه التفاصيل وجلست أنتظر اليوم الموعود بشغف.

فى يوم الاحتفال ارتديت أبهى ثيابى وطلبت من الجميع بالإداررة أن يفعلوا مثلى، ارتدينا جميعًا البدل الكاملة رغم ليل أغسطس الحار وكنت فى مقدمة مستقبلى حامد الغزولى عضو مجلس الإدارة المنتدب، لمحت لطيفة بجواره انحنيت مسلمًا وسمحت لنفسى بتقبيل يدها، فاجأتها القبلة فلم تلامس شفتاى إلا أطراف أصابعها، وعندما انتبهت من المفاجأة رمتنى بنظرة امتنان، سنحت لى الفرصة لتأمل وجهها لأول مرة، المكياج الكثيف والملامح الغليظة ولكنى لا أستطيع أن أنكر إنها كانت أكثر أناقة من كل من فى الحفل، كذلك لا يستطيع أحد أن ينكر جمال شعرها الأسود الناعم المنسدل على كتفيها العاريين.

قررت فى تلك اللحظة أن أوليها اهتمامى الخاص، فعقب الانتهاء من استقبال الضيوف وعقب افتتاح البوفيه، توجهت إليها رمقتنى بابتسامة مشجعة فاقتربت منها هامسًا:- أنا فى خدمتك

قالت:- أعتذر إذ قلت لك إننى لم أتعرف عليك بعد.

قمت بتعريفها بنفسى فراحت تعرفنى بنفسها هى الأخرى فهى خريجه كلية الآداب قسم لغة فرنسية وتعتزم استكمال تعليمها بالسوربون بفرنسا، ووالدها يعارضها فى هذه الخطوة لأنه لا يطيق فراقها حيث إنها تعيش بمفردها معه بعد أن توفت أمها وهى صغيرة عقب ولادتها بعامين وفضل أبوها أن يسهر على تربيتها بدلاً من الزواج بأخرى قد لا تجد الراحة فى كنفها.

قر قرارى فى هذه اللحظة على الزواج من لطيفة، ها هى وبعد مرو دقائق قليلة من تعارفنا تسرد عليَّ قصة حياتها كاملة، ها هى تقدم لى نفسها.

عروس لا مثيل لها حيث إنها الوارثة الوحيدة لحامد بك الغزولى المرشح لأن يصبح رئيسًا للمؤسسة العامة للغزل والنسيج قبل إحالته إلى المعاش.

استأذنتها لإعداد طبق انتقيت فيه أفضل مأكولات الحفل وسارعت بتقديمه لها، انحنت ممتنة وأصرت على أن أشاركها فى التهام محتوياته فاعترضت جادًا حيث لا يصح لمنظم الحفل أن ينغمس فى المأكل والمشرب مثل بقية المدعوين وعندما رأت جديتى فى الرفض قامت بوضع الشوكة التى تحمل قطعة الجاتوه فى فمى، فوجئت بتصرفها وبسرعة تطلعت حولى لأرصد انعكاس فعلتها على وجوه المحيطين بنا، لحسن الحظ كانوا منشغلين بأنفسهم، فتناولت طرف الشوكه من يدها ورحت ألتهم قطعة الجاتوه وأنا أحذرها من عيون المحيطين بنا وسمعتها تقول:- دعك منهم ودعنا ننطلق إلى التراس.

خشيت فى هذه اللحظة أن يطغى انشغالى بها على عملى الأساسى فى حفظ النظام بالحفل ولكنها لم تدع لى فرصة للتفكير وشدتنى من ذراعى فى اتجاه التراس، بقدر ما أسعدنى إسقاطها كل حواجز الإتيكيت منذ الوهلة الأولى للقائنا بقدر ما خشيت أن تكون تصرفاتها التلقائية محل انتقادات الضيوف وخاصة رئيس مجلس الإدارة لن يجد من يصب عليه غضبه فى النهاية سواي.

وجدت التراس حافلا بالرواد هروبًا من حرارة طقس أغسطس ورغبه فى الفوز بنعيم نسيم بحر ميامى العليل، أدركت أن التراس ليس المكان الذى تبتغيه فواصلت جرى خلفها حتى أصبحنا فى حديقة الفيللا القديمة هنا كان ينعم الباشا صاحب المصنع المؤمم بالجلوس فى أرجاء هذه الحديقة التى امتدت إليها يد الإهمال سنوات طويلة مضت، هل كان الباشا صاحب الفيللا يتصور لحظة أن الذى سينعم بأملاكه بعد وفاته، ابن بائع الطعمية بشارع العمرى بكرموز مصطحبًا ابنة عضو بمجلس الإدارة المنتدب بالشركة التى كان يمتلكها، لا أحد يستطيع إنكار إن الشركة قد تضاعف حجمها خمس مرات على الأقل حتى أصبحت لا تمت بصله للشركة القديمة المحدودة بعدد عمالها وبإنتاجها وباهتماماتها.

حانت منى نظرة إلى رواد الحفل وأنا أمر عليهم مشدودًا فى ذراع لطيفة سرنى أنهم كانوا يستمتعون بأوقاتهم بدت شمس والبنات اللائى اختارتهن للخدمة كأجمل ما يكون لدرجة إننى لا أتصور إنهن نفس العاملات اللائى يهرعن إلى ماكينتهن فى السابعة صباحًا، أضافت الملابس والمكياج عليهن سحرًا غير متوقع فضلاً عن جمالهن الطبيعى واستعدادهن لأداء ما يوكل إليهن من أعمال.

توقفت بى فى ظل شجرة وارفة، منعت ظلال أوراقها وفروعها الضوء من التسلط علينا، همست فى أذنى:- أليس هنا أفضل.

غمغمت:- بالتأكيد ولكن عملى.

- دعك منه.

- عملى هو أن أكون فى وسط الحفل أشرف..........

قاطعتنى:- لا تكن سخيفًا.

بالفعل نبهتنى إلى سخفى فتوقفت عن الحديث، أخرجت علبة سجائر ذهبية، وأخرجت منها سيجارة وناولتنى أخرى فأخرجت قداحتى وأشعلت لها سيجارتها ثم أشعلت سيجارتى، نفثت دخان سيجارتها فى وجهى فتقبلته مرحبًا واعتبرته إيذانا بسقوط آخر جدران الكلفة بيننا... ضحكت سعيدة بينما رحت أعد فى ذهنى تفاصيل تقدمى لخطبتها.

نجح الحفل بأكثر مما توقعت أصبحت بعدها الرئيس الفعلى للإدارة، استقبلنى رفعت دوريش فى مكتبه مبتهجًا سألنى متعجبًا:- من أي المحلات أحضرت فتيات الخدمة، أخبرته أنهم من العاملات بقسم اللازونة وإنهن لم يكلفن الشركة أى أعباء زائدة.

فرك يديه سعيدًا وأخبرنى إن الشركة وقعت عددًا كبيرًا من الاتفاقيات الناجحة لتوريد الغزل لشركات القطاع الخاص، علمت فيما بعد من شمس أن الفتيات عقدن علاقات خاصة مع عدد من المسئولين بالمؤسسة الذين حضروا الحفل وإنها شخصيًا قد حظيت بأكثر من علاقة واستأذنتنى مستشيرة فى مسار هذه العلاقات فأمرتها أن تستمر العلاقات المعقودة على أن أكون على علم بأى تفاصيل على ألا تتعدى اللقاءات فى الأماكن العامة وتلقى الهدايا من المعجبين.

عقب لقائى بشمس رحت استرجع مفردات حديثى معها فأدركت أن الفتاة قد وقعت فى هواي وأنها تأمل فى عقد علاقة خاصة معى.

تذكرت أمى التى كانت تصفنى دائما بالفتى الجميل وكانت دائما تتباهى بوسامتى على صديقاتها وقريباتها، تلك الوسامة التى جعلت الكثير من الفتيات يتمنين عقد علاقة خاصة معى ولكنى فى أغلب الأحيان لم أكن أستجيب لهن حيث كنت أزن أى علاقة بميزان المصلحة المباشر وكنت فى الوقت نفسه أعلم أن ارتباطى بإحداهن سوف يحد إن لم يوقف محاولات الأخريات لعقد علاقة خاصة معى لذا كان عليَّ دائما أن أختار أفضلهن التى يمكن أن تثب بى وثبة واسعة إلى أعلى لتخرجنى من مصاف الفقراء والمعدمين إلى مصاف الأثرياء والقادرين ووقع اختيارى على لطيفة وتمنيت أن تكون أجمل مما هى عليه ولكن لأن مثل هذا الأمر لا يتحقق بالأمنيات أسلمت عنان نفسى لها ولبيت كل الدعوات التى وجهتها لى للقائها فى شواطئ الإسكندرية وملاهيها الليلية، سقطت الكلفة تمامًا بيننا حتى إنها كانت تتولى الإنفاق على كل لقاءاتنا دون اعتراض حقيقى منى أردفتها بسيل من الهدايا راحت تقدمه لى فى كل لقاء حتى إننى حلمت وآملت أن تهدينى عربة صغيرة فى يوم من الأيام.

فى زيارة لى للضابط صفوت المراغى ذكرنى أن حسن منصور لم يعد إلى عمله بعد فوعدته بالانتهاء من هذا الأمر فى خلال أيام وقدمت طلبا بذلك فى اليوم التالى لرئيس مجلس الإدارة فوافق على الفور بعد أن طالع الإلتماسات الثلاثة التى قدمها حسن منصور بإلغاء التحقيق والعودة إلى العمل.

ذهبت أزف إليه الخبر فانتفض واقفًا، أغرقت عيناه بالدموع، كان واضحًا أن الرجل يمر بعسر مالى ونفسى حقيقى، هجم عليَّ يحتضننى

ويقبلنى مرددًا عبارات الشكر والإمتنان، قدمت زوجته على هتافه، فأخبرها فرحًا بالنبأ، فمدت يدها مسلمة وأضاء وجهها بنور أبهجنى، أعترف إننى لم أر فى حياتى وجها جميلاً أجمل من وجهها فى هذه اللحظة.

فى المساء دعيت إلى حفل صغير بمنزلهما بمناسبة عودته إلى العمل حظيت بأحاديث متقطعة بيني وبين نظيرة كانت تدعو لى فيها بطول العمر وبالتوفقيق فى حياتى جزاء ما قمت به فى سبيل عودة حسن إلى العمل.

ومن جهتى كنت طوال جلستى أخالس النظر إلى وجهها متفحصًا تقاطيعه الجميلة وعندما كنت أسقط فى هوة عقد المقارنة بين جمالها من جهة وقبح لطيفة الغزولى من جهة أخرى كنت أندب حظى وأشعر بالغيرة والحسد يشتعلان فى صدرى من حسن منصور الذى حظى بنظيرة ولم أحظ أنا بغير لطيفة غير اللطيفة. ولكننى فى كل الأحيان كنت أعزى نفسى بأن هذه الزيجة ما هي إلا مجرد خطوة... خطوة واحدة للصعود، بعدها سوف أجد طريقة للتخلص منها للوثوب إلى الخطوة التالية.

****

فى منامى زارتنى هناء، كانت تتوسل لى أن أعود إلى كرموز، أجبتها برفق بأن هذا سوف يحدث قريبًا عندما أضع قدمى على أول درجات السلم التى سترفعنى إلى أعلى وعدتها أيضًا أن أدعوها لحفل خطبتى على لطيفة استيقظت مصدعًا، سرنى مقال طالعته فى جريدة

الصباح يتحدث عن التقدم غير المسبوق لشركتنا، لقد صاغ حسنى النجار نجاح شركتنا داخل مقاله بطريقة ذكية، بدا النجاح بمثابة مثال لنجاح القيادات الوطنية فى مصر كلها فى بناء القطاع العام.

فى الأيام التالية أصبح نجاح شركتنا حقيقة واقعة تحدثت عنها صحف أخرى، عرفت فيما بعد بأن هذا تم بإيعاز من حسنى النجار نفسه، حملت المقالات لرفعت درويش، سعد بها أيما سعادة، هنأنى على نجاحاتى وأمر بصرف مكافأة مجزية لى ولحسنى النجار.

برحيل أغسطس خفت حدة الصيف وبدأت حرارته فى الأفول مع نسمات سبتمير الرقيقة، أصرت لطيفة على قضاء كل الأيام معى، اصطحبتنى فى فيللا المعمورة، أصبحت من روادها، أهدتنى العربة الصغيرة التى تمنيتها دفعت لى مقدمها على سبيل الهدية وضعت على زجاجها الأمامى "بادج" بلاج المعمورة، تطلعت حولى فإذ بى وسط علية القوم، وعدتها أن أسدد اقساط العربة من مرتبى ومن مكافآت رفعت درويش، كما وعدتها أن يكون المقدم الذى دفعته مجرد قرض أسدده لها على دفعات عقب الانتهاء من تسديد الأقساط.

على البلاج الذى ضم أجمل فتيات ونساء مصر سرح بصرى يعبث بالصدور ويتحسس الخصور وينعم بتتبع منحنيات السيقان وعندما أفيق من تصوراتى أصحو على تقاطيع لطيفة الغليظة والوجه النحيل والأنف المستبد الذى يحتل دون استئذان معظم مساحة الوجه.... فأقوم بتقديم واجب العزاء لنفسى فأجاملها ببضع عبارات عابرة، وتلمس عدم صدقى وتخترق بعيونها رأسى وتتبع حدقات عينى

وهن يجلن فى أنحاء البلاج فتنهض واقفه تستعرض خصرها النحيل أمام بصري ولونه الخمرى الغامق المائل إلى السواد أكثر من ميله إلى أى لون آخر.

وعدتها أيضًا بالتقدم فى اليوم التالى لخطبتها، أخبرتنى إنها حدثت أباها عنى كثيرًا وإنه موافق مقدمًا وما عليَّ إلا التقدم وكان سبتمبر على وشك الرحيل وآملت أن أتخلص من زياراتى إلى المعمورة لنكتفى فقط فيما هو تالى من الأيام بالسهرات المسائية فى شاليمار بمحطة الرمل حيث أخبرتنى منذ الليلة الأولى لذهابى إليه إنها من عشاق الديسكو.

غادرت سكنى فى السابعة مساءً، مرتديًا أجمل ثيابى ومتعطرًا بكافة قارورات العطر التى أهدتنى بها لطيفة، مسحت من ذاكرتى كل الجميلات اللائى عرفتهن، زميلات الجامعة ومدام خديجة ونظيرة، يجب أن تبقى لطيفة ولا أحد غيرها بالذهن والخيال، يجب أن أشل ترددى وأستبعد السؤال الذى ما فتئ يتكرر مئات المرات، هل أقدم على خطوة الخطبة أم لا؟... سوف أقدم وها أنا أتقدم أغادر شارع أحمد أبو سليمان وأنحنى مع شارع الشركة العربية مستقلاً سيارتى خائضًا فى أنهار من المجارى تشتهر بها المنطقة التى لم يدخل بها الصرف الصحى بعد.. لا شك إن خطبتى ثم زواجى بلطيفة سيساعد على انتقالى إلى حي أرقى وربما إلى شقة شارع الإقبال نفسه، أفخم أحياء الإسكندرية، التى تقيم فيها مع أبيها.

المقاهى مكتظة بالرواد والجميع ملتف حول التلفاز أو المذياع، ثمة أمر غريب يحدث، كلا الجهازين المذياع والتلفاز لا يبث إلا القرآن الكريم، هى ليلة الإسراء والمعراج فلتكن ليله مباركة نتذكرها بعد ذلك بمزيج من الأسى أو بمزيج من الفرح طبقًا لمسار علاقتى بلطيفة.

وصلت إلى منزلها بعد بضعة دقائق، نفس التجمعات لم يخلو منها الشارع الراقى... لم يسارع البواب كعادته بفتح باب المصعد كان منكفئًا فوق أريكته موليًا وجهة للحائط، لم أوله اهتمام، خيل لى إنى أسمع نشيج بكاء أو تأوهات ألم، ولكنى لم أبال، الزمن القادم زمن لطيفة ولا يجب أن أفكر فى سواها، سوف أكف عن تلبية دعوات حسن منصور لزيارته، سأكف أيضًا عن التحديق فى وجه مدام خديجة الجميل ومد كفى لأ تحسس وجنتها المكتنزة كلما كانت غرفة السكرتارية خالية، سوف يتوقف كل هذا.

توقف المصعد أمام شقتها، ما إن وضعت إصبعى على الجرس حتى فتح الباب، واجهنى الوجه النحيل والعيون المكحولة والأنف القابع فى وسط الوجه المحتل معظم مساحته، يبدو أن دموعًا ما كانت تنحدر منذ لحظة فوق الوجنات الناحلة وجدت نفسى أسأل ونفسى تتأرجح ما بين الانقباض والانبساط:- ما الخبر؟

هتفت من بين نشيجها:- ألم تعلم مات عبد الناصر

للحظة قصيرة ومضت بدا عليَّ كأنى لم أستوعب ما سمعت، كنت لا أزال أقف فى الردهة والباب لا زال مفتوحًا رحت أردد دون وعي:- مات عبد الناصر كيف؟! كيف؟!

أجابتنى وهي تومئ لى بالدخول وتغلق باب الشقة.

- أذيع الخبر منذ دقائق معدودة.

قلت:- ولأجل هذا كان القرآن الذى يملأ الإذاعة والتلفزيون.

- بالضبط.

- أين أبوك.؟

- غادر المنزل فور سماعه للخبر، قال إنه يجب أن يكون فى مكتبه فى مثل هذا الوقت.

نهضت واقفًا، لم أشعر بالحزن بقدر ما سرت فرحة ما فى قلبى، هل أمات الله عبد الناصر فى هذا الوقت بالذات لكى لا تتم الخطبة اليوم؟ يجب أن انصرف فى الحال، اتجهت إلى الباب سمعت صوتها يهتف خلفى مستفسرًا ومستنكرًا، قلت كاذبًا مبررا تعجلى الانصراف يجب أن أكون أنا ايضًا فى مكتبى.

أعلم إنها لا تصدقنى ولكنى لم أدع لها فرصة للمعارضة أو حتى للتعقيب، لم أنتظر صعود المصعد انطلقت على سلالم العمارة حتى وصلت إلى عربتى، ألقيت بنفسى أمام عجلة القيادة وانطلقت بالعربة إلى شارع الكورنيش، رحت أقطعه فى اتجاه أبى قير. حانت منى نظرة الى أمواج البحر. بدت ساكنة حزينة كأنها تشارك الجميع مصاب الحدث الجلل.

فتحت نوافذ العربة الأربع، تمتعت بموجه عالية من النسيم فى حجم الريح البارد كنت أريد أن تشملنى وتغسلنى، لن أتزوج لطيفة حتى ولو عرض عليَّ رئاسة مؤسسة الغزل والنسيج نفسها، أحسست

أننى فى حاجة إلى لقاء أختى هناء أو نظيرة.. أود لقاء شخص نظيف أبثه آلامى أواسيه ويواسينى، أعزيه ويعزينى، مات عبد الناصر.

ولا بد أن أجد طريقة أتخلص بها من لطيفة.. قضيت الليلة فى عربتى قاطعًا الطريق مرتين ما بين رأس التين وأبى قير وأخيرًا عدت إلى منزلى شاعرًا بإنهاك وإرهاق لم أشعر بهما من قبل.

****

مضت ستة أشهر على المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى مبنى المباحث العامة مقدمًا أول تقرير لى عن حسن منصور والذى اتهمته فيه بتحريض العمال ضد النظام الحاكم، لم تكن تعليمات الضابط صفوان المراغى لى خلال هذه الفتره، تزيد عن ضرورة توثيق علاقتى بحسن منصور حتى إننى أصبحت أقدم تقريرًا مكتوبًا عن كل مقابلة لى مع حسن تضمنت الموضوعات التى تطرق إليها حديثنا وتقنياته وردود أفعاله تجاه القضايا التى يتناولها الحديث.

طلب منى الضابط صفوان أن أقدم تقارير عن العناصر المناوئة داخل المصنع، قلت مهوّنًا:- إنهم من القلة بحيث لا يعتد بهم.

حازمًا قال:- بل يعتد بهم فالقلة مع الزمن يمكن أن تصبح كثرة.

- ولكن. قاطعنى وهو لا زال على حزمه:- لا تنسى إن للرئيس الجديد أعداء.

قلت مؤكدًا:- الرئيس الجديد امتداد لسلفه العظيم.

- هناك من يرون غير ذلك وهذا فضلاً عن الشيوعيين الذى تضاعف نشاطهم بعد النكسة.

أطرقت ببصرى إلى الأرض أطالع نقوش السجادة التى تغطى الأرضية، فقام بإنهاء المقابلة.

ضاعفت من نشاطى داخل المصنع وأكثرت من الجلوس على مقهى الفردوس الواقع على ناصية شارع الشركة العربية فى التقائه مع شارع أحمد أبو سليمان رافقنى فى جلستى حسن منصور، بدأنا بلعب النرد وتبادل أحاديث السياسة العابرة وكانت أغلبها عن الرئيس الجديد واحتمال سلوكياته السياسية فى الفترة القادمة، وسرعان ما كنا ننحى النرد جانبًا لنتفرغ للحديث وبالتحديد أتفرغ لسماع ما يمكن أن يدلى به الجلوس وأحفظه فى ذاكرتى جيدًا وبمجرد أن أصل إلى منزلى أقوم بتفريغه فى تقارير أرفعها بشكل إسبوعى إلى صفوان المراغى.

أقبل شهر فبراير بأمال فى الدفء بعد أن عانت النفوس طويلاً من برودة الطقس فى ديسمبر ويناير، قدم الرئيس الجديد مبادرته السلمية لإسرائيل تعلقت به القلوب وقام بإلغاء وقف إطلاق النار فصرخت خديجة مولولة وهى تقول لى فى مكتبها: ستبدأ الحرب من جديد، متجاهلاً ولولتها التى صدرت منها عقب قراءتها الخبر بجريدة الأهرام سألت:- ماذا تعنين.؟

- أعنى عودة حرب الاستنزاف من جديد، الصمود والردع والتصدى ودائمًا لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

قلت ضاحكًا:- ألا يعنى ذلك خير بالنسبة لك.

ساخرة ردت:- لو كان هناك أمل فيك ولكنك هربت كما تهرب الفئران من النور.

نظرت إليها باسمًا ثم تلفت حولى لأ تأكد من خلو المكتب إلا منا رحت أداعب وجنتها برفق أزاحت أصابعى المتسللة من وجنتها إلى شفتيها وهى تقول:- إنك خائن لا أمان لك.

مستنكرًا هتفت:- أنا؟

مؤكده قالت:- نعم يوجد من شاهدك مع ابنة الغزولى.

- لا تصدقى كل ما تسمعينه.

- لا يسعنى إلا تصديق ما أسمع كى أستطيع تفسير ما أرى.

- إنى أعتذر.

- سنلتقى يوم الجمعة القادم.

موافقا قلت:- على رسلك أين؟

- شاطئ براديس.

- أفى هذا البرد؟!

- نعم فى هذا البرد.

أومأت برأسى موافقًا وقلت لنفسى:- أين ستذهب هذه المجنونة؟

واستطردت معزيًا:- على كل الأحوال فإن جمالها يغفر لها على عكس ابنة الغزولى التى لا يغفر لها إلا ثراؤها وأقساط العربة التى أجد نفسى فى حاجة إلى اقتراضها منها كل شهر كى أسددها.

أنقذتنى وفاة عبد الناصر فى يوم التقدم للخطبة وبعدها رحت أختلق الأعذار وآخرها كان التعلل بوضعى المالى إنى فى انتظار ترقية حتى أجرؤ على التقدم للخطبة، عادة ما كانت ترد غاضبه:- وهل

كانت أحوالك المالية جيدة عندما وعدتنى بالخطوبة من قبل وكنت على وشك إتمامها

وفى كل مرة كنت أرد:– كنت مدله فى عشقك.

تجيب:– والآن؟

أرد:– لازلت مدلها بعشقك ولكنى تنبهت إلى ما نحن مقدمون عليه، إنه زواج ومسئولية وليس مجرد عشق وإشباع نزوات، إن رجولتى تمنعنى من الانسياق وراء أهوائى، سوف أتقدم للزواج منك فى أقرب وقت عندما أكون جديرًا وكفئًا لك.

تضحك ساخرة فأشيح بوجهى منهيًا الحديث الذي عادة ما ينتهى بنفس الطريقة.

فى فراشى زارنى خيال مدام خديجة، وجدت نفسى أشتهى كل أجزاء جسدها بل أشتهى جنونها، ولكنه حب وعشق لا ينتهى إلى نتيجه، اكتشفت إن وسامتى التى كانت تفاخر بها أمى جيرانها نعمة لا تفيد فماذا يفيدنى عشق خديجة الضمرانى لى إذا كنت غير قادر على الزواج بها بل غير قادر على نسج علاقة جنسية معها.

إن علاقة الكازينوهات والشواطئ لا تفعل شيئا بى سوى إشعال الشهوه التى لا يوجد مجال لإطفائها، لأجل هذا قررت ألا أذهب إليها فى الموعد. وليكن ما يكون.

****

عقب إقالة على صبرى فى مطلع شهر مايو اجتمعنا فى مقهى الفردوس، كان الجميع يبحث عن تبرير الإقالة، لم يكن هناك

متعاطفون مع المقال أو مؤيدون للمقيل، قال أبو عيشة وهو شاب فى نحو الخامسة والعشرين نحيل قصير القامة بشكل ملفت:- توجد اضطرابات فى النظام البرجوازى.

كان الشاب مولعًا بنطق الألفاظ الغربية متباهيًا بأنه سياسى عتيد قد تم تربيته على أيدى والده الشيوعى القديم الذى قضى أكثر من نصف حياته فى السجون والمعتقلات، وكان دليله الوحيد على ثقافته الواسعة استخدامه كلمات من نوع البرجوازية والرأسمالية والبروليتاريا والطبقة الوسطى إلى ما غير ذلك من ألفاظ.

تباينت مشاعرى تجاه المحيطين بى لا أستطيع أن أقول إننى أحب أحدًا منهم فكل منهم منشغل بما لا يعينه ففى الوقت الذى يجب أن ينتبهوا إلى أنفسهم وإلى قضاء أوقات فراغهم فى أعمال مفيدة تزيد من دخولهم نجدهم يعتصمون بالفردوس وبالثرثرات التى لا طائل من ورائها.. كنت أغير من حسن منصور ربما بسبب فوزه بزوجة فى جمال نظيرة وتمتعه بدفء عائلى مثل الذى لمسته فى منزله أكثر من مرة فى زياراتى المتعددة له.

أما أبو عيشة فقد كنت أشعر بكراهية شديدة له بل فى تقديرى لا يستطيع أحدٌ أيا كان أن يحمل له غير ما أحمل له من مشاعر ففضلاً عن غروره وتباهيه بنفسه فإنه جاهل بكل أمور السياسية والحياة، بل عندما تتبعته فى عمله لم أجد فيه غير "كداب زفة"، أودعت تقاريرى كل أرائى فيه بل اقترحت أن يعاقب بطريقة ما، ولكن صفوان المراغى لم يعر اقتراحاتى وأرائى اهتمامًا.

فى مطلع يونيو ولم يكن قد مر على انقلاب مايو سوى إسبوعين فاجأنى صفوان المراغى قائلاً:- آن الأوان أن تكوّن تنظيمًا سريًا.

مرت لحظات لم أعِ فيها ما سمعت قلت:- ماذا تقصد سيادتك رد موضحًا:- تنظيم لقلب نظام الحكم.

حذرًا عقبت:- لا أصدق ما أسمع.

مؤكدًا:- بل صدق.

راجيا قلت:- من فضلك زدنى إيضاحًا.

بلهجته المحايدة استطرد:- سيضم التنظيم المنشود كل الذين يناوئون نظامنا الاشتراكى فى مصنعكم والمصانع المجاورة.

تذكرت إن تقاريرى عن مرتادى الفردوس كانت تضم أسماء عمال وموظفين يعملون فى مصانع المنطقة. بدأت أفهم ما يرمى إليه سالت:- وماذا بعد؟

- فى البداية لن يطلب منك أكثر مما يطلب الآن؟
- إذن ما الداعى للتنظيم.؟

محتدًّا أجابنى:- يجب أن يكونوا تحت أنظارنا صفحات مفتوحة والفردوس ليس المكان الذى يدلى فيه الشخص بكل أفكاره.. إن تكوين التنظيم هدف يعتد به فى كل الأحوال.

غصت فى لجة عميقة من الأفكار فسمح لى بالانصراف وتذكرت آخر مشاجرة نشبت بينى وبين أبى قبيل مغادرتى منزل كرموز بأيام، صرخ فى وجهى ثم بصق وهو يقول ساخطًا

- أنت نذل.

بدأت فترة إعدادى لكى أكون زعيمًا للتنظيم المفترض إقامته فى منطقة المصانع بشرق الإسكندرية، تلقيت محاضرات فى السياسة والتاريخ والفلسفة وفى الماركسية بشكل خاص، عرفت فيها تاريخ الأحزاب الشيوعية والثورات البرجوازية، درس لى عددًا من الكتب كان على رأسها كتاب أنجلز عن أصل العائلة والملكية الخاصة وكتاب موجز تاريخ المجتمعات قبل الرأسمالية وكتاب تاريخ الحركة الوطنية المصرية وكتاب ما العمل وغيرها من الكتب فى مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة.

كان الهدف من هذه المحاضرات هو إكسابى لغة سياسية أكون بها قادرًا على إقناع الآخرين بعمق أفكارى ونبل أهدافى، لذا تعلمت فى تلك الفترة أن أختار الألفاظ التى تحمل دلالات كبيرة ترفع من شأنى وشأن الهدف الذى نسعى إليه.

كنت أفكر فى الفترة الأخيرة فى الأجر الذى يجب أن أتقاضاه مقابل التقارير التى أقدمها للمباحث العامة، إذ إننى علمت أن هناك مرتبات ثابتة تخصص للذين يعملون معهم، كنت أنوى مفاتحة صفوان المراغى فى الأمر وبعد أن طرح عليَّ أمر تكوين تنظيم سرى حمدت الله إننى لم أقدم على هذه الخطوة، فلو فعلت هذا لكان أجرى بضعة جنيهات لا تغنى ولا تسمن من جوع ولأصبحت مثل عشرات الجواسيس الذين يعملون معهم، يجب عليَّ الآن أن أؤجل حصولى على ثمن خدماتى حتى أنتهى من المهمة التى كلفت بها، ووقتها لن

أكتفى ببضعه جنيهات، بل لن أطلب نقودًا على الإطلاق، يجب أن تكون مكافأتى منصبًا، منصبًا كبيرًا، منذ هذه اللحظة ستكون عينى على أول منصب يخلو بالشركة أو بالمؤسسة أو حتى شركة قريبة.

وبدأت من فورى العمل مع حسن منصور فتعمدت مقابلته على انفراد بعيدًا عن الفرودس، تعمدت مضاعفة جرعة نقمتى على النظام الحاكم فى القضايا المختلفة.

كان يستمع إليَّ صامتًا مما كان يثير ريبتى، ربما لأننى فى جلساتى السابقة كنت أستمع أكثر مما أتحدث، رحت أدس كلمات الأدب الماركسى فى حديثى، حدثته باستفاضة عن النظام المصرى الذى فقد مصداقيته منذ هزيمه يونيو سبعة وستين إلى أن اعترف لى يومًا عقب خطبه حارة ألقيتها على مسامعه وكنت بدورى قد تلقيتها من أحد ضباط أمن الدولة، اعترف بأنه قد حصل على أوراق ومستندات تثبت بعض السرقات بالشركة وأنه ذهب بهذه الأوراق إلى أحد الصحفيين بهدف نشرها فى جريدته ولكنه لم يتمكن من ذلك، بعث اعترافه إطمئنانًا فى قلبى، الرجل يفكر فيما يسمع ويتأثر به ويقص عليَّ قصته ليقترب منى.. لست وحدى الذى توصلت إلى هذه النتائج هو أيضًا سبقنى إلى التفكير فى هذا بل وأقدم على الفعل، إن الرجل يثق بى وها هو يعترف لى ببعض من ماضيه الثورى.

بالطبع أبديت دهشى لجرأته وشجاعته وإن كنت قد أنهيت عباراتى فى هذا المضمار بقولى:- لعلهم رشوا الصحفى أو هددوه فامتنع عن النشر.

قال:- إنى أشك أن وقفى عن العمل كان يهدف إلى معاقبتى على جرأتى.

قلت لائمًا:- ها أنت ترى إنك رغم شجاعتك وإقدامك قد سلكت الطريق الخطأ.

مستفهمًا سأل:-كيف؟

- إن الصحفى لم ينشر أوراقك لسبب ما ربما الخوف أو الإرتشاء، وفى كل الأحوال كدت أن تدفع الثمن وحدك دون أن تجنى ثمرة إيجابية واحدة.

عبرت ملامحه عن تعبيرات الانتباه والاكتشاف المفاجئ، سأل مندهشًا:- ماذا تقصد بالثمرة الإيجابية؟

بحزم أجبته:- بالتأكيد كان عملك دون ثمرة إيجابية فحتى لو نشرت كل المستندات والأوراق التى استطعت الحصول عليها فمن الممكن أن تفند أمام النيابة الإدارية وأمام النيابة العامة فهل تتصور أنهم يمكن أن ينصروك على رئيس مجلس الإدارة الذى يختار بمعرفة الوزير شخصيًا؟

بدا على حسن منصور فى هذه اللحظة إمارات الاندهاش، بدا عليه إنه يكتشف فىَّ رجلا غير الرجل وصديقًا غير الصديق لست مجرد شخص ساعده فى مشكلة ما ألمت به، لقد اكتشف كادرًا سياسيًا أكثر فهمًا لأوضاع السلطة الحاكمة وللعالم من حوله... بدا فى هذه اللحظة كتلميذ يتلقى تعليمه من أستاذه.

وعندما أوردت تفاصيل هذا اللقاء مع حسن منصور فى تقريرى إلى المباحث العامة رفع صفوان المراغى رأسه عما كان يطالعه وقال لى:- سيكون حسن منصور هو زعيم التنظيم بشرق الإسكندرية. سألت:- وأنا.

- أنت الصلة بين تنظيم شرق الإسكندرية والتنظيم الأم بالقاهرة.

وفى المساء عندما انفردت بنفسى بين الجدران الأربعة، رحت أراجع عبارات صفوان المراغى الذى كان يحاضرنى بها حول أهمية تكوين تنظيم سرى.

- ليس هناك طريقة للسيطرة على الأمور التى من المحتمل أن تتفجر فى أى لحظة أكثر إحكامًا من إنشاء تنظيم سرى يساري يجمع المناوئين للنظام فى المنطقة كلها.

طرأت على ذهنى كلماته عندما بدت على وجهى أمارات الدهشة لاختياره حسن منصور زعيمًا للتنظيم قال متسائلاً:- وهل تظننى طلبت منك أن تعيده إلى عمله وطلبت منك مصادقته ورفع تقارير عنه لأمر غير هذا؟ لقد فعلنا ما فعلناه معه انتظارا لهذا اليوم.

رددت بعدها بينى وبين نفسى:- هو فعلاً أنسب من يصلح لهذه المهمة.

كعادتى فى الفترة الأخيرة ضربت موعدًا مع حسن بعد مواعيد العمل فى مكان ناءٍ بالقرب من شاطئ برادايس ذكرنى بلقاءاتى مع

مدام خديجة التى أصبحت تشيح بوجهها بعيدًا كلما أوشكت نظراتنا أن تتلاقى.

جلس أمامى كما يجلس الطالب أمام أستاذه، رحت أتجاذب معه أطراف الحديث قلت:- وماذا بعد؟

سألنى ماذا تقصد؟

- أقصد ماذا بعد لقاءاتنا السرية وتحديدنا لوضع النظام ووضع الطبقة العاملة.؟

- لا أفهم ما ترمى إليه.

- إنك يا حسن رجل طيب ولا تعرف ماذا يعنى نظام الحكم، إنك تثق فى الآخرين أكثر من اللازم.

صمت لحظة ثم استطردت:- إن الأمر يا زميل أكبر مما تتصور، إن البلد يغلى، هل تتصور ما يمكن أن يعنيه هذا ؟ إنه لا يعنى إلا إن انفجارًا يمكن أن يقع فى أى لحظة.

تساءل شاعرًا بالعجز:- ماذا تعنى؟ لا أفهم.

- أعنى مظاهرات واعتصامات كما يحدث فى البلاد الديمقراطية.

- لو حدث هذا فى بلادنا فسوف يكون بالتأكيد أمرًا عظيماً.

قاطعته بحدة:- ليس عظيمًا على الإطلاق لأن هذا سوف يزيد من قبضة النظام على الجماهير وخاصة طبقة العمال، سوف تصبح السلطة الحاكمة أكثر شراسة وعنفًا فى تعاملها معنا وفى النهاية ستعود الجماهير إلى منازلها وسيدفع أبرزهم من أمثالك الثمن غاليًا.

هتف سائلاً:- هل يمكن أن تجرى الأمور بهذا الشكل؟!

- نعم فهذه هى النهاية المنطقية لما يحدث، ستبذل أنت وأمثالك جهودًا عظيمة بلا ثمرة إيجابية وذلك بسبب أن الهدف فى الأساس تافه وبخس.

حائرًا:- وما العمل إذن؟

أجبته بإصرار:- تنظيم سرى يهدف إلى قلب نظام الحكم. ويكون جاهزًا للحكم عندما تتفجر الأمور

تحجرت ملامحه لحظات، بدا كأنه غير مصدق أو غير فاهم لكلماتى.

استطردت موضحًا:- التنظيم هو الحل فالجماهير عندما تثور وتخرج إلى الشارع فى حاجة إلى قيادة لتحقق لها هدف الاستيلاء على مقاليد الحكم وافتقادها للقيادة المنظمة يجعل كل جهودها وتضحياتها بلا معنى أو ثمن.

كأنه انتبه فجأه إلى ما يسمعه قال:- تقصد نقوم بتكوين تنظيم.

- ليس بالضبط لأن التنظيم موجود بالفعل، إن الفكرة لم تولد اليوم يا زميل، إن البلاد حبلى بالثورة.

سأل مندهشًا:- هل يوجد تنظيم بالفعل؟

مؤكدًا أجبته:- نعم تنظيم ممتدة خلاياه بطول البلاد وعرضها عدا شرق الإسكندرية وذلك نتيجة ظروف تاريخية خاصة بهذا المكان وطبيعة المنطقة.

عاد يسأل:- ما هى مهمة التظيم؟

أجبته:- يقوم بتنظيم صفوفه أولاً وصفوف الجماهير ثانيًا انتظارًا للحظة الثورة فالثورة كما تعلم ليست أمرًا سهلاً أو هينًا.

كنت أعرف إنه لا يعلم ماذا تعنى الثورة ومع ذلك أسمعته عبارتى الأخير وقد تأكد ظنى عندما سمعته يتساءل:- ثورة مثل ثورة جمال عبد الناصر؟!

ضحكت مستخفا:- ثورة عبد الناصر يا زميل ليست ثورة فالثورة لا تسمع بنبأ قيامها فى الإذاعة، الثورة تقوم بها الجماهير فى الشوارع والحوارى والمزارع.

نجحت عباراتى فى إلهاب حماسه فرأيت الدماء تحتقن فى وجهه وتميل سمرته إلى دكنة قدح القهوة وذلك لفرط انفعاله، كان يظن فى نفسه الفهم والثقافة فاكتشف إن الإنسان الذى يعيش بجواره منذ زمن يتجاوزه بمراحل، عاجلته بقولى:- لقد أوكل التنظيم إليك مهمة تكوين خلاياه فى صفوف العمال فى مصانع شرق الإسكندرية.

مرة أخرى بدا كأنه لم يفهم ما تفوهت به فظل صامتا لحظات ثم هتف فجأه متسائلاً:- أنا؟!

مؤكدًا أجبته:- نعم أنت.

عاد يسأل:- وحدى.

- بالطبع لا، فالتنظيم بكامله يقف وراءك بكوادره وأعضائه وكتاباته وخبرته التاريخية.

وجدت أن عليًّ فى اللحظات التالية أن أهدئ من روعه، فقد عبرت ملامحه عن انفعال شديد.

ضحكت مخففا من وقع اللحظة عليه فبدا عليه الانشغال الشديد، قلت:- هل تعلم أن الصحفى الذى عهدت له بأوراقك قد حملها إلى مباحث أمن الدولة غمغم مضطربًا:- تقصد هذا الصحفى؟ لماذا فعل هذاّ؟!

- ألم تشكك بشكواك فى قيادات القطاع العام؟ ألا يضر هذا بأمن الدولة؟

متلهفًا سأل:- وماذا حدث؟

- لا شيء لقد نجحنا وإن كان بصعوبة شديدة فى أن ننقذك أنت وزوجتك من الاعتقال.

- استطعتم انقاذى.... من تقصد؟

- نحن التنظيم يا زميل....

- أي تنظيم؟!

- هذا الذى أصبحت عضوًا فيه منذ لحظات إنه يتتبعك ويحميك منذ شهور طويلة.

- لا أفهم.

- إن لنا زملاء بأمن الدولة نجحوا فى أن يدفعوا الأذى عنك وعن أسرتك.

مستغربًا ردد: - زملاء بأمن الدولة.

متباهيًا أجبته:- وفى كل الأماكن الهامة بمصر.

لمعت عيون الرجل بنظرة ذات معنى وخيل لى إننى ألمح أفكاره وهى تشتعل داخل رأسه، قلت ملقيًا بآخر ما فى جعبتى فى هذا اللقاء:- هل تعلم أن التنظيم هو الذى طلب منى أن أتدخل لإعادتك إلى العمل.

انتفض فجأة وضرب جبهته براحة يده وهو يقول:- صدقت فقد كنت أتساءل دائما عن سر صداقتك الفجائية لى.

- إنها أوامر التنظيم بمد يد العون إلى كل الشرفاء وقد قمت بتنفيذ التعليمات بعد أن نبهونى إلى ملامح عظيمة فى شخصينك.

لم يعر اهتماما لألفاظ التمجيد التى دسستها فى حديثى، سألنى فجأة - كيف عرفوا ما عرفوا عنى؟!

- هذا بالتحديد ما أجهله إن لهم أعضاء وعيونًا فى كل مكان ولا شك إن حصولك على الأوراق وتقديمها للجرائد قد لفت الأنظار إليك.

افترقنا فى أبى قير ليعود كل منا إلى منزله من طريق مختلف عن الآخر وأفهمته أن هذا سوف يكون سلوكنا فيما هو مقبل من الأيام، وقبل أن أهرع إلى فراشى تذكرت تلقيب زملائى بالمدرسة الثانوى لى بلقب الثعلب ولم أعرف وقتها معنى أن يلقبوننى بمثل هذا اللقب، هل لقبونى به من باب المدح أو الذم؟

عندمت التقيت بالضابط صفوان فى اليوم التالى ونقلت له تفاصيل لقائى بحسن منصور هنأنى بشدة وعقب:- إنك قد نجحت فى اجتياز أول وأهم حلقة فى العلاقة مع حسن منصور.

بدأنا العمل على الفور، قمت مع حسن منصور باستعراض كل مرتادى الفردوس وكل عمال وموظفى شركتنا لنختار من بينهم الزملاء الجدد، سطع أسم أبو عيشة كأول المرشحين للانضمام إلى التنظيم أو بالأحرى لتأسيسه فى المنطقة ومن المفروض أن شخصية متخلفة مغرورة متملقة مثل أبو عيشة أحرى بأن تنال رضائى لأن عيوبه المفضوحة تسهل لى قيادته والسيطرة عليه ولكنه كان من السوء بحيث كنت أشعر بنفور شديد تجاهه ورفضت بشدة ترشيحه للانضمام للتنظيم وعرضت الأمر على صفوان المراغى متصورًا أنه سيؤيدنى ورحت أعدد له الصفات القبيحة لهذا الشخص فإذ بى أكتشف إنه يعرفه مثل ما أعرفه وربما أكثر، دفع هذا بالسرور إلى نفسى وتصورت إننى قد وفقت فيما هدفت إليه من حديثى مع صفوان بك وإذ بضابط أمن الدولة يختم حديثه معى بأمر واضح:- جند أبو عيشة فورًا.

أبديت دهشتى واستنكارى ورحت أردد صائحًا:- إنه مجرد أراجوز، إن وجوده كفيل بأن ينفر الكثيرين من الدخول إلى الحزب.

لفرط انفعالى ارتفع صوتى فإذ بى أفاجأ بضابط بأمن الدولة ينهض واقفًا ويشهر إصبعه فى وجهى حتى كاد يلامسه وهو يقول محتدًا- إنك لم تدرك بعد الهدف من هذا التنظيم نسيت هدفنا وتصورت إنك تقيم تنظيمًا حقيقيًا تتمنى له النجاح.

أدركت مدى خطئى، إن وجود أبو عيشة سينفر كل الشرفاء والجادين للمشاركة فى العمل السياسى والقيام بدور المعارضة إن هذا سيجعلهم أغلب الظن يفقدون الثقة بالحكومة والمعارضة معًا فينفروا من العمل السياسى برمته وهذا هو المطلوب بالتحديد قلت لنفسى وأنا أغادر مبنى أمن الدولة:- إنها العبقرية عندما تتجسد فى فعل حقيقى.

أصدرت توجيهاتى لحسن منصور بتجنيد أبو عيشة وقبل أن يمضى شهران كنا قد كونا ثلاث خلايا ضمت خمسة عشر زميلا ما بين عامل وموظف من عمال وموظفى مصانع شرق الإسكندرية، كان من بين الزملاء ثلاثة ممن يعملون مع مباحث أمن الدولة المعينين بالمصانع، قام أبو عيشة بتجنيدهم، وضعنا رجل فى كل خلية من الخلايا الثلاث ليقوم بتسجيل كل ما يدور فى الاجتماعات واللقاءات المختلفة.

أدركت فى هذا الوقت فقط لماذا أصر الضابط صفوان على أن يكون أبو عيشة أول المجندين وكما شرح لى فيما بعد:- تتملك أبو عيشة رغبة جنونية فى التباهى والمفاخرة أيا كان شكل هذا التباهى ومهما كان الثمن ليثبت كفاءته وأحقيته بزعامة التنظيم وليس مجرد عضويته وفى هذا الوقت بالذات نلقى برجالنا فى طريقه ليرددوا ما يجب أن يسمعه فيقوم بتجنيدهم الواحد تلو الآخر.

مجددًا اعترفت لرجل أمن الدولة بتفوقه الذهنى، استطرد صفوان بك يومها قائلاً:- إن هذا أفضل بكثير من أن ندسهم نحن على الخلايا من أعلى ليتجسسوا عليها أو حتى ليكونوا أعضاء بها.

يومها قلت معقبًا:- وفى الوقت نفسه قمنا بإسعاد أبو عيشة عندما لبينا له رغبته فى التفاخر والتباهى.

****

خريف عام اثنين وسبعين، خرج الأستاذ بهجت على المعاش وأصبحت مديرًا رسميًا لإدارة العلاقات العامة فقد كنت طيلة الفترة السابقة كلها مديرًا فعليًا للإدارة بل إننى كنت أحصل على مكافأة وبدلات لجان أكثر بكثير من مديرها الرسمى ورغم ارتفاع دخلى إلا أن نفقاتى أيضًا زادت وأصبحت فى كثير من الأحيان فى حاجة إلى قرض لا يرد من لطيفة لأكمل قسط العربة الشهرى.

حملتنا عربتنا البويك وسط صفوف أشجار الصفصاف المؤدية إلى قصر المنترة، تركت عربتى فى ميدان فكتوريا قرب منزل لطيفة ورافقتها قائدًا لعربتها كما تعودنا دائما.

تطايرت خصلات شعرها الأسود بفعل دفقات الهواء المندفعة من نافذة العربة فخفف جمال الشعر من أثر قبح التقاطيع، مالت على أذنى تهمس بكلمات عابثة وخارجة، أزالت لطيفه الكلفة بيننا، كانت تسمح لنفسها بالحديث معى باستفاضة عن أحلامها الجنسية، كان يستهويها أن ألمح ذل الحرمان الجنسى فى عينيها، كيف خلقت ابنة حامد الغزولى ونشأت وأصبحت بهذه الشخصية لا يمنعها من التجرد من ملابسها وسط الطريق إلا جبنها، لو وجدت منى تشجيعًا أو مجرد موافقه لنفذته على الفور داخل العربة، متلهفة عليَّ وبالتحديد متلهفة على جسد أى رجل، أتاح لها اقتحامها لشخصيتى فرصة التجرد

فكانت تتحدث معى فى أمور لا أظن أن امرأة حتى ولو كانت عاهرة يمكن أن تتحدث مع رجل فيها ولعل هذا ما وثّق العلاقة بيننا وما جعلها أيضًا تحتمل تهربى منها، لقد مضى عامان كاملان على تلك الليلة التى كنت على وشك أن أخطبها فيها من أبيها، عامان من التهرب بحجج متنوعة وهى راضية صابرة لأنها أدركت إنها بعد ما تجردت أمامى بهذا الشكل لا يمكن أن تسمح لى أن أذهب وأتركها حاملاً كل اعترافاتها التى لا تعترف بها حتى لنفسها.

توقفت بالعربة أمام قصر المنتزة متعللاً بالتقاط أنفاسى وفى الحقيقة راق لى أن أتأملها مقارنًا بينها وبين نظيرة ولا أعرف لماذا تذكرت تلك الأخيرة فى هذا الوقت، أغلب الظن إنه الشعور بالغيرة الذى يتملكنى من حسن منصور والمقارنة الدائمة بين حظه وحظى، التقاطيع البنية الداكنة والشفاه النحيلة والملابس الأنيقة والخصلات المتطايرة والعربة البويك والشهوة المتدفقة أما الأخرى فالقد الممشوق المائل إلى الامتلاء والبشرة البيضاء المشربة بحمرة دامية والتقاطيع الدقيقة والنظرة الدافئة والشفاه التى رسمت بدقة تشهد فى كل اللحظات بجلال الخالق والحديث المحتشم المحتشد بالدعوات وبذكر اسم الله ورسوله والجلبات البسيط الذى ترتديه يحملنى إلى كرموز وإلى سنوات طويلة مضت، بساطة أمى ونظافتها الدائمة ودفء زمن ولى وتتدفق الدماء ساخنة فى عروقى وأجد نفسى أجلس متهالكًا على أحد مقاعد كازينو كليوباترا داخل الحديقة الغناء بعد أن نبهتنى لطيفة إلى وقوفى المفاجئ أمام باب القصر فأكملت طريقى إلى الداخل غافلاً عما يدور حولى هائمًا فى رائحة الماضى البعيد.

سعى إلينا النادل بزجاجات البيرة المكسوة ببخار الثلج الأبيض، رص أطباق الشواء، فانكفأت عليها بينما انفردت هى بأكواب البيرة تتجرعها الواحدة تلو الأخرى حتى أتت على معظم الزجات التى وضعها النادل أمامنا ثم رفعت بصرها إلى وسحبت عدة أنفاس من سيجارتها وقالت متسائلة:- وماذا بعد؟

متجاهلاً مقصدها سألت بدوى:- بعد ماذا؟

- متى تتازل وتأتى لتقابل أبى.

- أعتقد أن أبيك نفسه لا يمكن أن يوافق على هذا فأنا أعلم جيدًا إنه مشغول هذه الأيام بمسئوليه عمله فى أمانه الاتحاد الاشتراكى.

هتفت غاضبة بعد أن دفنت سيجارتها فى المطفأة النحاسية التى تزين المائدة — خير لنا أن نفكر فى أنفسنا.

قلت محاولاً تهدئتها:- إن البلد يعيش لحظة سياسية متوهجة، صاحت فى وجهى معترضة فبدت وهى تكشر عن أنياب قبيحه أكثر من أى وقت مضى:- مالنا ومال السياسة؟

برجاء توسلت:- هل أطمح فى أن نؤجل التفكير فى أنفسنا ولو بضعة أشهر.

- إنك تتهرب.

قبضت على كتفها وذرفت عينى الدموع وقلت:- أقسم لك

نجحت بطريقة نطقى لعبارتى الأخيرة فى رسم تعبيرات التأثر على ملامحى وانحنيت على كفيها أقبلهما فانحنت بدورها على كفى ورفعتها إلى شفتيها وراحت تغمرها بالقبلات الحارة وقالت معتذرة:

- بإمكان أبى أن يساعدك فى أية مشاكل تمر بها.

بصوت حازم لا يخلو من رنة الغضب أجبتها:- قلت لك مرارًا إننى لا يمكن أن أسمح لنفسى بالاستعانة بوالدك فى أي أمر من أمور حياتى.

بدأ التأثر الشديد على ملامحها حتى أن عينيها اغرورقت بالدموع وقالت مستسلمة:- يكفينى الآن حبك أما أمر الزواج فلك أن تحدده كما تشاء ووفقًا لظروفك.

عقبت بدورى معتذرًا:- إننى لا أطمع إلا فى بضعة شهور بعدها يمكن أن تكون الخطبة والزواج والزفاف فى يوم واحد لو شئتى.

جاء النادل بطاقم جديد من زجاجات البيرة وأطباق الشواء فعادت للانكفاء على الزجاجات بينما تفرغت أنا لأطباق الشواء مع كوب واحد من البيرة المثلجة لم أشرب سواه طوال الجلسة.

بالكاد صحبتها إلى العربة وتوليت قيادتها حتى منزلها بشارع الإقبال وهناك بذلت جهدًا مضاعفًا كى أستطيع أن أحصل منها على درجة من الإفاقة تجعلها قادرة على مغادرة العربة والصعود إلى شقتها وسارعت بركوب عربتى والتوجه إلى مبنى أمن الدولة لتلبية موعد مسبق مع صفوان المراغى

****

كان العام الدراسى قد بدأ بالجامعة منذ أسابيع فراح ضابط أمن الدولة يحدثنى عن النشاط الطلابى بالجامعة وخاصة كلية الهندسة، لقد تجاوز النشاط كل الحدود، فقد تحول من مجرد مجلات حائط وحلقات نقاش إلى مؤتمر طلابى رددت فيه شعارات عديدة معادية للنظام.

جلست أمامه صامتًا، كان مشهد لطيفة وهى تبكى لازال معلقًا بخيالى، والضابط يقول مستطردًا:- إن صلابة هؤلاء الصغار تثير الدهشة والانتباه فى آنٍ واحد ويساورنا شك فى أن هناك تنظيم يقف وراء الأحداث.

لم أكن حتى هذه الفترة منشغلا بما يدور على الساحة السياسية من أحداث وكل ما فى الأمر إننى كنت أحفظ المحاضرات التى أتلقاها من ضابط أمن الدولة وأقوم بإعادة إلقائها على مسامع حسن منصور أو بعض أعضاء التنظيم الذى يسمح لى صفوان المراغى بمقابلتهم.

فقد كنت موزع الفكر والخاطر بين عملى مع التنظيم وبين لقاءاتى مع لطيفة وتفكيرى الذى لا ينقطع فى نظيرة. جسدى الذى يثور علىَّ كلما وقع بصرى على مدام خديجة وهى جالسة أمام مكتبها كتلة ثمينة من اللحم الأبيض وأسترجع لحظات تدليكى لجسدها البض بالكريم وهى مستلقية بثياب البحر شبه عارية تحت بصرى على شاطئ براديس بأبى قير.

انتبهت على صوت الضابط وكان لازال مستطردًا فى إلقاء خطبته على مسامعى وجدت نفسى أسأله بعد أن شعرت إنه قد أفرغ كل ما يريد إفراغه من حديث:- ما العمل سيادتك؟

بدا كأنه ينتظر سؤالى فأجاب:- نريد أن يمتد تنظيمنا إلى داخل صفوف الطلبة.

فوجئت بإجابته، فعقبت كأننى أنبهه إلى مالا ينتبه إليه:- على وجه التقريب لا يوجد أحد فى منطقتنا من طلبة الجامعة الذى يعملون بالسياسة، ولكن بإمكاننا أن ندفع بأحدهم ليعمل بالسياسة ويصبح من زعماء الطلبة.

ضحك صفوان المراغى وكان نادرًا ما يفعل، ثم قال موضحًا:- إن الطلبة يختلفون كثيرًا عن العمال فلا يوجد بينهم أو على الأقل من بين العاملين بالسياسة أشخاص من عينة أبو عيشة.

- لا أفهم.

استطرد قائلاً:- اقصد إنهم ليسوا بسذاجة العمال، إنهم جد حذرون رغم صغر سنهم، كما إنهم بالفعل يعملون بالسياسة، يقرأون ويكتبون ويلقون الخطب، إنهم باختصار يدركون ما يفعلون، أما العمال فإنهم مجرد مناوئين أو ساخطين أو مدعين وفى النهاية لا تجد شخصا منهم إلا ويحمل واحدة من هذه الصفات أو بعضها أو يحملها مجتمعة أنهم وحدهم يتحملون المسئولية عن تدهور حالتهم المادية، ألا يمكن أن تلاحظ هذا فى أعضاء التنظيم الذى تتزعمه فباستثناء حسن منصور وربما اثنين آخرين ستجد الباقين مهملين كسالى لا يرتقون فى أى لحظة إلى مرتبة المواطنين الجادين.

استمعت إلى محاضرته الطويلة صامتًا ثم استفسرت عن الخطوة القادمة.

فأجابنى:- نريد أن تضم إلى صفوف تنظيمك قائد طلابى حقيقى وليس قائدًا مزيفًا من صنفنا.

- ولكن.............

وقاطعنى:- عليك أن تبحث عنه فى الأماكن التى يذهب إليها عمالك وأعضاء تنظيمك.

*****

انقضت الشهور الأولى من العام الدراسى، سمعت عن أكثر من مؤتمر تم إقامته بكلية الهندسة، توالت لقاءاتى مع لطيفة، زارتنى أختى هناء فى منامى أكثر من مرة فتذكرت أمى وشعرت بالحنين للقاء نظيرة تلك المرأة التى يكفى استدعاء صورتها فى مخيلتى لتساورنى أحاسيس جميلة ندر أن يحاكيها أى نوع آخر من الأحاسيس، لم تتح لى فرصة رؤيتها منذ زمن بسبب أن تقاليد التنظيم تستدعى لقاءاتنا فى أماكن بعيدة عن منازلنا.

فكرت فى أن الحل يكمن فى تجنيدها كزميلة بالتنظيم الذى لم يضم من قبل إلا زملاء رجال، كنت قد قرأت أن الأحزاب الشيوعية فى الخارج وحتى فى الدول العربية لا تفرق بين الرجل والمرأة ولكن هل يمكن أن يوافقنى صفوان بك على أفكارى............ لا شك إننى لو انزلفت وصرحت بتلك الرغبة فإننى سوف أصبح مثارًا لسخريته ومن الممكن أن يفتضح أمر مشاعرى وأفكارى ورغبتى الحقيقية فى الاقتراب منها، إن هذا سيعود عليَّ بخسائر لا أستطيع تحملها..... أبعدت الفكرة عن ذهنى أو على الأدق أجلتها إلى وقت آخر يمكن

أن أستبدل تلك الفكرة بأخرى أقوم فيها بإسناد بعض المهام الحزبية إليها دون اشتراط عضويتها... وكانت هذه عادتى فى التعامل مع رغباتى الخاصة استبعدت أمر تجنيد نظيرة كما استبعدت أمر فراق لطيفة الذى يساورنى عقب كل لقاء معها.

مع نهاية ديسمبر فوجئ طلبه الجامعة بخطاب الرئيس السادات والذى قال فيه ضمن ما قال:- لن أسمح أن يتحول الانفتاح إلى انفلات.

وكانت تلك العبارة هى كلمة السر لمباحث أمن الدولة لتقوم بحملة اعتقالات لقيادات الطلاب فى كافة الجامعات المصرية، بعدها اعتصم طلبة كلية الهندسة لمدة خمسة أيام أغلقت فى أعقابها جامعات مصر التى شهدت اعتصامات مشابهة فى نفس الوقت.

علمت أن واحدًا من أعضاء التنظيم يتردد على صالون سياسى بمنطقة جليم لسيدة تدعى زاهية زهدى، كان العضو موظفًا يعمل مديرًا لمكتب العمل بمنطقة شرق الإسكندرية وله صلة واسعة بالعمال ويسعى إلى عمل تأمينات اجتماعية لكل العاملين بالقطاع الخاص والذى يتهرب أصحاب أعمالهم من عمل تأمينات اجتماعية لهم أبلغت حسن منصور إن عليه أن يتردد على هذا الصالون السياسى لعلنا نلتقى فيه ببعض التيارات الطلابية، قلت له بشكل واضح مرددًا نفس عبارة الضابط صفوان:- إن علينا فى هذه المرحلة أن نعقد الصلة بين تنظيمنا وبين قيادات الحركة الطلابية.

لمع بريق الفرحة فى عيني حسن منصور كعادته كلما سمع ما يمكن أن يعلى من نفوذ تنظيمنا وامتداد نشاطه، كنت أعد هذا البريق بمثابة تحيه لى على ذكائى وقوة إقناعى واعتراف صحيح منه بخبرتى السياسية العالية.

لم يمر سوى إسبوع واحد حتى علمت أنه قد التقى فعلاً بواحد من هؤلاء القيادات، رمزى ياسين طالب بكلية الهندسة، شارك فى إقامه الإعتصام الأخير بالكلية عقب اعتقال زملائه، قصير القامة حاد النظرات من أصول ريفية يقيم مع بعض زملائه من الطلبة بمنطقة الشاطبى بالقرب من الكلية، يتردد من حين لآخر على صالون زاهية زهدى، كثرت تردداته فى الفترة الأخيرة عقب إغلاق الجامعة وإلغاء الدراسة.

صدرت التعليمات واضحة بسرعة العمل على تجنيد هذا الطالب خاصة أن المسئولين من ضباط أمن الدولة المسئولين عن شئون الطلاب كانوا يضعونه على رأس الطلاب النشيطين الموجودين خارج السجون.

لم يكن تجنيد رمزى ياسين بالأمر الهين لذا كلفنى صفوان المراغى أن أتولى هذه المهمة بنفسى مقدمًا لى تقريرا طويلا عنه وعن ثقافته السياسية والاقتصادية الواسعة كما قام بتزويدى بمجموعة من الكتب لأقرأها لأتزود ببعض المعرفة الهامة التى تخص الفكر الماركسى قبل لقائه.

فى هذا الوقت لم أكن أكره أمرًا مثل كراهيتى للقراءة، أخذت الكتب على مضض ونهضت منصرفًا مغادرًا مبنى أمن الدولة لا ألوى على شيء.

مضى إسبوعان كاملان قضيتهما فى إعداد نفسى للقاء رمزى ياسين، بدأت بزيارة صالون زاهية زهدى بصحبة حسن منصور، امرأة قصيرة مكتنزة اللحم ذات ملامح متناسقة تدعو للارتياح فى العقد الخامس من عمرها، سلمت مرحبه قالت:- حدثنى حسن عنك كثيرًا.

غمغت متبسمًا:- خير.

اتسعت ابتسامتها المرحة وقالت:- وهل بين الزملاء إلا كل خير.

من اللحظة الأولى ضمتنى إلى زملاء صالونها السياسى، شدت على يدي وأجلستنى فى صدر الصالة الواسعة التى توافد عليها الزائرون حتى امتلأت، كان من بينهم رمزى ياسين أصغر الحاضرين سنًا وأكثرهم حماسة، خلت لهجته من اللكنة الشهيرة لكثرة ما تحدث مع أهل الحضر ولطول إقامته فى الإسكندرية، تظاهرت بعدم الإكترات بوجوده ولكننى كنت أختلس النظرات بين وقت وآخر إلى وجهه وإلى انفعالاته وردود أفعاله تجاه الأحاديث الدائرة.

من اللحظة الأولى لى صدقت وأمنت على حديث صفوان المراغى عنه وعن الطلبة عمومًا إنه يعرف ما يقول ولا يثرثر بكلمات جوفاء مثل التى أسمعها من زوار مقهى الفردوس سواء كانوا عمالا أو موظفين صغار، جلست أستمع إليه صامتًا، مر عليَّ وقت خشيت فيه أن أنساق إلى حديثه وأصبح واحدًا من مريديه، كدت أنسى للحظات

موقعه منى وموقعى منه، جرفنى تحريضه فوجدت نفسى أؤمن على قوله بأن السادات لا يهدف إلى حرب حقيقية مع إسرائيل يسعى بها لتحرير الأرض المصرية. أكدت أيضًا على إننا لا يمكن أن نطلق لفظ السلام على الاستسلام فالسلام لا يمكن أن يعنى إلا الندية بين طرفين أما الاستسلام فيعنى فقدان الإرادة من جانب أحد الطرفين لصالح الطرف الآخر.

فى اليوم التالى استدعانى رفعت بك دوريش، ذكرنى بنجاح الحفلة السابقة وذكرنى بأمره السابق لى بإقامة حفلات دورية لعملاء الشركة ولكبار موظفى مؤسسة الغزل والنسيج، لم أجد ما أعتذر به خاصة بعد أن اصبحت بصفة رسمية مدير العلاقات العامة بالشركة.

غادرت مكتبه عازمًا على أن أهب عملى بالشركة وقتًا أكبر مما أعطيه له بالفعل، فقد استغرقنى فى الفترة الأخيرة عملى مع أمن الدولة والذى لم أكن أهدف منه إلا الحصول على مباركتهم عندما يتم ترشيحى لشغل منصب قيادى بالشركة أو المؤسسة ولكن الوقت طال وكلما انتهينا من فصل سارع صفوان المراغى بإصدار الأوامر للبدء فى فصل جديد.

نجحنا فى إقامة ثلاث خلايا سريه وأصبحنا بواسطة التسجيلات على علم بكل ما يدور فى أذهان أفراد التنظيم وحاصرناهم فى غرف مغلقة يجلسون فيها ليؤدوا صلوات سب الحكومة والنظام.

رغم كل هذه النجاحات ها هو صفوان المراغى يلقى على أكتافى بعبء جديد، مهمة تجنيد الزعيم الطلابى رمزى ياسين الذى يجب أن أعترف بأنها أصعب بما لا يقاس بالمهام السابقة.

على الفور اتجهت إلى قسم "اللازونة" سألت عن شمس فأخبرونى إنها منقطعة عن العمل منذ أربعة أيام، استطعت الحصول على تليفون مخبز يقع أسفل منزلها بالعوايد وقمت بالاتصال بها فطلبت لقائى بكازينو نفريتنى بسبورتنج.

****

سحب سوداء عانقت بصرى وأنا أتجه إلى الشاطئ، اختارت شمس هذا المكان للقائنا لسبب أجهله وأستغربه، عندما أقبلت فى الميعاد اكتشفت أن هذا الكازينو الراقى نسبيًا هو المكان المناسب للقاء تلك الغادة الحسناء، أصبحت فتاة غير الفتاة تقترب أناقتها من أناقة لطيفة الغزولى وإن كانت تتفوق عليها بالجمال الذى يعد جمالاً أسطوريًا منسوبًا إلى لطيفة.

أخرجت علبة سجائرها وقدمت لى سيجارة ووضعت بين شفتيها أخرى أشعلتها بقداحتها الذهبية، أين فتاة اللازونة المنهكة بالعمل من هذه الغادة التى تجلس أمامى تدخن فى هدوء.

بعد أن سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها نفثت دخانها فى اتجاه زجاج النافذة المغلقة فغبشته ثم التفتت إلى قائله:- لو لم تطلبنى للقائك لسعيت أنا له.

هززت رأسى مستفهمًا عن السبب، استطردت:- لعلك فكرت عند رؤيتى إننى لا يمكن أن أعود للعمل بالشركة.

أومأت برأسى مصدقًا، استأنفت:- لذلك قررت أن أترك الشركة.

عقبت لتكمل حديثها:- وبعد.

- وجدت لنفسى حياة أخرى وبالتحديد تلك التى أعيشها لقد فتحت علىّ حفلة الشركه نافذة واسعة تأتينى منها المكاسب المتمثلة فى الهدايا المختلفة وعلى رأسها المشغولات الذهبية وأيضًا منها الراتب الشهرى.. تصور راتب يعادل راتبى من الشركة أكثر من خمس مرات.

بدورى سحبت دخان سيجارتى حتى احترق كل تبغها فأطفأتها فى مطفأه أنيقة زينت بها المائدة التى نجلس عليها بنفرتيتى ثم قلت متسائلاً:- والمقابل؟!

- صدقنى إذا قلت لك مجرد وقت جميل أقضيه مع هذا أوذاك من كبار الشخصيات التى تعرفت بهم فى الحفل المبارك.

- مجرد لقاءات.

- نعم فأنا لا أزال أحافظ على عذريتى أحتفظ بها للشخص الذى أحبه ويهواه قلبى.

شعرت أنها تعرج بالحديث إلى مسار آخر فآثرت أن أغير مجرى الحديث، فقلت:- دعينا نتحدث فيما دعانى إلى لقائك.

معترضة قالت:- لم تخبرنى عن رأيك فى ترك الشركة.

- هو صواب فى كل الأحوال حتى ولو لم يكن لك حياة جديدة.

- ولماذا؟

أشرت إليها وأنا أقول:- لأنك لم تعودى تصلحين للشركة ولم تعد الشركة تصلح لك.

سألتنى راجية:- هل تبارك حياتى الجديدة؟

متملصًا أجبت:- هى حياتك على كل حالك

- إنى أسالك عن رأيك.

- ليس لى أن أبدى رأيا.

قرأت فى عينيها خجل أشعرنى بنوع من الذنب تجاهها.

قلت صادقًا:- صدقينى يا شمس إنى أتمنى الزواج منك، فمن كانت مثلك لا يجعلها تفلت من يده إلا أعمى أو مجنون ومع ذلك فإن ظروفى لا تسمح، من الأفضل أن نكون مجرد أصدقاء، مستسلمة ضحكت ضحكة خجولة وقالت:- ستكون أخى وسأعيش على أمل أن أكون زوجتك فى يوم من الأيام.

أومأت برأسى مبتسمًا:- وأنا موافق وستجدينني إلى أن يحين هذا اليوم نعم الأخ.

قلت لنفسى:- ليت لطيفة تكتفى بما اكتفت به شمس وليت خديجة تحذو حذوها بدلاً من أن ترسم تقطيبة مفزعة على ملامحها كلما وقع بصرها عليَّ.

انصرفنا بعد ذلك إلى الحديث عن حفل الشركة وطريقة الإعداد له وطالت بنا الجلسة حتى موعد صالون زاهية زهدى فنهضت محاولاً

بصعوبة أن أغير مناخ الساعات التى عشتها مع شمس لأتهيأ لساعات أخرى مختلفة تمامًا أقضيها مع رمزى ياسين.

كان الصالون مزدحمًا بالرواد فى تلك الليلة حتى تم الاستعانة بمقاعد خيرزان لجلوس الرواد الذين شغلوا المقاعد الأساسية للصالون، كالعادة كان رمزى ياسين هو نجم الصالون والمتحدث الأساسى.

تذكرت الكتب التى أعطاها لى صفوان المراغى فى لقائى الأخير معه لم تتح لى الفرصة إلا لتقليب أوراقها على عجل، كيف سأعقد صداقة إذن مع هذا الشاب وأنا لا أكاد أفهم إلا القليل من حديثه رغم الكتب التى قرأتها. قبل انقضاء السهرة ملت عليه هامسًا:- إن كثيرًا من حديثه لا أفهمه أو على الأدق لا أفهم مقصده وما يرمى إليه، ولم أتح له فرصة للتعقيب إنما رحت أعتذر له بكثرة مشاغلى فلمعت فى عينيه نظرة زهو وكبرياء فأدركت إننى قد أصبت الهدف لقد نجحت فى إثارة غروره ووضعت أصابعى على نقطة ضعفه ورغم ذلك عندما انفردت بجدران حجرتى وفكرت فى الأمر مليًا اعترفت بإننى سوف أصادف صعوبه كبيرة فى تجنبدى لرمزى ياسين فقررت أن أخوض مرغمًا تجربة القراءة، أعدت قراءة أهم كتاب للزعيم الشيوعى لبنين "ما العمل؟" قضيت الأيام التالية فى محاولة فهم الإجابة التى أوضحها لينين فى كتابه وأخيرًا توصلت إلى إنها إنشاء جريدة لكل الطبقة العاملة ولا بد أن يقف وراء هذه الجريدة تنظيم الطبقة العاملة.

فى لقائى التالى مع رمزى ياسين طرحت عليه السؤال التاريخى ما العمل؟

وطالبته بالإجابة طبقًا لما تحدده ظروف الواقع المصرى. وقبل أن يجيبنى طلبت أن ألقاه بعيدًا عن صالون زاهية زهدى.

فى لقاء ثنائى معه رحت أقيم ما يحدث بصالون مدام زاهية تقييمًا متعاليا ومتعجرفا، فقلت إنه لا يزيد عن ثرثرة مثقفين لا تغنى ولا تسمن من جوع فى وقت يشهد فيه الجميع باحتدام الصراع الطبقى المر الذى يؤهل أو بالتحديد يستدعى وجود اليسار بقوة وجدية يفتقدهما واقع اليسار نفسه.

خضت ببصرى فى ملامحه فشهدت علامات الاهتمام الشديدة بعباراتى التى تشابه الحقيقة والتى كنت قد التقطها من بعض الأحاديث التى أسمعها هنا وهناك سواء من رواد صالون زاهية أو حتى مقهى الفردوس أو الكتب القليلة التى قرأتها أو تلك العبارات التى يمليها علي ضباط أمن الدولة أثناء استماعى لمحاضراتهم.

من هذه المصادر المختلفة نجحت فى إلقاء عدد من العبارات على مسامعه كانت فاتحة باب للدخول إلى عقله بالتماع عينيه والتعبيرات التى ارتسمت على ملامحه أدركت إننى اقتربت من تحقيق هدفى فواصلت إلقاء عبارات التعالى والعجرفة وأنا أقيم ما يجرى وسط اليسار المصرى والطبقة العاملة بالذات، وأخيرًا وصلت إلى هدفى فأوضحت إنه لا جدوى من أى عمل سياسى سواء داخل الطلبة أو الطبقة العاملة لو لم يكن هناك تنظيم سياسى يضم خير ما تفرزه العفوية الجماهيرية من قيادات (تعمدت أن أستخدم نفس تعبير لينين فى كتابه ما العمل وفى مقالته الشهيرة بم نبدأ؟).

يجب أن يختلف حديث المفاتحة عما سبق أن حدثت به حسن منصور ففى هذه المرة يوجد تنظيم قائم بالفعل.

كما توقعت دفعه الحماس إلى الموافقة الفورية على الانضمام إلى تنظيم الطبقة العاملة بشرق الإسكندرية، تعمدت أن أطرق الحديد وهو ساخن فأبلغته أن قيادة التنظيم قد كلفته بتكوين عدد من الخلايا فى القطاع الطلابى.

من جديد لمحت الزهو والحماس فى عينيه فكتمت سرورى لنجاح مهمتى وشددت على يده بقوة مرددًا أهلاً بك يارفيق فى طريق الكفاح والنضال من أجل الطبقة العاملة.

فى لقاءات الأيام التالية مع صفوان المراغى أفهمنى إنه لا يمكن حصر الحركة الطلابيه والنشاط الطلابى فى إطار اجتماعات الغرف المغلقة التى يسبح فيها المجتمعون بسب الحكومة، رغم إن هذا هدف يجب أن نسعى إليه وهو وأد حركة الطلاب وتفريغها من مضمونها أو بالتحديد المضمون الذى يدعونه.

فالحركة الطلابية متفجرة، وحاضرو المؤتمرات يعدون بالآلاف ولا يمكن الإدعاء بأنهم مجرد قلة منحرفة كما تزعم وسائل الإعلام فمباحث أمن الدولة تتعامل مع الحقائق كما هى وليست كما تحاول وسائل الإعلام إبرازها.

لذا حددت مهمة رمزى فى تجنيد أكبر عدد من قيادات الحركة الطلابية وكذلك إطلاعنا أولا بأول بكل ما يدور فى اجتماعات الطلبة حتى يكون الوضع دائمًا تحت السيطرة وعندما شرحت لرمزى

مهامه بعد استبدال بعض الألفاظ بأخرى تناسب إلقاءها على مسامعه، تألق فرحًا خاصة بعد أن نقلت إليه تحيات الرفاق باللجنة المركزية للتنظيم.

أقبل شهر فبراير وكان معظم قيادات الطلبة معتقلة فى السجون ولكن النار كانت تحت الرماد فاشتعلت الجامعة بمظاهرات بمناسبة الإحتفال بيوم الطالب العالمى فى الحادى والعشرين من فبراير.... برز فيها رمزى كقائد طلابى، كان صفوان المراغى حائرًا بين ضرورة اعتقاله وبين ضرورة تركه بين صفوف الطلاب ليتمكن من تجنيد المزيد من الطلبة وأنهى امتحان آخر العام حتمية الاختيار وبقى ياسين حرًا وتفرغت أنا لبعض مهامى الخاصة فلبيت دعوة للطيفة كانت قد ألحت عليَّ فيها كثيرًا، اصطحبتها إلى شقة سرية، أو هكذا أسميتها، كنت قد استأجرتها خصيصا لمقابلة حسن منصور ورمزى ياسين.

ما إن دلفنا إلى داخل الشقة وأغلق الباب خلفنا حتى لمحت فى عينيها نظرة غريبة، نظرة جريئة، أضاءت وجهها فجأة وألقت بنفسها بين ذراعي، ربت على ظهرها برفق كأننى أهدهد طفلا صغيرًا ولكنها تراجعت للخلف وراحت تفك أزرار بلوزتها والنظرة الجريئة فى عينيها تزداد جرأة، خشيت جرأتها وندمت على اصطحابها إلى هذه الشقة، أصررت أن تكون جلستنا بالصالة، وكى أهدئ من انفعالاتها أخذتها بين أحضانى فبادرتنى بقبلات ساخنة مسحت بها وجهى وعنقى.

لحظات ساخنة لم أمر بها من قبل أو على الأدق تحاشيتها فى كل ما مضى من عمرى كنت أرفض أن أُغتصَب، أذكر جارة لنا فى سن

أمى حاولت مرة أن تفعل معى هذا ولم أكن قد تجاوزت السادسة عشر من عمرى، كانت أنفاس المرأة ساخنة كريهة، وكان فعل الاعتداء فى ذاته يمثل إهانة لكرامتى فضلاً عن قبح المرأة غير المنكور.

دون إرادة منى تجسدت اللحظة أمامى من جديد فضاعف هذا الأمر من كراهيتى للطيفة وأدركت إننى أدفع ثمنًا فادحًا فى تسديد اقساط العربة التى لم تنته بعد وفى حلمى بأن يساعدنى والدها على تحقيق آمالى، كان الثمن أكثر من احتمالى وأكبر من طاقتى وصوت لهاثها يرن فى أذنى، فأغمضت عيني كي لا أراها وتمنيت أن أصاب بالصمم كى لا أسمع لهاثها فوق صدرى وشفتيها تتجول على صفحة وجهى ومضى وقت طويل لا أدريه قبل ان أشعر أن ظمأها قد روي ففتحت عيني رأيتها وقد عادت إلى مقعدها وتركتنى أعدل من هيئتى ومن شعرى المنكوش وقميصي المفتوح... مرت برهة طويلة قبل أن أنجح فى استعادة هدوئى وهنأت نفسى على نجاحى فى عدم سقوطى فى أمور يمكن أن يكون لها عاقبة وخيمة وذلك رغم استسلامى لها.

وفى اللقاء التالى عندما طلبت منى أن نذهب مرة أخرى إلى نفس الشقة رفضت بشدة فقد كنت أدرك أن أي انفراد بها بعد ذلك فى مكان مغلق من الممكن أن يؤدى إلى مالا تحمد عقباه، ألحت بشدة فعدت للرفض مرة أخرى، فلم أكن أريد أن أ تورط فى زواج لا أريده ولا أميل إليه خاصة فى هذه الفترة من حياتى وعلى العكس كنت أنوى التخلص منها نهائيًا خاصة بعد ما سمعت عن احتمال فقدان أبيها منصبه لأسباب لم يكن فى وسعنا معرفتها حتى بعد وقوعها فما بالنا والأمر لم يكن معروفا إلا على مستوى الشائعة.

كانت لقاءاتى بلطيفة غالبًا ما تجعلنى أعقد مقارنة بينها وبين نظيرة وبينى وبين حسن منصور، إننى أفوقه فى نواح عديدة منها شهادة البكالوريوس والمكانة التى أحتلها فضلا عن إننى أصغره بعدة سنوات، غير وسامتى غير المنكورة وأشياء كثيرة، ومع ذلك ينعم كل ليله بأحضان هذه المرأة ودفئها وحنانها بينما أنا وحدى لا أجد أمامى سوى لطيفة، شهوتها الجارفة وأنفاسها الساخنة ورغبتها المتدفقة، أمور كثيرة غير قابلة للمقارنة مع كنز الجمال الخالص الذى يضمه حسن منصور كل ليله بين ذراعيه.

لم تكد امتحانات الجامعة تنقضى حتى استدعانى صفوان المراغى وقد كان هذا أمر لا يحدث كثيرًا إذ كنت مواظبًا على زيارته فى مواعيد منتظمة.

توجست خيفة للقائه، فذهبت إلى مكتبه مضطرب الذهن والنفس معًا، بأى أمر جديد ممكن أن يكلفنى؟! لقد بدأت أشعر بالملل فى الآونة الأخيرة وتمنيت للحظات أن أهجر كل المفردات المحيطة بى، حسن منصور ورمزى ياسين ولطيفة والتنظيم ولكن هذا الشعور الذى كان يستبد بى أحيانًا، كنت سريعًا ما أقاومه وأرفض الإستسلام له، لا زال بينى وبين تحقيق أحلامى شوطًا كبيرًا، فرغم إننى أصغر مدير إدارة بالشركة إلا أن هذا أمر لا يمثل إلا جزءًا ضئيلاً من أحلامى ومن الطموحات التى أسعى اليها.

بمجرد جلوسى أمامه أخبرنى بأنه قد تقرر أن يتم القبض على أفراد التنظيم الليلة.

بهت وصمت هاتفًا مرددًا:– الليلة؟!

لم يتح لى فرصة للإستنكار أو حتى للاندهاش أو التعقيب

استطرد مؤكدًا:– إنها تعليمات القيادة السياسية.

فهمت ما يرمى إليه لا مجال للنقاش أو التعليق فضلاً عن استحالة التراجع عن القرار أو حتى معرفة أسبابه.

سألت مستسلمًا بعد أن التقطت أنفاسي بصعوبة:– هل يلزم الأمر أن أكون بصحبتكم؟

أجابنى:– لا داعى يكفينا وجود رجالنا الثلاثة ولكن كن مستعدًا للمثول أمام النيابة فى أى وقت إذا ما تعقدت الأمور.

لم أفهم ماذا يعنى بتعقيد الأمور ولكن لم يكن المجال سانحًا للسؤال أو الاستفسار فأومأت برأسى موافقًا فقام بإنهاء المقابلة على وجه السرعة، لا شك أن لديه الليلة أمورًا كثيرة يجب الاهتمام بها فنهضت منصرفًا.

فى الصباح علمت باعتقال كل أعضاء التنظيم وعلى رأسهم حسن منصور كمتهم أول وكان أول ما طرأ بذهنى هو أن اختفاء حسن منصور واحتجازه خلف أسوار سجن الحضرة يمكن أن يمثل لى ثغره أنفذ منها للوصول إلى نظيرة.

لم أضع الوقت غادرت مكتبى على الفور متجهًا إلى منزلها، منزل حسن منصور بتلك الحارة المسدودة المتفرعة من شارع دنا الرئيسي، فى الطريق ناوشتنى أفكار قديمة، إننى ذاهب إلى لقاء حبيبتى رحت أتخيل كيف يمكن أن تستقبلنى فى منزلها وكيف سترحب بى ورحت

أخلط بين الواقع المتناقض وبين أمنيات العاشق الولهان فضحكت من نفسى وحاولت أن أخرج مشاعرى من تلك الحالة الغريبة التى تملكتنى ولكننى غلبت على أمرى وكنت قد وصلت إلى أعتاب المنزل القديم فصعدت درجات السلم المتهالكة بنشاط لا يناسب الموقف وطرقت الباب الخشبى ذو الشراعة الزجاجية التى طالعتنى منها صامتة ثم فتحت الباب وسمحت لى بالدخول، استقبلتنى فى الصالة الضيقة التى حملت لى ذكريات اللقاء الأول للمكان، لا أعرف لماذا رأيته فى هذا الوقت أنظف وأجمل من أماكن كثيرة أرتادها. لم يغب عنى تعمدها ألا تغلق الباب.

جلست أمامى فرحت أرنو إلى الجفون المسدلة فوق العيون الباكية، أطلقت لبصرى العنان وتزودت بجرأة إضافية كنت أفتقدها من قبل مضطرًا، لم أعد فى حاجة إلى اختلاس النظرات إلى وجهها وقوامها، ها هى صفحة الوجه البيضاء أمامى وها هى التقاطيع الدقيقة المرسوم بدقة تشهد فى كل اللحظات بروعة وقدرة الخالق، وقرط مطلى بمياه الذهب يتدلى من أذنيها وخصلة ناعمة كثيفة السواد هاربة من شعرها المغطى بإيشارب نظيف لتستقر على جانب جبهتها.

قلت مواسيًا:- غمة وتزول.

غمغمت متسائلة من بين شفتيها المكتنزتين:- هل تظن أن الغمة ستطول؟

أجبتها مهدئًا- أغلب الظن أنهم سيعرضون على النيابة ثم تفرج عنهم المحكمة فى أول جلساتها.

سألت معترضة:- إذا كان الأمر كذلك فلما كان الاعتقال إذن؟!

كشف سؤالها البرئ مدى تملقى وادعائى، فقررت ألا أكذبها القول فى هذا الأمر فلعل الصدق يكون منفذًا لعلاقة أوثق معها فضلاً عن إننى لا أتمنى أن تفرج عنه المحكمة بهذه السرعة.

استطردت مهدئًا روعها:- أرجو ألا تقلقى فإذا كان حسن هناك فأنا هنا موجود.

سارعت تؤكد لى بنظرة حانية إنها تدرك هذا الأمر فقالت:- أعرف هذا جيدًا فقد كنت دائمًا نعم الأخ.

استطردت شارعًا فى بناء حائط الثقة:- ما عليك إلا أن تطلبى يا ست نظيرة، فأولادك أولادى وأنت أختى.

- أشكرك.

مددت يدي إلى جيبى أخرجت ثلاثين جنيهًا، ما إن وقع بصرها على يدي الممدودة بالنقود، حتى قفزت مذعورة مرددة:- مستورة يابك... والله مستورة.

تظاهرت بالخجل وادعيته، أطرقت برأسى إلى الأرض ونحيت النقود جانبًا قلت متظاهرًا بالحزن وملأت وجهى بتعبيرات الأسى :- ألهذا الحد تعدينى غريبًا عنك وعن حسن؟! هل يستدعى الأمر منك كل هذا الرفض؟ أعلم أن أخى قد وفر لكم الستر ولكنى تصرفت بدافع تلقائى عفوى فأنا وحسن....

تعمدت ألا أكمل عبارتى، تظاهرت بأن التأثر قد غلبنى على أمرى، أعطيتها رقم تليفونى بالمنزل والمكتب وقبل انصرافى حاولت أن

أدس الثلاثين جنيهًا فى يد صغيرها، إلا إنها انتبهت رافضة لمحاولتى فتوقفت وانصرفت متظاهرًا بالأسف.

فى طريق عودتى إلى الشركة سرح ذهنى فى محاولة البحث عن مدخل ألج به إلى أعماق هذه المرأة المخلصة لزوجها اخلاصًا سد أمامى كل منافذ الوصول إليها، لم أكن أدرك فى هذه اللحظات إنها تذكرنى بأمى التى لم تفكر يومًا فى خيانة أبى أو التمرد على حياتها معه رغم جمالها الذى يشهد به الجميع واستحقاقها لزوج أفضل كثيرًا من أبى الذى لا ينعم بأى قدر من الوسامة فضلاً عن غلاظة طباعه واحتداده الدائم على من حوله حتى فى محله الذى يبيع فيه الفول والطعمية.

فى النهاية رحت أعزى نفسى:- إنها ستحتاج لى بكل تأكيد، ما علىَّ إلا أن أنتظر نفاذ الجنيهات القليلة المدخرة التى تركها لها وبالتأكيد لن يكفيها نصف راتبه الذي لن يصرف لها سواه من الشركة، حيث سيصبح غير كاف إعالتها وإعالة إبنيها.

****

عدت إلى مكتبى وكنت عقب صدور قرار برئاستى لإدارة العلاقات العامة رسميًا قد نجحت فى الحصول على مكتب مستقل لا يشاركنى فيه أحد من الموظفين العاملين، فوجئت بأختى جالسة فى غرفة مكتبى، انقبض قلبى للوهلة الأولى، لا شك إنها أخبرتهم إنها أختى لذا فتح الساعى لها باب مكتبى لتنتظرنى به، شعرت بالخجل من ملابسها وحذائها المتواضعين وكذلك شعرها الذى رفعته فوق

رأسها ومع ذلك أطل بهاء وجهها على المكان كنت اشتاق لرؤياها ولكن كعادتى كنت أقاوم أى شعور لا يدفعنى إلى الأمام، إن استسلامى أمام مشاعر الإخوة يتطلب ثمنًا لا أقدر عليه، شددت على يدها مرحبًا تمنيت أن أضمها إلى صدرى ولكنى لم أفعل تعمدت الجلوس على مقعدى الفخم خلف مكتبى متعمدًا أن أشعرها أنها لا تتحدث مع أخيها مدحت بقدر ما تتحدث مع مدير إدارة فى شركة كبيرة يمتلك حق دخول مكتب رئيس مجلس إدارتها دون استئذان أو طلب مسبق.

لم تغب عنى تعابير الحزن التى كست ملامحها، هل مات أبى أو مرض عطية؟! كلا الأمرين لا يشغلان بالى فلأتخلص من كل ما يربطنى بالماضى بصلة؟

تتعمد الفتاة الصمت كأنما تطلب منى أن أدفعها دفعًا للحديث ومع ذلك تجاهلت رغبتها الخبيثة وتجاهلت صمتها والتعابير الحزينة المرتسمة على ملامحها وقلت بلهجة مرحبة:- أهلا يا هناء كيف حالك وحال أبي وأخي؟.

بلهجة مؤنبة أجابتني:- تقصد أبيك وأخيك.

افتعلت ضحكة قصيرة ردًا على ما اعتبرته طرفة منها متجاهلاً لومها لى على عدم نسبتهما لى ومع ذلك ظلت تعبيرات الحزن مرتسمة على ملامحها، استطردت

- لعلهما بخير.

- بخير.

إذن هى النقود لم تأتنى إلا طلبًا فى المساعدة، ما أعجزنى يا هناء عن إعطائك قرش واحد الآن فأنا رغم كل ما أحصل عليه من اللجان والحوافز والمكافآت بالإضافة إلى المرتب، لا أمتلك شيئًا يذكر.... آه لو تعلمى الثمن الذى أدفعه لأحصل على أقساط السيارة، انتشلتنى من أفكارى وقد قررت أن تلج فى موضوع الزيارة مباشرة قالت:- تقدم لى عريس.

تهلل وجهى فرحًا وصحت:- مبارك.... مبارك ها أنت قد كبرت يا هناء وأصبحت عروسًا... متى تقرر أن يكون الفرح؟

قاطعتنى:- لا يوجد فرح.

- لماذا كفانا الله الشر.

- إن شرطه إن يأخذنى بعد إسبوع ليسافر.

مستغربًا رددت:- يسافر.

- نعم يعود بى إلى بلده ليبيا.

بدأت أفهم قلت:- شيء رائع أن تحصلى على عريس ليبى

وكنت قد سمعت عن العجائز الليبين الذين يهبطون إلى الأحياء الشعبية ليتزوجوا من عذرواتها ومع ذلك تفوهت بما تفوهت به محاولاً سد منافذ الاستعانة بى فى أى أمر من الأمور.

سمعتها تقول كأنها تجلدنى بسوط:- لقد جاوز الثمانين من عمره.

تجاهلت ما ترمى إليه وصحت مهللاً:– حسنًا على أعتاب القبر لن تعاشرينه أكثر من عام وربما بضعة أشهر حتى تجدين نفسك الأرملة الطروب تملكين جمالاً وثروة ما أسعدك يا أختى.

كست تعابير الأسى وجهها حتى أصبحت على وشك البكاء دمعت عيناها، حانت منى نظرة إلى باب المكتب فوجدته مغلقا، خشيت أن يتصاعد صوت بكائها حتى ليسمعه المارة فى الخارج أو حتى الساعى الذى يربض خلف الباب ولكنها سرعان ما تماسكت وأخرجت منديل قماشى جففت به دموعها وقالت يائسة:– ما جئتك إلا لتنقذنى من تلك الورطة.

مخففًا قلت:– لعلك تضخمين الأمور.

قالت:– لا أريد السفر إلى ليبيا.

ساخرًا أجبتها:– عشقًا فى كرموز وشارع العمرى وزرائب المواشى التى تملأ الشارع وتزكمنا برائحة الروث ليل نهار.

- أريد أن أبقى مع أهلى.

واصلت سخريتى وقد رأيت فيها الحل الوحيد للخروج من المأزق:– عم عبده فلافلاية أم عطية عجينة؟

وكان اللقب الأخير قد أطلقه أهل الحى على أخى عطيه بسبب أن جسده مكور فى عمومه وطرى كالعجينة.

سمعتها تقول بإصرار:– هم أهلى

- ستتزوجين يومًا.

- بالتأكيد ولكن ما يحدث كما ترى ليس زواجًا أم لك رأي آخر؟!

- كم دفع مهرًا.

- تقصد كم دفع ثمنًا، ألف وأربعمائة جنيه أخذت منهم السمسارة مائتى جنيه.

قلت لنفسى ما أبخس الثمن لقد سمعت عن بنات أقل جمالاً دفع فيهن مبالغ أكثر بكثير من هذا المبلغ

قلت متحديًا:- أرى إنه زواجًا مباركًا.

- هل هذا رأيك الأخير؟

- إنها القسمة والنصيب.

- ألن تحضر حتى لمقابلة العريس.

- هل ترين هذا ضروريًا؟

كان ذهنى يفكر بسرعة في كيفية الاستفادة من هذه المصاهرة مع الثرى الليبى.

أجابتنى:- ما رأيك أنت ألا ترى أن هذا مهمًا.؟

- لدي الكثير من المشاغل ومع ذلك سأقابله من أجل خاطر عينيك وليكن هذا فى مكان مناسب.

- قل بعيدًا عن أبى وأخى وكرموز.

- ليكن، أليس من المناسب أن نرفع من شأننا أمام أصهارنا الجدد.

- ليكن مسكنك.

مراوغًا:- إن المساكن بشكل عام ليست ملائمة لمثل هذه اللقاءات ليكن كازينو نفرتيتى.

لا أعرف لماذا فضلت أن يكون اللقاء فى المكان الذى لم أدخله من قبل إلا للقاء شمس.

تململت فى جلستى إيذانًا بانتهاء الزيارة فنهضت واقفة وغادرت مكتبى بعد أن اتفقنا على موعد اللقاء ومكانه، سوت شعرها بأصابعها الرفيعة ومسحت على صفحة وجهها بكفيها كأنها تطمئن عليه تمنيت أن أضمها إلى صدرى ولكننى كنت أدرك إننى سأدفع الثمن باهظا فشيعتها بنظرة آسفه وهى تستدير منصرفة.

******

أثناء تهيؤي للذهاب إلى موعد عريس أختى الليبى بكازينو نفريتنى، ولفرط سماعى للعديد من القصص حول مثل هذه الزيجات كان يخيل لى إننى أعرفه وإننى رأيته من قبل وجالسته وتحدثت معه، عجوز مهدم قصير نحيل فمه خالٍ من الأسنان، بدوى صحراوى يستند على عصا غليظة، ذو وجه مجدور وشعر خفيف فى مؤخرة الرأس لا بد وأن يكون على هذه الهيئة، ما أشقاك يا أختى عندما يضمك هذا الهيكل البشرى إلى صدره ما أشقاك عندما يحاول أن يبعث الحياة فى الجسد الميت بالإرتواء بشبابك، أى فائدة يمكن أن أجنيها من مثل هذا اللقاء؟! هل يمكن أن أحصل على عمولة إضافية أو أرفع المبلغ الذى دفع ثمنًا لأختى؟ لا شك أن أبى قد بذل أقصى ما فى وسعه وحصل

على أعلى ثمن ممكن لإبنته، إن العرض المتزايد من قبل الأشقياء لبناتهن بالأحياء الشعبية هو السبب المباشر في تدنى الثمن.

رن جرس التليفون، مكتب صفوان المراغى يستدعينى، أصبحت استدعاءته فى الفترات الأخيرة كثيرة، خاصة بعد أن اعتقل أفراد التنظيم، لا أستطيع أن أؤجل لقاءه أو أتاخر عنه ولو لنصف ساعة... ليس لى نصيب يا هناء، كما كان زواجك قسمة ونصيب فليس لى نصيب فى رؤية عريسك وتوديعك قبل سفرك إلى ليبيا، من جديد شعرت بالأسف ولكننى لم أكن على استعداد للتراجع.

فى مكتب صفوان المراغى عرفت أخبار التحقيقات، سقط معظم أعضاء التنظيم، توالت إعترافاتهم حتى قبل أن يتلقى أحد منهم صفعة أو ركلة واحدة..... إعترف الجميع عدا أربعة صمدوا لكل أشكال الضغط والتعذيب، حسن منصور ورمزى ياسين وموظف مكتب العمل وأبو عيشة الأراجوز الذى تمنيت أن يكون أول المعترفين لأجعله يكف عن غروره وتباهيه بشيوعيته.

من حسن الحظ إننى لم أقابل من المعترفين سوى شخص واحد كان يعمل بشركة النحاس كان لقاءً عابرًا تعرف عليَّ فيه بإسم مستعار، اعترف ضمن جمله اعترافاته بأنه قد قابلنى باعتبارى من قيادات التنظيم، وصف قوامى والثياب التى كنت أرتديها ولكنه لم يستطع أن يتذكر ملامحى بدقة فقد كان اللقاء الوحيد بيننا بعد الغروب على ضفة ترعة المحمودية فى الجزء المقابل لشركة النشا والخميرة والمفتقد لأى إضاءة فى ليلة غاب فيها القمر.

نبهنى صفوان بك إلى أهمية أن أكون حذرًا فى الفترة القادمة وأتصرف على أساس إننى يمكن أن أعتقل فى أى وقت وذلك حتى لا يشك فىّ أصدقاء وأهالى المعتقلين، فهمت ما يرمى إليه وأومأت برأسى موافقًا، وفوجئت به يسألنى عن الفتاة التى كانت تصحبنى أثناء ذهابى إلى شقة أبوقير.

أسقط فى يدى، أدركت أن جهة أخرى وربما جهات كانت تراقب التنظيم قبل صدور أمر الاعتقال وأن هذه الجهة أو الجهات أوردت أمر اصطحابى للطيفة إلى شقة أبى قير فى محضر تحرياتها.

لم أجرؤ على الكذب، كما لم أستطع ان أصارحه بالحقيقة، أطرقت برأسى إلى الأرض... بدوت أمامه كتلميذ مذنب أمام معلمه، لا مفر من الاحتماء بنصف الحقيقة، سوف ألجأ إلى الصمت وأتركه يفهم ما يريد، فآه لو علم أن من كانت فى صحبتى هى ابنة حامد الغزولى العضو المتندب، وماذا سيكون الأمر لو أخبر أباها؟ وهو من رجال الدولة المعروفين بالإسكندرية وعضو بارز بالاتحاد الاشتراكى؟ أغلب الظن إن الأمور ستتعقد بطريقة أعجز عن حلها وأجد نفسى مطالبًا بالزواج الفورى.... كانت الأفكار تجرى بذهنى كأنها تعدو، توصلت أخيرًا إلى أنهم لم يتعرفوا على الفتاه فلو تعرفوا عليها لم يكن لصفوان المراغى أن يسألنى اليوم عنها.

قطع الضابط حبل أفكارى المسترسل قائلا:- باعتبارك ناجحا فى عملك حتى الآن وباعتبار إنك سعيد بهذا النجاح الذى تخدم به الصالح العام فدعنى مع ذلك أذكرك بقول لأحد الشيوعيين ولعله

لشيخهم ماركس "لا تدع المنغصات الصغرى تضيع لذة اللذات الكبرى".

وأنا لازلت هاربًا بنظراتى إلى أرضية غرفة المكتب قلت:- لا شك إننى مخطئ.... أعترف إننى مخطئ.

سألنى مقتحمًا استسلامى أمامه:- لماذا لا تتزوج وأنت لا ينقصك المال أو الشباب.

غمغمت:- سيحدث.... سيحدث بإذن الله.

استطرد خائضًا فى الجانب الآخر من خصوصياتى

- يجب ألا تتردد على منزل حسن منصور فالمفروض أن المنزل مراقب ولا أريد أن أقرأ اسمك فى كل تقارير التحريات التى تصلنى.

معترضًا قلت:- ولكن المفروض إننى أساهم فى الإنفاق على العائلة الغائب عائلها وأيضًا أريد أن أعرف أخبار أشخاص الحلقة المتعاطفة مع المعتقلين

قاطعنى منهيًا الحديث:- فليتم هذا بعيدًا عن منزل حسن منصور.

خلال الحديث كان قلبى يرتجف هلعًا خشية أن يقودنا النقاش إلى ترتيب يمنع مقابلتى لنظيرة أو يحد منه ولكن بعد أن غادرت المكتب أدركت أن تحذير صفوان المراغى يفتح أمامى بابًا واسعًا للقائها فى الخارج بعيدًا عن الصالة الضيقة وباب الشقة الموراب وضجيج الصغيرين ومقاطعتهما لحديثنا... راح قلبى يرقص فرحًا، فقدت السيارة إلى نفرتيتى، كان قد مضى أكثر من ساعتين على موعدى مع هناء وعريسها، تطلعت فى أرجاء الكازينو الواسع بذهن غائب،

تأملت المقاعد المتراصة ووجوه العاشقين والعاشقات من رواد الكازينو وتمنيت أن أكون يومًا واحدًا منهم على أن تكون فتاتى هى نظيرة، وبطبيعة الحال لم تكن هناء أو عريسها وسط الرواد.

عقب عودتى إلى المنزل تلقيت مكالمة من لطيفة، كانت تلح عليّ معربة عن رغبتها فى الذهاب إلى شقة أبى قير، فى الفترة الأخيرة كان الحديث بيننا قد وصل إلى درجة عالية من الصراحة من جانبها أفصحت لى عن الحريق الذى يشب فى داخلها كلما لامس جسدها الفراش، أفصحت عن شوقها الشديد لقبلاتى وأحضانى ولعلها كانت تقصد قبلاتها وأحضانها لى.. وكالعادة فى نهاية اعترافاتها ختمت حديثها بأنها تخشى على نفسها مغبة الفتنة والانحراف وكأن إرواء شهوتها معى لا يدخل تحت هذا التصنيف.

أخبرتها إن شقة أبى قير كانت لصديق غائب، عاد من سفره منذ يومين ومعه عائلته الأمر الذى يحتم علينا نسيان أمر هذه الشقة باعتبارها مكانا عابرا أتيح لنا فيه اللقاء مرة أو مرات وانتهى الأمر.

سمعت نشيج بكائها على الطرف الآخر من الهاتف فوعدتها بإننى سوف أبحث عن شقة بديلة ووعدتها بلقاء اليوم التالى بكازينو المنتزه.

وضعت مسماع الهاتف وانطلق خيالى يفكر فى لقائى المرتقب مع نظيرة سأزورها فى شقتها مرة واحدة لترتيب أمر لقاءاتنا التالية خارج منزلها، سيكون فى إحدى كازينوهات الشاطئ سأنضم قريبًا إلى عصبة العشاق الذين يرتادون هذه الكازينوهات فى أمسيات الخريف الحالمة.

ظلت نظيرة تحتل خيالاتى وأحلامى حتى وأنا ذاهب فى اليوم التالى للقاء لطيفة التى أقبلت يغطى ملامحها مكياج ثقيل لم يفلح فى إخفاء غلظة الملامح وقسوتها، لم أستطع إنكار أناقتها التى لا شك قد قضت فى تظبيطها ساعات طويلة أمام المرآة استعدادًا للقائى.

تحدثت عن الشقة التى وعدت باستئجارها فأخبرتها بإننى قد مررت على السمسار قبل قدومى إليها وإنه قد وعدنى خيرًا.

فى محاولة لاستدرار عطفى راحت تقص على كيف إنها فقدت أمها وهى صغيرة حتى إنها لا تذكر من ملامحها إلا مجرد خيالات وكيف أن الخدم هم الأباء والأمهات الحقيقيون لها.

بذكر أمها تذكرت أمى وتذكرت معها نظيرة ومع ذلك قلت مخففًا:- لم تمت أمى وأنا صغير بل عاشت حتى وصلت إلى التعليم الثانوى ومع ذلك ماذا فعلت بها؟ وماذا فعلت بى؟!!

توقفنا عن الحديث فجأة كأن خيط الكلام قد انقطع وانشغلت عنها بتأمل أمواج سبتمبر الحانية وهى تداعب رمال الشاطئ ونفثت هى عن غضبها وشعورها بالوحدة حتى وهى تجالسنى بالانصراف إلى أكواب البيرة تفرغها فى معدتها دون حساب حتى خلت إنها تعادى شخصًا مجهولاً تنتقم منه باحتساء أكبر عدد من زجاجات البيرة.

استأذنت للذهاب إلى دورة المياه أكثر من مرة معتذرة بضرورة أن تعدل من مكياجها تظاهرت بتصديقها وأنا تأمل زجاجات البيرة الفارغة التى تمثل السبب الحقيقى لكثرة ذهابها إلى دورة المياه.

قررت أن انصرف لأهيئ نفسى للقاء اليوم التالى مع نظيرة ولكنها طلبت مزيدا من زجاجات البيرة، فاضطررت أن أستسلم لنزواتها بعد أن كست الحمرة ملامحها السمراء فحولت لون بشرتها إلى لون القهوة الغامق... كانت تتحدث عن أخيلة الرجال التى كانت تزورها فى فراشها قبل الوصول إلى سن البلوغ واستدركت بأنها منذ أن عرفتنى لم تر رجلا فى أحلام يقظتها أو منامها سواي، تتمثلنى أعانقها وأقبلها وتعانقنى وتقبلنى..... أخيرًا اضطررت مرغمًا لمسايرتها فى رغبتها بمبادلتها أحلاما بأحلام وخيالات بخيالات بينما ذهنى كان هناك مع نظيرة.

****

فى السادسة من صباح اليوم التالى كنت أطرق بابها، مر وقت قبل أن تفتح الشراعة الزجاجية، لم تخفِ إمارات الإنزعاج المرتسمة على ملامحها الجميلة، تجمدت فى مكانها وأصابعها قابضة على حافة الشراعة، لم أعطها فرصة للتفكير نمت تعابير وجهى عن رغبتى فى الدخول ففتحت الباب بصورة آلية نصف فتحة فقد كانت لازالت ذاهلة متسائلة عن زيارتى المفاجئة فى هذا الوقت المبكر من الصباح، دفعت الباب برفق وأصبحت فى داخل الصالة الضيقة التى ارتبطت فى ذاكرتى بأحلى وأجمل ما عشته من لحظات فى عمرى.

بدا كأن ملامحها تعبر عن الاستنكار وصدرت منها بضع غمغمات لم أتبينها كانت تنتظر سماع النبأ الذى لا ينتظر مواعيد الزيارة المعتادة. بصوت حازم أخبرتها إن منزلها مراقب وإننى ما بكرت

فى الحضور إلا تجنبًا لرصدى من المراقبين، استطردت متعجلاً كى أضفى على حديثى سمات الأهمية والجدية والأمر فى الوقت نفسه قلت:- إننا يجب أن نلتقى فى الخارج للذهاب إلى النيابة للحصول على إذن بزيارة حسن.

ما إن اطمئننت إلى استيعابها قولى حتى حددت ميعاد ومكان اللقاء واستدرت منصرفًا.

بعد ساعات ثلاث كنت جالسًا فى كازينو الشاطبى أنتظر وصولها وأنا أحاول أن أقنع نفسى إننى على موعد مع حبيبتى لنتبادل عبارات العشق والغزل.

تحاشيت نفرتيتى خشية أن يكون مكانًا مألوفًا لشمس تلتقى فيه مع زبائنها.

فى الموعد المحدد كانت تخطر بقدها الفارع المائل إلى الامتلاء فوق الكوبرى المؤدى إلى مدخل كازينو آخر من كازينوهات الشاطئ.

كدت أنهض لاستقبالها عند الباب بمجرد أن وقع بصرى عليها، فى لقائى معها لا يجب أن أضيع هذه اللحظات القصيرة التى أقضيها منتظرًا أن تقطع فيها المسافة بين باب الكازينو وبين مائدتى خشيت أن تفضحنى ساقاى فأجد نفسى أعدو إليها لأتلقاها بين أحضانى ممطرًا وجهها بالقبلات.

نهضت واقفًا نبهتها لمكانى بهسيس خافت بينما كانت هى تفرز الجالسين على المقاعد بعينيها بحثًا عنى، اقتربت منى بخطوات مرتبكة افصحت عن إنها المرة الأولى التى ترتاد فيها مثل هذه الأماكن.

أومأت لها بالجلوس متعمدًا عدم لمسها أو حتى مصافحتها محاولاً تشييد جسور من الثقة والإطمئنان فى داخلها تجاهى، تفيدنى فيما هو قادم من أيام فى علاقتى معها.

رحت أتأمل ثيابها والإيشارب الذى كان يغطى شعرها ذكرتنى بملابس هناء وحذائها البالى، كذلك كانت هى نفس ثياب أمى فى الأعوام الأخيرة قبل وفاتها، سألت نفسى هل تلك الصلة وهذا التشابه هو ما يدفعنى للتقرب من نظيرة؟

بقراءة سريعة للتعبيرات المرتسمة على ملامحها، لم أجد بينها ما يمكن أن يرحب بلقاء طويل بيننا أتمكن فيه من الحديث عن أمور بعيدة عن هدف اللقاء.

أشرت للجرسون أن يحضر لها عصير شربته على عجل كى تسارع بالإنصراف إذ أنها تخشى أن يراها أحد معارفها وهي تجالسنى، ضحكت ساخرًا ومطمئنًا وقلت بثقة:- لقد اخترت هذا المكان بالذات لانعدام فرصة تعرف أحد من رواده علينا.

سألتنى فجأة:- هل تأتى هذا المكان لأول مرة.

أجبتها:- نعم لأول مرة.

لمحت سعيدًا طيفًا من الطمأنينة يطل من عينيها، مضيت مواصلا تشييد أساس متين من الثقة، قلت متعجلاً وكانت لم تكمل احتساء كوب عصير الليمون الذى أحضره الجرسون بعد:- سنتوجه من فورنا إلى النيابة لنتمكن مبكرًا من استخراج أمر الزيارة.

من جديد لمحت أمارات الثقة ترتسم على ملامحها، لقد عرفت الطريق إلى كسب ثقتها وهو الاهتمام بما يهمها وتفكر فيه وهو بكل أسف ليس إلا زوجها المعتقل ولكننى سأصبر على مضض حتى أنجح فى تحويل اهتماماتها وأفكارها وربما عواطفها بعيدًا عنه.

فى اليوم التالى وفى ميعاد الزيارة التقيت بها على بوابة سجن الحضرة، كنت قد أخبرتها من قبل إننى يجب أن أقابل حسن بصفتى أخيها للإطمئنان عليه.

تهللت أساريره لرؤياها ومد ذراعيه مرحبًا بها الأمر الذى أشعل نيران الغيرة فى صدرى ثم تقدم يصافحنى فاتحًا ذراعية، لم أفكر إلا فى أن ألامس الصدر الذى كان منذ لحظة يلامس صدرها، استعذبت دفء صدرها فى صدره، انتزعنى من خيالاتى بروحه المعنوية العالية التى لم أكن أتوقعها وهو يسأل عنى وعن الشركة، شعرت كأننى أنا الأسير خلف القضبان وهو المنطلق فى الحياة الواسعة، كنت أتصور إننى سأقضى وقت الزيارة مواسيًا ومعزيًا لشخص بائس متخاذل كما كانت حالته فى الفترة التى أعقبت توقفه عن العمل... ولكنى وجدت شخصًا آخر خلقته وأعادت صهره ظروف العمل السرى وشعوره بأنه يحمل مسئولية وطن على كتفيه ويعبر عن آمال الملايين من الشغيلة فى طول البلاد وعرضها وربما فى جميع أنحاء العالم، بصرف النظر عن اقتناعى بالمبادئ التى كنت أبثها فيهم كاذبًا فقد آمن حسن منصور بهذه المبادئ وصدقها وأثمرت تلك الحالة التى يعيشها الآن.

سألته عن بقيه الزملاء فأخبرنى أنهم فيما عدا المعترفين فى أفضل حال رغم إن تعذيبًا خاصًا قد مورس على الطالب رمزى.

تظاهرت بالإنزعاج والقلق فاستطرد يقص عليَّ كيف أن سلسلة الاعترافات قد توقفت عند حلقة هذا الطالب الصغير، إن التنظيم لم يكن قد نجح بعد فى الربط بين حلقتى العمال والطلبة لذا لم يكن هناك غير رمزى الذى يصل بين الحلقتين ولهذا اضطر وحده أن يدفع الثمن.

إن قيادات الحركة لطلابية فيما عدا رمزى بالخارج ولا شك إنه قد نجح فى تجنيد بعضهم ولم يستكمل تجنيد الباقين ولم يتح له الوقت لتقديم تقارير مفصلة عنهم وفى الوقت نفسه لا يوجد ما يمكن أن يثبت أو يعد دليلاً على انتمائهم للتنظيم، لا اعترافات ولا تسجيلات ولا اختراقات، شعرت للحظات بإشفاق حقيقى على هذا الشاب الصغير الذى تلقى أشكالاً من التعذيب كان أبرزها التعذيب بالكهرباء ورغم هذا ظل صامدًا.

تذكرت صفوان المراغى ماذا لو إننى صارحته بشعورى هذا تجاه الطالب الصغير، يكفينى كمية اللوم والتوبيخ التى وجهها لى لتقصيرى فى معرفة أسماء الطلبة الذين قام رمزى بتجنيدهم وذلك رغم تأكيدى له بأن التجنيد الفعلى لم يكن قد تم بعد وإلا أخبرنى به رمزى على وجه السرعة.

أنبأنى حسن باعترافات عامل النحاس عليَّ وراح يوجه تحذيرًا حرصت أن تسمعه نظيرة لكي أستثمره مستقبلاً فى تنمية وتوثيق

علاقتى بها إذ أن حجة التعلل بالظروف الأمنية وظروف العمل السرى سوف يظل دائما وفى كل الأوقات ملاذى الأبدى لتنفيذ أهدافى وأغراضى..

رأيت أن أنتهز الفرصة فملت عليه هامسًا:- أرجو أن تعى الست أم محمد الأمر لتعذرنى إذ لم أواليها بالزيارة.

بدوره مال على زوجته التى كانت تجلس على الجهة الأخرى منه فوق الدكة الخشبة التى كنا نجلس عليها بصالة الاستقبال بسجن الحضرة، قال لها:- إن موقف البك، هكذا كان يلقبنى أمامها، دقيق ويجب أن تطيعيه فى كل ما يشير به عليك وعندما تضطرا للمقابلة يجب أن يكون لقاؤكما بعيدًا عن البيت وذلك للحفاظ على أمنكما وأمن الأولاد.

تلقت تعليماته صاغرة فعدت أهمس فى أذنه بصوت تعمدت أن تسمعه نظيره قلت مقررًا:- إذن ستكون أم محمد هى همزة الوصل بيننا وبينكم.

فهم ما أرمى إليه فارتسمت علامات الجدية على ملامحه وأومأ برأسه موافقا وعاد يؤكد عليها ضرورة طاعتى أيًا كان ما أشير به أو آمر به.

رقص قلبى طربًا عند سماعى تلك التعليمات الحازمة التى يلقى بها حسن منصور بزوجته فى أحضانى، حانت منى نظرة إلى ملامحها، خشيت أن أرصد فوقها تعبيرا ولو عابرا عن الانزعاج أو الاعتراض،

سرنى إننى لم ألمح شيئًا من هذا وعلى العكس كانت تومئ برأسها بشكل متتالٍ وآلى علامة الموافقة على كل أمر أو كلمة ينطق بها.

عدت أهمس فى أذنه:- سأقوم بإعطائها مبلغًا شهريًا يقسم بين مصاريف منزلك ومصاريفكم وستقوم بوضع ما يخصكم فى كافتيريا السجن بإسمك، استمع إلى عباراتى صامتًا وأعاد ترديدها عليها مؤكدًا، فهزت رأسها علامة الموافقة، فسرى السرور إلي قلبى وأدركت أنها لم ترفض نقودى من قبل إلا لأنها لم تكن قد تلقت إذنًا بتلقيها من زوجها.

****

فى لقائى التالى مع لطيفة رأيتها ثائره أكثر من أى مرة سابقة بادرتنى لائمة:- انقضت الشهور التى وعدتنى بها ولم تف بوعدك.

لفرط انفعالها عجزت عن الرد حدقت فى عينيها، لا أعرف لماذا ساورنى شعور غريب بأن هذه الفتاة تعانى من مس من الجنون، لعل ذلك من كثرة تناولها للخمور أو لمعاناتها النفسية الشديدة، قلت لنفسى:- هذه الفتاة على استعداد لفضحى عند أبيها فى أى لحظة من لحظات جنونها ويستطيع هو بسهولة أن يطيح بى خارج الشركة بجرة قلم.

لا يفصلنى عن هذا المشهد إلا لحظة تهور تمر بها، لحظة يقهرها فيها الحرمان الجسدى وتتصور إننى سببه ومصدره والمسئول عنه وتقرر الإنتقام، ستخبر أباها إننى قد غررت بها ووعدتها بالزواج ثم تراجعت يؤكد هذا موعدنا الماضى منذ سنوات ثلاث وفى نفس هذا الشهر

على التقريب، أخبرتنى فيما بعد إنها قد أخبرت أباها بأنها عدلت عن الفكرة وقررت تأجيل أمر الزواج بالكامل، فعلت هذا حتى تعفينى من الحرج الذى يمكن أن أشعر به تجاه أبيها.

رغم غرابة الموقف لم أسمع أن أباها قد اعترض أو سألها عن التفاصيل أو أى شيء من هذا القبيل... ترى ما هو شكل العلاقة بينهما؟ وهل يدرك ما تعانى منه ابنته من الجنون؟ أم أنه منصرف عنها لا يهتم إلا بعمله فى المؤسسة وباجتماعات الاتحاد الاشتراكى وكل ما شابه ذلك من أعمال... بقليل من التفكير توصلت إلى إنه من النوع الثانى الذى لا يعلم أى شيء عن حياة ابنته ومعاناتها ونزاواتها.

اضطررت فى ذلك اللقاء إلى اصطحابها إلى شقة أحد أصدقائى التى كنت احتفظ بمفتاحها معى.

كما توقعت، تبدأ لحظة الفعل عندها بمجرد أن يغلق باب الشقة خلفنا، كنا لا زلنا فى الردهة الضيقة التى تقود الى غرفة النوم، سارعت بالتجرد من ثيابها، كانت تتصور إننى لو رأيتها عارية فسوف أسقط صريع هواها وسوف تتدفق فى جسمى الشهوة بمجرد وقوع بصرى على جمال جسدها العارى غير المسبوق والحقيقة التى لا تدركها لطيفة هو إن مشهدها كاسية -على سوءه- أفضل بكثير من مشهدها عارية.

فى أول غرفة صادفتها ارتمت على الفراش على ظهرها فى دعوة رخصية للمضاجعة ولكننى لم ألب الدعوة ولم يكن ذهنى فى حاجة إلى استدعاء مشهد اغتصاب الجارة لى وأنا لازلت صبيًا، إن مشهد

الاغتصاب الجديد كفيل بخلق حالة من النفور تجعلنى استدير وأغادر الشقة دون أن أنظر خلفى.

وقفت مرتبكًا، تصورته ترددًا فنهضت بنصف جسدها العلوي ومدت ذراعين نحيلين لامسا أكتافى وجذبتنى نحوها جذبة قوية كانت كفيلة لسقوط جسدى فوق جسدها وأنا بكامل ثيابى.

دفنت شفتى فى عنقها وأغمضت عيني ورحتِ أتخيل الجسد المحبوب بين أحضانى، حتى أذنى لم تسمعا إلا صوت نظيرة متدللاً ومتأوهًا.

كنت لاأزال مسيطرًا على نفسى محافظًا على إرادتى فى الوقت الذى غابت فيه لطيفة فى أعماق لحظة الإنتشاء فى محاولة مستميتة لاستحلاب النشوة والحصول على عصارتها صافية ورحيقها نقيًا وعندما انتبهت إلى نفسها طالبتنى بالتجرد من ثيابى ولكننى أشحت عنها بوجهى رافضًا، ولكنها لم تمهلنى أو تهبنى فرصة الاختيار فمدت كفيها وشرعت فى تجريدى من ثيابى فكت أزرار القميص ثم دفنت شفتيها فى صدرى العارى ولم تمر إلا برهة قصيرة بعدها سمعت تردد صوت لهاثها عاليًا فأدركت أن الفتاة كانت قد احتست قدرًا كبيرًا من البيرة قبيل لقائى بها.

نهضت واقفًا قابضًا على ملابسى شارعًا فى إرتدائها فصاحت معترضة، لم أعر اعتراضها اهتمامًا وصحت بدورى أخبرها وأنا أنظر إلى ساعة يدى إن صديقى على وشك العودة إلى شقته مع أسرته.

ارتسمت علامات الغضب على ملامحها فملت برفق عليها وأنا أداعب صدرها العارى وهمست:- ألم تقضى وقتًا ممتعًا.

تبخر الغضب وتبدلت تعبيرات وجهها وقالت ضاحكة:- كل الإمتاع.

- إذن سيكون هذا عشنا فى الأيام القادمة.

معترضة قالت:- يجب أن تؤجر شقة لنا وحدنا.

تمتمت :- سيحدث بالتأكيد.

استطردت كأنها انتبهت إلى أمر غفل عنها:- وقبلها يجب أن تحدث الخطوبة.

- إن شاء الله، إنك تجهلين ما يحدث فى البلد وفى شركتنا.

- لا يهمنى الآن سواك.

ونهضت واقفة والتقمت شفتى بين شفتيها وغصنا فى قبلة طويلة حاولت خلالها أن تجذبنى إلى الفراش من جديد ولكننى رفضت ورحت ألتقط قطع ثيابها المتناثرة وأضعها فوق جسدها العارى.

فى اليوم التالى فوجئنا فى الشركة بخبر إقالة حامد بك الغزولى والد لطيفة، سمعت الخبر غير مصدق، كعادة مثل هذه الأخبار تظل مادة أحاديث الموظفين والعمال لوقت طويل ويمتد الاهتمام إلى أسرهم فيخوض فيها أيضًا زوجاتهم وأبناؤهم. ثم يفتر الاهتمام بالخبر تدريجيا حتى يكاد لا يذكره أحد وبعدها وعلى حين غفلة نسمع بالقرار حقيقة واقعة.

وإذا كانت مثل هذه الأخبار تحدث بالشركة كزلزال يلم بنا من وقت لآخر إلا أن درجة تأثيره تختلف من شخص لأخر.

هزنى الخبر من الأعماق وبدأت أحسب انعكاساته على علاقتى بلطيفة، صدقت الإشاعات التى أطلقها الكثيرون فى الشهور الماضية ولكننى أعترف أيضًا إنها تنطلق حول رفعت درويش رئيس مجلس الإدارة بطريقة أكثر كثافة وأكثر وضوحًا وذلك منذ أن عملت بالشركة منذ سنوات طويلة ثم صمتت واختفت الإشاعات لنفاجئ بالأمر كزلزال لا يستطيع أحد بالضبط أن يحدد موعده ومكانه ومدى تأثيره... آن الأوان لترحل لطيفة من حياتى فالشعرة التى كانت تربطها بى قد قطعت بإقالة والدها.

لم تمض ساعات على سماعنا الخبر حتى انتقل الحديث إلى من المرشح لخلافته؟ سمعت كما سمع العاملون بالشركة عن أسماء كثيرة كلهم من العاملين فى مؤسسة الغزل والنسيج ويبدو أن كل من يعرف اسم شخص أو قريب يعمل بالمؤسسة قام بترشحه للمنصب الجديد آملاً أن يتحقق حلمه. بسماعى أسماء كثيرة كلها مرشحة بقوة لشغل المنصب أدركت أن شيئا هزليًا يشغل قلب هذه التوقعات وانصرفت إلى مكتبى، انفردت بنفسى رحت أفكر فى ردود فعل لطيفة عندما ألقاها اللقاء الأخير، كيف سيكون موقفها وكيف أعلل لها هروبى منها سيكون من الصعب فك الاشتباك بين إنهاء علاقتى بها وإقالة أبيها من منصبه، ساورتنى فكرة التمهل فى تنفيذ خطورة الانفصال فمن الأفضل البدء بقراءة ردود أفعالها هى وأبيها تجاه الحدث، بل خطر فى ذهنى أن أطلبها الآن فى التليفون وأذهب للقائها مواسيًا

ومعزيا، فمن الحكمة المحافظة على كل الخيوط وكل العلاقات على شرط أن يكون لى حرية التحكم فيها فى أي وقت.

أدرت رقم هاتف منزلها فوجدته مشغولاً، أعدت المحاولة بعد عدة دقائق فوجدته على نفس الحال، أعدت المحاولة من جديد مرة ثالثة ورابعة وفى كل مرة أجد الخط مشغولاً، فكرت للحظات أن يكون هاتفهم معطل أو أن مكالمات طويلة تتم بين أبيها وآخرين خاصة بمسأله الإقالة التى عادة ما تحدث فى الأوساط العليا دون إبداء أسباب وفى نفس الوقت لا تعنى نهاية العالم بالنسبة للشخص المقال وغالبًا ما يترك منصبه ليحتل منصبًا جديدًا بعد عدة شهور أو عدة أسابيع أو فى اليوم التالى.

تلقيت مكالمة تليفوينة من الضابط صفوان المراغى، خفق قلبى بشدة إذ إنه لا يبادر بمحادثتى إلا فيما ندر.

- مبروك.

جاءنى صوته على الطرف الآخر.

لم افهم ما يقصده، قفز ذهنى الى أعضاء تنظيمى المعتقلين هل مات أحدهم؟ هل مات حسن منصور بالذات؟! إن هذا هو الأمر الوحيد الذى أتمنى أن يبارك لى المعارف والأصدقاء عليه، لعل أحكاما قد صدرت ضدهم أو حصلوا جميعًا على حكم بالبراءة، ازدردت لعابى والتقط أنفاسى وعقبت: بارك الله فيك ولكن على أى شيء بالتحديد.

- أبارك لك على المنصب الجديد.

مذهولاً سألت:- أي منصب؟!

أجابني بهدوئه المعهود:- منصب العضو المتندب، إننا لا ننسى رجالنا شرط أن يتساموا عن الأخطاء الصغيرة. لا أعرف ما ألم بي في هذه اللحظة، لا أدرى كيف أنهيت المكالمة، لا أعرف كيف نهضت واقفًا، غادرت مكتبي سرت في الردهة الطويلة التي تفصل مكتبي عن مكتب رفعت بك رئيس مجلس الإدارة، دخلت عليه مكتبه دون استئذان، لا أعرف لماذا فعلت هذا رغم إنه لم يكن من خطتي أبدًا أن أخلق عداءات مع الآخرين، إنني دائما أضع في حساباتي إنني سوف أحتاج لجهود الآخرين لمساعدتي على تحقيق أهدافي بدءًا من جهود السعاة وحتى جهود رئيس مجلس الإدارة ورئيس المؤسسة أيضًا.

انتبهت إلى نفسي عندما أصبحت أمام مكتبه مباشرة، بادرت بالاعتذار على اقتحامي مكتبه ولكنه لم يعر اعتذاري اهتمامًا، كان منهمكًا في تفحص بعض الأوراق أمامه.

تمتم دون أن يرفع بصره إلي:- خير.

- خير إن شاء الله تعلم سيادتك إن حامد بك الغزولي قد نحي عن منصبه.

لم يرفع رأسه عن الأوراق المبسوطة أمامه بل مرت غمامة قاتمة على ملامحه وهو يقول:- أعلم بالطبع.

- وهل تعلم سيادتك من الذي سوف يشغل منصبه؟

رفع رأسه إليَّ لأول مرة، كانت التعبيرات المختلفة تتلاطم فوق وجهه تساءل:- هل تقصد إنني قد قلدت هذا المنصب؟

- ليس بالضبط يا سيدى إن منصبك كرئيس مجلس إدارة لأكبر شركات الغزل بالبلاد أفضل بكثير من منصب العضو المتندب.

قاطعنى معترضًا:- غير صحيح فأنت لا تدرك قيمة أي منصب فى المؤسسة يقربك من رئيس المؤسسة ومن الوزير نفسه والآن قل لى هل وصلتك أخبار... تكلم.

كان صبر الرجل، المضطربة أفكاره، قد بدأ ينفذ.

بتواضع شديد قلت:- بعد إذن معاليكم لقد شغلت أنا هذا المنصب.

نحص واقفا مستنكرًا وهاتفًا:- أنت؟!

مواصلا استنكاره استطرد:- من الذى حمل إليك هذا النبأ؟

أسقط فى يدى كدت ألفظ باسم صفوان المراغى ولكننى نجحت فى إجهاض اللفظ على طرف لسانى، قلت محاولاً التخلص من تلعثمى ولعله أرجعه إلى ارتباكى أمامه:- قريب لى بالمؤسسة.

سأل مشككًا:- هل لك قريب بالمؤسسة؟!

- نعم إنه مجرد موظف صغير نقل إليَّ الخبر بعد أن علمه من مكتب رئيس المؤسسة.

تعمدت أن أظل واقفًا فلم يكن من عادتى أن أجلس أمامه قبل أن يأذن لى بالجلوس، تحول إلى الهاتف، خمنت إنه سيطلب مدير مكتب رئيس المؤسسة ليتأكد من صحة الخبر، حانت منه نظرة إليَّ، اكتشف إننى لازالت واقفًا فأشار لى بالجلوس.

- تفضل بالجلوس.

أحسست ان اللفظ يعانى وهو يخرج مقهورا مقتضبًا من بين شفيته، لقد أصبحت منذ هذه اللحظة منافسًا له بل إننى أصبحت أشغل المنصب الذى كان يتمناه لنفسه.

****

فوجئت كما فوجئ الجميع بنشوب الحرب، لم أكن قد أفقت من الهزة الجديد التى زلزلت حياتى ورفعتنى فى لحظات إلى الدرجات العليا كنت فى حاجة إلى ترتيب أوضاعى مع رفعت درويش والخاصة بالغزل الذى يتم تهريبه فى السوق السوداء، الآن فقط أستطيع أن أسأل لصالح من كانت تتم هذه السرقات؟، إن الأوراق التى لازلت أحتفظ بها كانت تتحدث عن الرجلين الكبيرين بالشركة الذى أقيل أحدهما واحتللت مقعده.

صدرت لى تعليمات صفوان المراغى بضرورة المرابطة بصالون زاهية زهدى، ذهبت بذهن غائب وقلب خافق، لم تتح لى الفرصة للإستمتاع بلقاءات نظيرة، كما لم تتح لى الفرصة للتخلص برفق من لطيفة التى هاتفتنى قائلة:- فهمت الآن ماكنت تعنيه بما يحدث فى الشركة وفى البلد.

تصورت خطأ إننى كنت على علم بأمر إقالة والدها وأمر نشوب الحرب مع اسرائيل، الأمران اللذان جريا فى يومين متتاليين، زلزال عينف هز البلاد وهزنى ووجدت نفسى قابعًا فى ركن صالون زاهية زهدى أتأمل وجوه المتحدثين والمتحدثات، برزت فى تلك الأيام صباح

عروس الصالون وابنة زاهية زهدى، فاتنة فى مقتبل العشرينات تتحدث بطلاقة فى الأمور السياسية العميقة التى لم يكن يجيدها إلا رمزى ياسين، تعمل صحفية تحت التمرين بمجلة ثقافية.

تهتم بملابسها ومكياجها كما تهتم بثقافتها وقراءاتها، قضيت السهرة أتابعها بنظراتى وخاصة فى الجزء الأخير من السهرة عندما توقف الحديث عن الحرب وساد الصمت المكان إلا من صوت الشيخ إمام الذى يأتينا عبر الكاسيت.

جرف الحماس الجميع وراحوا يرددون مقاطع من أغانيه وسرحت أنا فى بساطه الملبس والمكياج والأداء... نوع ثالث من النساء تنتمى إلى جيل هناء وحنان نظيرة وأناقة لطيفة.

انتهى الغناء وتهيأ الحاضرون للإنصراف ولم تمض سوى برهة قصيرة حتى خلا المكان من الرواد ومع ذلك ظللت جالسا قبالتها، رغم انتصاف الليل لم يبد عليها أثر للنعاس، كانت على نفس حماسها الذى بدأت به السهرة، بعد انصراف أمها إلى داخل المنزل لم يبق سوانا بالصالة الواسعة رحت أفكر فى حديث ممكن أن يجمعنا سألتها:- ألا توجد أخبار عن الزملاء بالحضرة.

حلقت بنظراتها لحظة فى سماء المكان ثم بدا عليها كأنها تذكرت أمرًا غاب عنها وقالت:- إنهم بخير وقد بعثوا ببرقية لرئيس الجمهورية يؤيدون فيها الحرب ضد اسرائيل.

ها هى تعرف الأخبار قبل أن أعرفها، إن الأخبار تنقل إلى خارج السجن عن طريق آخر لا أعرفه، قلت لنفسى:- هذا لا يهم الآن

كل ما يهمنى هو أن يستمر الحديث بينى وبين تلك الغادة الحسناء سألتها:- أترين هذا موقفًا مبدئيًا من الزملاء؟ أعنى تلك البرقية المرسلة لرئيس الجمهورية.

أجابت جادة:- أفهم ما ترمى إليه، تقصد كيف يرسلون البرقية وهم يعلمون إن الحرب كلها لتحريك القضية وليس لتحرير الأرض أنها حرب فى إطار الاستسلام كما كان رأى أغابنا الليلة. بالطبع لم أكن أقصد ما تفوهت به، خاصة أن رأيى هو تأييد رئيس الجمهورية فى كل الأحوال، بالطبع لم أبح لها بما يدور فى خاطرى ومع ذلك هرزت رأسى متظاهرًا بالتفكير والفهم وفى داخلى كنت أضحك ساخرًا من هؤلاء الشيوعيين الذى تغلبهم حماستهم على أمرهم فلا يلتفتون إلى ما يقوله الآخرون ولا إلى ما يقصدون، بل إنهم يفسرون ما يسمعون طبقًا لأهوائهم ويتصورون آراءهم بديهيات يعرفها العالم ويصدقها كما يعرفونها ويصدقونها.

أشفقت على هذه الغادة البريئة من حماستها التى قادتها إلى البلاهة.

قلت لها بعد عدة إيماءات متتالية من رأسى:- نعم...... نعم هذا ما أعنيه بالضبط.

استطردت موضحة:- ومع ذلك يبقى تأييدنا للحرب فى حد ذاته أمرًا صحيحًا وهذا هو ما استهدفه الزملاء من برقيتهم.

هزرت رأسى موافقًا، كنت قد بدأت اتثاءب فى النصف الأخير من السهرة، تضاعفت تثاؤباتى فآثرت الانصراف ونهضت محييا،

مدت يدها مسلمة، حدقت فى عينيها ولكن لم أحصل إلا على نظرة محايدة

****

رغم ظروف الحرب وحالة الطوارئ التى تمر بها البلاد، رحت أحاول ترتيب نفسى بما يتناسب مع المنصب الجديد، لاحقتنى لطيفة بتليفوناتها بطريقة أزعجتنى فأبلغت مدير مكتبى بضرورة إخبارها بأننى فى سفر دائم.

جاءت تهنئة حسنى النجار لى بالمنصب الجديد على هيئة كم ضخم من الإعلانات، كان يدفع الأشخاص والهيئات لتهنئتى فى جريدته وعندما وافانى فى مكتبى سألنى:- لعل حملة التهانى قد أعجبت سيادتكم.

متأففًا أجبته:- أنت تعرف رأيى.

- أعرفه فسيادتكم تكره الدعاية المباشرة ومع ذلك ماذا كنت أستطيع أن أفعل لأوقف سيل التهانى الذى انهمر على جريدتنا.

ضحكت ساخرًا:- دعك من هذا يا حسنى فكر فيما هو قادم أريد أخبار شركات الغزل والنسيج الأخرى.... أخبار السرقات والإختلاسات والعمولات والصفقات، عين لنا رجلا فى كل شركة وأنا على استعداد لدفع أجر ثابت له مقابل كل ما يوافينا به من أخبار.

متملقا قال:- ما أجمل أفكار سيادتك!

واصلت حديثى:- أريد كذلك أن تتابع أخبار وزيرنا ونوابه ورئيس مؤسستنا فأنت تعلم إن العلم نور.

انهارت عبارات التملق فوق رأسى فصرفته من مكتبى متعللا بانشغالى.

ضاعفت المبلغ الشهرى المخصص لنظيرة وأولادها ورغم إننى يجب أن أقبضه من أمن الدولة إلا إننى لم أجرؤ على محادثة صفوان المراغى فى مثل هذا الأمر لأن التنظيم تنظيمى بكل تكاليفه وقد قدمته هدية للنظام الذى كافئنى بترقيتى إلى مرتبة لا يمكن أن يحلم بها موظف فى مثل سنى.

أصبحت نظيرة وأولادها يعيشون أفضل مما كانوا يعيشون قبل القبض على عائلهم، طلبت منها أن تغير ثيابها السوداء التى اعتادت على ارتدائها منذ اعتقال زوجها. وبما أن العام الدراسى قد أصبح على الأبواب أعطيتها مبلغ مائة جنيه لتشترى بهم ملابس جديدة لها وللولدين.

فى كل مرة كنت أعطيها نقودًا تفاجأ بمبالغ أكثر مما تتوقع وسرعان ما ترتسم فى عينيها الجميلتين نظرة امتنان وعرفان بالجميل حتى يخيل لى إنها على وشك أن تنهال على يدي التى تقدم لها النقود بالقبلات وتمنيت أن تفعل هذا لأنهال بدورى بالقبلات على وجهها ولكنها لم تفعل ولم يتعد الأمر حدود النظرات الشاكرة والدعوات الحارة لى بطول العمر ودوام الصحة والعافية.

بدأت أحداث الثغرة، انقلبت الحرب من الشرق إلى الغرب بعد أن كنا قد خضنا فى اتجاه الشرق نحو عشرة كيلو مترات، كان السؤال الحائر على الشفاه والألسنة والعيون لماذا لا نتقدم شرقًا بأكثر من

هذه الكيلو مترات العشرة؟ لماذا لا نقوم بتحرير كامل التراب المصرى مادمنا قد نجحنا فى العبور واختراق الساتر الترابى وتحطيم خط بارليف؟ فعلنا كل هذه الأمور فى ساعات معدودة لماذا توقفنا بعدها؟ ولماذا أضعنا الوقت فيما يسمونه وقفة تعبوية لابد منها، وقفة أخذت من الزمن ضعف زمن الحرب الفعلية ثم انقلبت الآية وأصبح علينا أن ندافع عن أنفسنا.

شعرت بحركة غير عادية أمام مكتبى الجديد الملاصق لمكتب رفعت دوريش، طلبت من مدير مكتبى أن يستطلع الأمر، أخبرنى أن خبرًا سيئًا قد ألم بزوج مدام خديجة الضمرانى مديرة مكتب رفعت بك، خرجت من مكتبى مسرعًا هل استشهد زوجها أم أن الأمر مجرد إصابة وما مدى الإصابة؟ إن الأمر يستدعى أن أكون بجانبها، وقد كان خصام قد حدث بيننا منذ ذلك الموعد الذى لم أذهب إليه، وعندما عينت فى منصبى الجديد وقدمت وسط المهنئين ومدت يدها مسلمة ومهنئة متحاشية تلاقى نظراتنا، احترمت رغبتها واحترمت قدومها لتهنئتى وقبلت تحيتها بنظرة محايدة وفى المساء حلمت بجسدها البض بين أحضانى.

كانت جالسة على مكتبها دافنة وجهها بكفيها تبكى، بدخولى إلى مكتب السكرتارية انتبه الحضور لقدومى فأسرعوا يفسحون لى الطريق إليها، كأنما انتبهت لقدومى فنهضت واقفة ربت على كتفها أخبرتنى إن زوجها قد أصيب بشظية فى بطنه وإنه قد نقل إلى المستشفى العسكرى بالإسماعيلية أمرت لها بعربة ومدير العلاقات العامة وبأقرب صديقاتها إليها من الموظفات وقمت بتوقيع أجازة

مفتوحة لها حتى تطمئن على زوجها وأخبرتها إننى سأتابع الأمر معها بالتليفون.

سعدت بما فعلت وشكرت الظروف التى جعلت رفعت دوريش غائبًا فى هذا الوقت بالذات لأتمكن أنا بالقيام بمثل هذا الواجب الذى اندفع الموظفون بعده يوجهون لى التحية والشكر فأمرتهم برفق بالانصراف إلى مكاتبهم فأطاعوا شاكرين.

فكرت فى تغيير شقة أحمد أبو سليمان بشقة أخرى تتناسب مع منصبى الجديد كانت شقة مناسبة لى من جميع النواحى عندما قمت بإستئجارها عقب تعيينى بالشركة أما الآن وبعد أن تدرجت من موظف فى إدارة العلاقات العامة إلى مدير للإدارة ثم عضو منتدب للمؤسسة بمجلس الإدارة وجدت أن من الواجب أن أبحث عن مسكن يتناسب مع المنصب الجديد.

سأفتقد التواجد فى بيئة العمال التى أستقى منها أخبارى التى هى رأسمالى فى التعامل مع أمن الدولة ولكن حتى هذه الأخبار لم تعد تهمنى.

وقع اختيارى على منطقة جليم للبحث عن مسكن، وكنت لا أزال أتردد على صالون مدام زاهية لمتابعة انعكاسات أخبار الحرب على رواد الصالون، ذهبت مبكرًا قبل موعد الجلسة المعتاد بساعة كامله، أعربت لها عن رغبتى فى مساعدتها للحصول على شقة بحي جليم، أخبرتنى أن هناك شقة بنفس العمارة التى تقطن بها سوف تخلى بعد حوالى ثلاثة أسابيع من سكانها اليونانيين وذلك بسبب مغادرتهم للبلاد.

ولكن مدام زاهية توقفت فجأة عن الحديث لتخبرنى إن الشقة على الأغلب لن تناسبنى بسبب اتساع مساحتها.

قلت ضاحكا: على العكس ستناسبنى فمن المفروض إننى سأتزوج فى يوم ما وستكون لى أسرة كبيرة.

ضحكت فلمحت غمازتين جميلتين بوجنتيها، تذكرت ابنتها، لا شك إنها كانت فى شبابها أجمل من ابنتها، همست لنفسى لو أن هذه المرأة أصغر عمرًا بنحو عشر سنوات فقط لفكرت جديًا فى الزواج منها.

انتبهت من أفكارى العابثة عبث المراهقين على سؤالها الذى سبق أن باغتنى به صفوان المراغى:- على فكرة لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

لم نكن فى سابق لقاءات الصالون قد تعودنا على الحديث فى أمورنا الشخصية لذا اقتحمنى سؤالها اقتحامًا ولم أعرف بماذا أجيب.

قرأت فى عينيها نظرات مرحة فتذكرت صباح، خشيت أن يميل النقاش نحوها، لا شك إنها ستكون زوجة صالحة ولكن أين موقعها من أحلام الصعود، تحولت النظرات إلى نظرات مرحبة تنتظر الإجابة على السؤال لذا هربت بنظراتى من نظراتها وأنا أقول:- سوف يحدث بالتأكيد فى يوم ما.

عدت بسرعة إلى الحديث الذى خشيت أن ننحرف بعيدًا عنه، حديث الشقة وأصحابها اليونانيين والمبلغ الذى يمكن أن يطلبوه كخلو رجل، سألت عن مالك العمارة فأخبرتنى أنهم مجموعة ورثة لم يبق

منهم على قيد الحياة سوى سيدة عجوز من السهل التفاهم معها حول نصيبها من خلو الرجل.

بدأ رواد الصالون فى القدوم فأنهت الحديث معى بأن وعدتنى إنها ستتولى أمر الشقة بكامله، ستحصل لى على أنسب خلو رجل وأنسب إيجار.

****

فى طريق عودتى إلى منزلى فرضت صباح صورتها على خيالى، زوجة مناسبة من جميع الوجوه إلا وجه واحد، حتى زاهية زهدى ترى نفس الرؤية وبالطبع لم تتوصل إلى الوجه غير المناسب الذى أقصده.

وقع اختيار المرأة عليه لمركزه ووسامته وثقافته ووقع اختياره عليها لثقافتها ولجمالها ولأناقتها ولشبابها فهى أصغر من نظيرة بأكثر من عشرة أعوام كاملة.... لماذا لم أنتبه لها منذ زمن بالتحديد منذ ارتيادى الصالون لأول مرة، اكتشفت أن السبب كان يكمن فى رمزى ياسين الذى كان شغلى الشاغل.

سرح ذهنى إلى موقع الصالون من الحركة السياسية بالإسكندرية، لقد وصفه صفوان المراغى ذات مرة إنه يمثل حزبًا بأكمله.

وعندما سألته لماذا لم يقبضوا على زاهية زهدى ذاتها.؟

أجابنى:- هذه أسباب أولها إن الأوامر تقتضى أن يكون القبض على النساء فى أضيق الحدود وثانيها إن صالونها يقوم بدور المصيدة مثل تنظيمك الذى كان، وليس من المناسب أن نغلق مصيدتين فى آن واحد.

بعدها صمت مفكرًا فقال ساخرًا ومؤنبًا:- إنك ناكر للجميل يا أستاذ مدحت.

هتفت مستغربًا:- أنا.؟

أجابني:- نعم أنت ألست مدينا بالفضل فى اصطيادك رمزى ياسين لهذا المكان الذى تطالبنا بإغلاقه؟.

أعلن وقف إطلاق النار، سرت الراحة فى بعض النفوس، اشتعل صالون زاهية زهدى بالغضب، صرحت صباح:- كما توقعنا ليست حربًا إنما مناوشات عسكرية يمرر من تحت دخانها صكوك الاستسلام، فى الوقت نفسه اتصلت بمدام خديجة لأطمئن على زوجها وكنت أوالى الاتصال بها يوميًا منذ علمت بإصابته، نقل إلى مستشفى مصطفى كامل العسكرى، ذهبت لزيارته بصحبتها، كانت المرة الأولى التى أراه فيها وهو بدون ساقين، اضطر لبترهما معًا، استنتجت من بعض تلميحاتها إنه فقد مع ساقيه رجولته.

واسيتها بكل ما استطعت من كلمات، كانت روحه المعنوية عالية ذكرتنى بحسن منصور وهو داخل السجن، هل يتظاهرون بأنهم سعداء حتى لا يشمت فيهم الآخرون، هل يتظاهرون بالسعادة حتى يتباهوا بها علينا؟ أم أنهم فعلاً سعداء وأنا وحدى الذى أعانى من التعاسة بسبب عدم رضائى بواقعى أو بما قسم الله لى كما يقولون.

فى أثناء عودتنا ذكرتنى خديجه بموعدى الذى لم أذهب إليه فادعيت أن طارئًا ما منعنى من الذهاب وعندما سألتنى عن الطارئ

الذى ادعيه أدعيت نسيانه، التفتت إلى وكانت تجلس بجوارى فى عربتى فى طريقنا إلى منزلها.

رمتنى بنظرة حانية أدركت ما يدور داخل رأسها همست لنفسى معترفًا إنى أريدها كما تريدنى وأعترف إننى عندما سمعت بإصابة زوجها الخطيرة تمنيت وفاته حتى أستطيع الانفراد بها دون خوف من اقتحام مفاجئ وقضية زنا إلى أخر هذه الأمور التى تهدم الجسور.

أوصلتها إلى منزلها، قبل أن تغادر العربة مالت على هامسة:- ها أنا أكرر لك الميعاد الذى نسيته.

طالعتها مليًّا وربت على كتفيها وقلت:- فلتظلى بجانب زوجك هذه الفترة.

حدقت فى وجهى غاضبة وانسحبت الابتسامة من فوق ملامحها وانقلبت فى لحظة إلى ذئبة شرسة وغادرت العربة وصفقت الباب خلفها وسمعتها تحدث نفسها بصوت مسموع:- ابن كلب والله ابن كلب.

أدركت إنها تعنينى، ليس هناك غيري يستحق هذا السباب الآن بعد أن جرحت مشاعرها بكل هذه القسوة، الله يعلم إنى أريدها كما أريد صباح ونظيرة وحتى شمس ولكن يجب أن تعلم إننى جبان، جبان أيتها الجميلات، لا أجرؤ على الفعل إنما أنا فى أغلب الأحوال مفعول به والوحيدة القادرة على الفعل هى لطيفة، لعنت جبنى وفى رؤى تلك الليلة المنامية اختلطت صور زوج خديجة بحسن منصور بأختى هناء فنهضت فزعًا بعد أن رأيت هناء تستغيث بى باكية.

عقب استيقاظى رحت أتساءل عن مصير هناء، ماذا تفعل فى ليبيا الآن؟ هل تستوجب كرموز زيارة منى؟ سوف يكون هذا أمرًا شاقًا بعد أن خلت كرموز والأسرة برحيل هناء من كل نسمة طرية. لن أجد غير أبي وظله عطية. ظللت مستيقظًا حتى الصباح أفكر دون أن أصل لقرار. هل أذهب لكرموز للسؤال عن هناء متحملا شتائم أبى وسخريات أخى أما أظل فى ابتعادى عن هذه الأسرة بخيرها وشرها حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

غادرت الفراش عند صلاة الفجر، توجهت إلى الحمام توضأت ووقفت أصلى، سرح ذهنى فى الخطوات التى اتخذتها مع رفعت دوريش لمضاعفة دخلى ودخله عن طريق شحنات الغزل المهربة إلى السوق السوداء.

صارحنى بأنه كان دائما مع فكرة مضاعفة الكمية للفوز بأكبر ربح نتصدى به لغلاء الأسعار الذى تضاعف فى السنوات الأخيرة.

لم أستطيع إكمال الصلاة، قمت بالتسليم يمنة ويسرة منهيًا صلاتى دون إكمالها، لم أنجح لحظة فى الوقوف بين يدي الله، سرح ذهنى فى أمور عديدة لعل أهمها الآن تلك الصفقات التى أعقدها مع أصحاب مصانع النسيج بالقطاع الخاص وذلك للحصول على مبلغ يساعدنى فى دفع خلو رجل شقة جليم.

استقبلت الصباح البارد بذهن غائب، رحت أتنفس البرودة آملاً أن تهدأ النار المشتعلة فى داخلى، انطلقت بعربتى أجول فى شوارع

الإسكندرية الخالية، قادتنى العربة إلى منزل زاهية زهدى، لمحت صباح خارجه فى طريقها إلى عملها.

ذكرنى مرآها بالندى، بالشروق، بكل الأشياء الوليدة، اقتربت، أوقفت العربة، وتوجهت إليها تهللت لرؤياى وسألتنى عن سبب تواجدى بجليم فى هذا الوقت المبكر من الصباح قلت باسمًا:-

- إننى أتفحص الحى الذى سوف أقطن فيه فى كل ساعات النهار والليل.

ضحكت، عرضت عليها أن أقوم بإيصالها إلى عملها بعربتى اعتذرت قائلة:

- إنه قريب فضلاً عن إننى أفضل القيام بهذه النزهة كل صباح.

- إذن إسمحى لى بمرافقتك.

أو مأت مبتسمه:- الشارع ملك الجميع.

قطعنا الشارع القصير المؤدى إلى موقع مكتب المجلة التى تعمل فيها فى دقائق معدودة سألتها خلالها عن نتائج مفاوضات أمها مع اليونانيين وكذلك مع المالكة العجوز فأجابتنى بأن كل شيء يسير على ما يرام وهذا كل ما تعرفه من أمها.

ودعتها والحيرة فى داخلى تتضاعف، كيف أمتلك القوة على اتخاذ قرار؟!!

قدت العربة فى اتجاه الشركة والأفكار تتلاطم فى رأسى وأوجه المقارنة ماثله فى خيالى بقوة بين نظيرة وصباح وما إن دخلت مكتبى

حتى فوجئت بلطيفة تنتظرنى جالسة تدخن واضعة ساقا فوق ساق، طالعتنى بعينيها الحمراوين من طول السهر واحتساء البيرة، قفز قلبى بين ضلوع فقد توقعت الشر كله فى هذا الصباح الذى بدأ برؤى كابوسية ثم أرق شديد قادنى إلى صباح وقاد لطيفة إلى مكتبى، لم يجرؤ أحد على التعرض لها وهى ابنة سيدهم القديم.

قرأت فى حمرة العينين التحدى، رغبة حادة فى صنع فضيحة، تقدمت منها مرتبكًا زكمت أنفى رائحة الخمر تفوح فى المكان، لا شك إنها قضت ليلتها ساهرة تشرب وتعد العدة للإنتقام وما إن أشرق الصباح حتى توجهت إلى مكتبى وقد دخلته حتى قبل أن يتمكن الساعى من تنظيفه تلعثم لسانى بتحية الصباح وجلست أمامها أبحث عن بداية للحديث فلم أجد، فى الوقت نفسه لم أستطع أن أرتدى ثوبًا غير ثوبى وأصيح مهللاً متظاهرًا بالسعادة لوجودها رغم إننى أفعل هذا كثيراً مع الزملاء والمعارف بنجاح ولكنى هذه المرة وقفت عاجزًا أصابنى ارتباك حقيقى، تضاعف ارتباكى بتلك الرائحة الفائحة فى المكان.

أخيرًا وفقت إلى طرف حديث معها، كنت قد سمعت منذ حوالى إسبوع عن مرض ما ألم بأبيها، تجاهلت رائحة الخمر والزيارة الصباحية المفاجئة وسألتها:- كيف حال الوالد، لقد سمعت بمرضه أمس فقط وكان فى نيتى زيارتكم مساءً.

قاطعتنى معترضه:- لا يهمنى زيارة والدى المريض يهمنى زيارتى أنا كان صوتها مرتفعًا أكثر من اللازم فحاولت تهدئتها.

- أرجوك خفضى من صوتك إن كلماتك تصل تفاصيلها واضحة إلى الموظفين بالخارج.

ساخرة قالت:- وهذا ما أقصده بالضبط فليسمع الجميع بقصة نذالتك وخستك، يجب أن يعرفوا حقيقة مدحت بك الزينى الذى جلس على مقعد الرجل بعد أن غرر بابنته.

هامسًا وراجيًا قلت:- أرجوك دعينا نتفاهم.

أرخت جفونًا سوداء فوق عيون حمراء من أثر الشراب وقالت

- هات ما عندك

- المكان غير مناسب وكذلك الزمان.

بإصرار أجابتنى:- على العكس إنه يناسبنى للغاية.

بعد إلحاح شديد وافقت على تغيير المكان وإن أصرت على أن يكون زمن التفاهم هو التو واللحظة.

غادرت المكتب لتنتظرنى فى عربتها، طلبت البوستة من السكرتيرة ثم ألقيت بها جانبا، رفعت سماعة التليفون وتظاهرت بإننى أتحدث مع مسئول ما بالمؤسسة ونهضت واقفًا موحيًا للسكرتيرة إننى ذاهب فى مهمة تتعلق بالعمل.

فى الخارج، سارعت متلصصًا إلى عربة لطيفة التى كانت تقف على بعد كاف من الشركة.

كان يجب إجراء كل هذه التمثيلية حتى لا يتصور أحد بعد أن سمعوا صراخها إننى قد غادرت الشركة معها.

أعرف إن عشرات الأقاويل والشائعات سوف تنتشر إن لم تكن قد انتشرت فعلاً حول الزيارة الصباحية المفاجئة والعيون الحمراء المسهدة والوجه القانى المربد بالغضب وغير هذا رائحة الخمر المنبعثة من فم ابنة العضو المنتدب السابق ثم أخيرًا تلك الضجة والخناقة التى افتعلتها معى عند حضورى.... كلها مفردات تحتمل العديد والعديد من التفسيرات وتحمل زادًا ثمينا لجلسات النميمة.

تهالكت جالسًا فوق المقعد الخالى بجوارها فى العربة، لم تنتظرنى حتى أغلق الباب فأدارت السيارة وانطلقت بسرعة، هتفت منزعجًا ومتسائلاً:– إلى أين؟

أجابت غاضبة:– إلى بابا.

متجاهلاً كل ما يدور بذهنها قلت:– إننى مدين للرجل بزيارة عافاه الله وشفاه.

صعدت الدماء إلى وجهها حارة قانية حتى خيّل لى أن تقاطيعها الغليظة سوف تتفجر بالدماء بعدما تحول سمارها إلى دكنة مخيفة قالت:– إنك ذاهب إلى بابا الآن لتطلب يدى.

أدركت إننى مختطف وأن ما يشاع عن إن كل شيء يمكن أن يتم وينجز عبر المعارك عدا الزواج الذى يجب أن يتم بالاتفاق هو مجرد شائعة كاذبة فها هى إجراءات الزواج بدءًا بالخطبة سوف تتم بمعركة حامية الوطيس، كان لا يمكن مقاومة ثورتها فتظاهرت بالاستسلام وأنا أفكر هل تتخذ لطيفة الغزولى القرارا وتحسم ترددى فى تحديد المرأة التى أرتبط بها فتجعلنى أعدل عن صباح ولا أفكر فى نظيرة ويكون

مصيرى هو الزواج منها، أحسست إننى مقاد إلى نهايتى التى كثيرًا ما تمنيت ألا أصل إليها.

لم تمض سوى دقائق حتى توقفت أمام عمارتها بشارع الإقبال، قادتنى للصعود إلى شقتها ثم قادتنى إلى فراش الرجل المريض وهناك بدا لى إننى أرى رجلاً غير الرجل وكأن مرور تلك الفترة الوجيزة على تركه المنصب قد أضافت إلى عمره عمرًا جديدًا، انكمش الجسد وتضاءل بشكل ملفت وتجلت التجاعيد واضحة زاعقة فى الوجه والعنق واليدين.

إن المقعد يضيف إلى صاحبه مهابة ورونقًا يفقدهما عِقب مغادرته له، ها هو فى بيجامة حريرية يحتل حيزًا محدودًا من الفراش، أين ما أراه الآن من حامد بك الغزولى الذى كان يحتل بجسده وصوته ومهابته طابقًا كاملاً فى مبنى إدارة الشركة، ورغم معرفتى الطويلة به إلا إننى اكتشفت أنه أضأل جسدًا وأقصر قامة مما كنت أتصور.

سألنى بصوت واهن عن أخبار الشركة، حدجته بنظرة فاحصة فتبينت إنه لم يقصد بسؤاله إلا الإطمئنان الفعلى عليَّ وعلى الشركة، ساورنى شعور قوى بالإشفاق عليه، أحضرت لطيفة العصير بنفسها بسبب تغيب الخادم فى هذا الوقت من النهار، أخبرتها إننى سوف أشرب العصير فى الصالون حتى لا نثقل على حامد بك.

عقب مغادرتى غرفته سألتنى هامسة:- هل تطرقت إلى الموضوع؟

تمتمت معتذرًا:- إن حالة الرجل لا تسمح.

حدجتنى بنظرة نارية وهى تضغط على أسنانها حتى كادت تهشمها:- بل تسمح.

شعرت أن جمرات من اللهب تنبعث من عينيها، رحت أؤكد متوسلاً:- صدقينى إن حالة الرجل لا تسمح.

دفعتنى فى صدرى، أزاحتنى عن فوهة باب غرفة أبيها واندفعت إلى داخلها وهى تقول مهددة:- سترى كيف إنها تسمح.

واستطردت محدثة أباها، وصلنى صوتها مسموعًا:- إن مدحت يريد أن يحدثك فى موضوع هام.

انتابنى ارتباك شديد عندما سمعت عبارتها، فكرت أن أغادر المكان فورًا ولكن ساقى لم تطاوعنى، أنقذنى صوت أبيها الواهن يحدثها: - إننى متعب فلتأجلى أى موضوع لوقت آخر.

نزلت كلماته على نفسى بردًا وسلامًا، غادرت الغرفة غاضبة وصفقت الباب خلفها بصوت مسموع جعل الهدوء يسرى إلى نفسى، قلت محاولاً إخفاء فرح شعرت به يمرح فى داخلى فى هذه اللحظة:- ألم أقل لك إن حالة الرجل لا تحتمل... إهدأى غدًا سأزوركم مساءً.

اكتشفت فى هذه اللحظة أن الشقة خالية إلا منى ومنها والرجل المستغرق فى مرضه نبهنى الى هذه المسألة ومضة ومضت بنظرتها إلىَّ أعقبتها خطوة صغيرة فى اتجاهى حتى حاذتنى، لم يكن هناك مفر من إطفاء النيران بدفعة قوية من الماء البارد، تلقيتها بين ذراعيّ وطبعت قبلة طويلة على وجنتها فشعرت بجسدها يتراخى بين ذراعيّ وكأنها فقدت كل قدرة على المقاومة، أشارت بذراعها الملتف حول ظهرى بما يعنى التوجه لغرفة جانبية لا شك أنها غرفة النوم ولكنى فضلت فى

هذا الوقت من الصباح والمريض معرض للزيارة من قبل معارفه وأصدقائه أن نمارس ما يمكن أن نمارسه من تبادل الأحضان والقبلات بصالة الشقة الواسعة.

مضت نحو ساعة ونحن غارقين فى نشوتنا، أعترف أننى كنت أنتشى وأننى فزت بلذة خالصة بين ذراعي تلك الفتاة الشهوانية التى لم تتذوق طعم القبلات إلا على شفتي ولم تتلمس مذاقًا للذكورة إلا بين أحضانى؟؟

اكتشفت أن رغبتها القوية تضيف على الممارسة طعمًا جديدًا يجبر الطرف الآخر على التمتع والانتشاء مهما كان نافرًا أو حتى كارهًا، أن اللذه تسربت إلى حواسى عندما شعرت أننى الفاعل ولست المفعول به، عندما فارقتنى صورة جارة أمى وهى تحاول اغتصابى قبل أن أكمل العام السادس عشر من عمرى، عندما فارقت مخيلتى هذه الصورة فارقنى الإحساس بإننى أُغتصب فشعرت لأول مرة بلذه قبلاتها على شفتي، مع ذلك ما إن انتهينا من أمرنا ووقع بصرى على تقاطيعها الغليظة وبشرتها الداكنة حتى عاودتنى مشاعر إننى أُغتصب.

ما كدت أصل إلى مكتبى بالشركة عائدًا من شقة لطيفة حتى سمعتها تصرخ فى التليفون:– لقد دخل أبى فى غيبوبة، اكتشفت هذا عقب رحيلك مباشرة واستدعيت له طبيب بالعمارة فأوصى بضرورة نقله إلى العناية المركزة.

كأن هذه الفتاة قدرى ها هى تغرزنى فى حياتها يومًا بعد يوم ولحظة بعد لحظة لم تجد غيرى لتستغيث به عندما دخل أبوها فى غيبوبة بينما كانت تشبع شهوتها بين أحضانى على بعد متر ونصف من فراشه، إنها رغم معرفتها وإدراكها لحقيقة مشاعرى تجاهها تعتبرنى رجلها وتفرض عليَّ القيام بهذا الدور.

غادرت مكتبى مسرعًا عائدًا إلى منزلها بشارع الإقبال وهناك تلقيت رسالة عن طريق البواب أخبرنى فيها بأنهم توجهوا بالبك إلى مستشفى خاص يقع بنفس الشارع.

أمام غرفة العناية المركزة كانت تقف مضطربة، زادت ملامحها قتامة على قتامتها برز أنفها الضخم، بدا كأنه على وشك أن يثب مغادرًا وجهها، ما إن وقع بصرها عليَّ حتى قفزت تستقبلنى فى خطوتين وفى الخطوة التالية ألقت بنفسها فى أحضانى وانخرطت فى البكاء.

بذلت جهدًا مضاعفًا فى محاولة لتهدئتها فالمكان غير مناسب للمشاعر الحارة خاصة إذا تطورت وتضاعف انفعالها.

أجلستها فوق أقرب مقعد وجلست بجوارها وأنا أربت على كتفيها، سألتها عن حال والدها فأنبأتنى أن الأطباء يتخوفون من حدوث نزيف بالمخ.

غمغمت:- ربنا يستر.

باختفاء هذا الأب أستطيع أن أحذف هذه الفتاة من حياتى وسوف أضرب بتهديداتها عرض الحائط، سوف يبدو الأمر وقتها كأن الفتاه متألمة لاحتلالى مقعد أبيها الراحل، سوف تفقد سطوتها التى

كانت منذ شهور قليلة ملء السمع والأبصار، كانت تستقبل فى حفلات كبار القوم وكانوا ينحنون على يديها لثمًا وتقبيلاً، وقد تمنيت وقتها أن أتزوجها كما تمنى هذا كثير من الشباب المتطلعين إلى مكانة أبيها ولكن بذهابه سوف تتغير أشياء كثيرة وتنقلب كل الأمور رأسا على عقب.

****

طالت الغيبوبة بالأب لثلاثة أيام مللت ملازمتها، مللت دموعها مللت أن أبثها عواطف كاذبة وعبارات مواساة متكررة، أصبحت على استعداد أن أعلن لها صراحة عن قرارى الذى أجلته حتى يحل الموت أو حتى الشفاء الذى لن يأتى كاملاً فى أفضل الأحوال.

هربت إلى صالون زاهية باحثًا بعقلى وقلبى وعيناي عن صباح، تلك الإشراقة الندية التى تمثل الطرف المقابل للطيفة، قضيت ليلة بصالون أمها كنت فى حاجة إليها، لم أملّ التأمل الحالم فى تقاطيع الوجه الطفولى، غاب خيال نظيرة فى ركن مكين من الفؤاد، لا أحتار أبدًا فى تفسير مشاعرى فتلك الأخيرة تحتل مكانة أبعد ما تكون عن المكانة التى تحتلها صباح التى تمثل الإشراق والبراءة والطفولة والحماس الجميل أما نظيرة فهى الحنان والأم والأخت التى سافرت إلى هناك ولا أعلم عنها شيئًا تمثل كيان الأسرة التى تخليت عنها وسقطت فى حب نظيرة تكفيرًا عن ذنب عظيم ارتكبته. ارتفعت حدة المناقشات السياسية عقب إعلان وقف إطلاق النار ثم صارت إلى الانخفاض حتى باخت ثم عادت من جديد تكتسب حرارتها مع كل خبر جديد

ونبأ مثير يصرح به السادات، فجرى الحديث عن زيارة كسينجر المنتظره فى أسوان وقالت صباح:- لم تجف دماء إخوتنا بعد ونحن نستقبل القاتل.

تأملت حماسها وفرحت به مثلما أفرح بصمتها وغنائها، انتظرت الجزء الأخير من السهرة بفارغ الصبر حيث نتخلص جميعًا من تحفظاتنا ونتحول إلى أطفال ننشد مع صباح أغانى فيروز وألحان أمام وكلمات نجم.

وقتها تنعبث النغمات تدغدغ المشاعر تدفعها لمغادرة الأرض الجدباء وترتفع بها فى سماء بعيدة، ساعتها لا يوجد غيرى وغيرك يا عروس الصالون المقدس.. أنا وأنت والجميع تصيبهم موجة عارمة من التلاشى أو التسامى أو أى تعبير يرادف عدم التواجد.

أحيانًا كانت عباراتها تحمل صرامة رمزى ياسين وإن تخلت عن عمقه وغموضه وأتأمل امتزاج الصرامة بالجمال فأتمنى أن أخوض فى رأسها الصغير لأكشف ما يمكن أن يحتويه من أفكار.

أما نظيرة فكانت دائما الزوجة والأم والنعيم الذى افتقده آدم بمغادرته الجنة مضطرًا فنشأ أبناؤه يحلمون بالعودة يومًا إلى المرفأ والأمان، ستظلين يا نظيره دائما الحلم الذي لن يتحقق فأنت فى النهايه زوجة وفية لرجل تخلصين له، أما صباح فهى تصلح كزوجة من جميع الوجوه حتى لو اضطررت لإقناع صفوان المراغى بإننى لن أتزوجها إلا لعقد صلة مصاهرة بين الأمن والشيوعية تمكننا من معرفة كل أسرارهم ويجعل كافة أفكارهم وتحركاتهم تحت السيطرة.

يبقى شيء واحد لتحقيق الحلم وهو أن أوهب الإرادة القادرة على تحويل الفكرة إلى فعل.

فى اليوم التالى ذهبت للقاء نظيرة، أخبرتنى أنها زارت حسن مؤخرًا وكان نوفمبر أوشك على الإنتهاء وأنه والزملاء قد غضبوا غضبًا شديدًا يوم أن علموا بوقف إطلاق النار، وتحول الغضب إلى ألم يخشى أن يؤدى ببعضهم إن لم يكن جميعهم إلى اكتئاب.

منعت نفسى من السؤال عن التفاصيل، اكتفيت بترديد إحدى العبارات التى كنت قد قرأتها مصادفة لمحمد حسنين هيكل:

- إن الحرب هى امتداد للسياسة ولا يمكن أن تكون هى كل شيء.

كنت أعلم إنها لم تفهم ما قلت ولكنى وجدتها تسألنى مستنكرة:

- هل وقف إطلاق النار فى هذا التوقيت صحيح ولم يحرر من الأرض إلا أقل القليل؟!

كانت المرة الأولى على وجه التقريب التى تتحدث فيها فى السياسة بشكل جاد فأحاديثها السابقة لم تكن تخرج عن دائرة السخط على الحكومة ورئيس الجمهورية وأمن الدولة ولا يتجلى هذا السخط إلا فى الدعاء عليهم والدعاء أن ينصرنا الله عليهم.

أجبتها قاصدًا تضليلها وبالتحديد كنت متعهدًا أن أدفعها إلى حوائط الحيرة عبر عبارات عديدة غامضة قلت:

- لا أقصد أن إيقاف النار صحيح ولا أقصد أيضًا أن الاستمرار فى الحرب صحيح.

كنت أسعى إلى أن تحمل ما أقول إلى حسن منصور لأزيده مع زملائه بلبلة وحيرة.

فى اليوم العاشر من الغيبوبة التى انتابت حامد الغزولى، توفى الرجل وانتهت فترة قضيت معظمها مع لطيفة ما بين المستشفى وشقتها ولم أغادرها خلالها إلا مرتين أحدهما للقاء نظيرة والأخرى للذهاب إلى صالون زاهية زهدى، كانت الزيارتان مددًا لابد منه لكي أستطيع مواصلة التواجد مع لطيفة هذا التواجد الذى كان يشعرنى بضعفى الشديد ذلك الضعف الذى يؤخر اتخاذى لقرار الانفصال.

كلفت العلاقات العامة بالشركة أن تقوم بعمل جنازة وعزاء يليقان باسم المرحوم.

امتدت ملازمتى لها إلى نهاية أيام العزاء الثلاثة وبعدها قررت أن تتقلص العلاقة معها إلى مجرد الإطمئنان التليفونى.

لم يمض سوى إسبوع على انتهاء فترة العزاء حتى أدركت مادار فى رأسى على وجه التقريب فطلبت لقائى على وجه السرعة، فوجئت وأخذت نفسًا عميقًا من الهواء لأصبح قادرًا على رفض طلبها ورفضت ولكنها أصرت مما اضطرنى إلى إغلاق الخط متظاهرًا ومدعيًا إن عطلاً فجائيًا قد ألم به.

لم يمض سوى ثلث ساعة حتى فوجئت بها تطرق باب شقتى قرأت فى عينيها نفس نظرات التهديد التى رأيتها فيها يوم أن جاءت إلى مكتبي بالشركة.

شعلة منطلقة تحرق كل ما تصادفه، هذه الفتاة يمكن أن تدمر كل ما بنيته وما يمكن أن أحلم ببنائه، لم يكن أمامى اختيار سوى محاولة استرضائها وكنت فى الفترة التى لازمتها فيها قد بدأت أفهم مفاتيح شخصيتها مشكلة هذه الفتاة هو جسدها... من المعروف إن هذه مشكلة كل المراهقين والمراهقات فى هذه الفترة من حياتهم ولكن لطيفة تختلف عن الجميع بأن هذه مشكلتها الوحيدة وهذا فى حد ذاته مشكلة لأنه لايوجد مشاكل أخرى تصرفها عن الاهتمام بجسدها ومحاولة إشباع رغباته مثل الدراسة أو العمل أو حتى هواية من الهوايات الفنية أو الرياضية، افتقدت لطيفة كل هذا فمنذ استيقاظها من نومها حتى عودتها إلى فراشها ولا عمل لها سوى الاهتمام بذلك الهيكل المسمى جسدها، الاستحمام والدهان بأنواع الكريمات المختلفة وتصفيف الشعر ودهانه ثم دهان بشرة الوجه بعد الجسد بالمساحيق المختلفة ثم إعادة رسم حدقة العيون وتحديد الشفاه وتثبيت خصلة الشعر فوق الجبين حتى لا يكشف عن بروزه غير المحمود، ثم شد الخصر وإبراز الصدر والضغط على البطن وارتداء الحذاء الذى يطيل القامة والثوب ذي اللون الذى يفتح من قتامة لون البشرة... يستغرق هذا منها معظم ساعات النهار لتقضى الليل تتطلع لصورتها فى المرآة ولسبب ما تفتن بما فعلت وتحلم برجل يروى النبت الظامئ وعندما تفتقده تلجأ للبيرة والويسكى وأنواع أخرى من الخمور.

لم أدع لها فرصة للتفكير مددت يدى مسلمًا ثم سحبتها إلى الداخل بقوة ألقيت بها فى أحضانى فالتقمت شفتيها بين شفتي وأنا أحيطها بذراعى مجهضًا كل الثورة المكتومة فى داخلها.

رضخت لإرادتى وتجردت من ثيابها وتركت جسدها العارى بين أحضانى ورحت أشبع رغبتها محافظًا فى الوقت نفسه على بكارتها التى تتوق إلى فضها لتصل مراتب اللذة إلى منتهاها.

وقبل انصرافها همست فى أذنها، كان بودى أن تعلن خطوبتنا كما تعلمين ولكن أنتِ أعلم بتقاليد الحزن والفرح فى عالمنا.

رمتنى بنظرة تعنى:- يا ابن اللئيمة أخيرًا وجدت العذر المناسب للتأجيل، كانت لاتزال تعيش لحظات النشوة فقبلت عذرى بروح رياضية وخيل لى وقتها إنها يمكن أن تقبل التأجيل والإلغاء أيضًا لفكرة الخطوبة والزواج على شريطة استمرار مسلسل المتعة الجارى بيننا، قبلتنى القبلة الأخيرة قبل المغادرة، تأكدت، بترك شفتيها بين شفتي، من رضائها وأنها قد رضخت بشكل نهائى لمشيئتى.

ذهبت إلى جليم فى غير موعد انعقاد الصالون لمتابعة أمر الشقة الجديدة وكنت انقطعت عن المتابعة أثناء تلك الفترة التى شغلتنى فيها لطيفة بمرض أبيها ثم وفاته.

وجدت مدام زاهية قد قامت بالاتفاق على كل التفاصيل، صعدت معها لأرى الشقة لأول مرة، كانت أكبر مما وصفت لى أو بالتحديد أكبر مما تصورت، نظرت من خلال الشرفة فوقع بصرى على شارع جمال عبد الناصر المكتظ بالعربات والبشر وسرح ذهنى

مقارنًا بينه وبين مشهد شارع أبو سليمان فأدركت إننى أعانق الحياة لأول مرة.

زارنى رفعت درويش فى مكتبى طالبًا أن أزوره فى فيلته بزيزينيا، خمنت سبب الزيارة لقد اتسعت أعمال تهريب الغزل إلى السوق السوداء منذ أن جلست فى مقعد العضو المنتدب، كان يريد أن يعرف سر الأوراق التى يوقع عليها والأموال التى تصله.

استقبلنى فى فيلته الفاخرة، رحت أتفقد السقف والجدران والفراغات والأثاث والتحف من حولى، همست لنفسى:- شغل الرجل المنصب لحوالى عشر سنوات حصل فيها على كل هذه الثروة التى تتمثل فى نصيبه من كميات الغزل المهربة إلى مصانع القطاع الخاص غير المدرجة فى القوائم، فما بالنا لو ضاعفنا الكمية المهربة عدة مرات، إن شقة جليم فى حاجة إلى مبالغ كبيرة لتأثيثها بربع هذا الأثاث.

تعمد أن يصرف الخدم قبيل حضورى وآثر أن يقوم على خدمتى بنفسه فاجأنى بقوله:- إنه يرى تخفيض الكمية.

منزعجًا سألته عن السبب، أجابنى هناك إشاعات أن أخبار قد تسربت إلى رئيس المؤسسة عما كان يفعله المرحوم بخصص الغزل ومن أجل ذلك أقيل.

سألته:- وأنت؟!

أجابنى وعيناه منكستان كأنما يتفحص بها نقوش السجادة الفاخرة فى أرضية صالة الاستقبال الواسعة التى كما نجلس فى ركن من أركانها.

- بيدو أنهم قد قرروا أن يهبونى فرصة أخرى.

سرى القلق إلى داخلى وعدت أسأله.

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- لا يوجد سبب آخر للإقالة المفاجئة.

تبخر القلق فجأة من داخلى وإن كانت لازالت له أثار باقية تجاهلتها.

وصحت ضاحكًا بشكل مسرحى:- يا رجل دع عنك هذه الوساوس إن هناك ألف سبب وسبب لإقالة حامد الغزولى لعل أبرزها مغامرات ابنته المجنونة فى الكازينوهات والبارات.

لا أعرف كيف قلت عبارتى الأخيرة ولكن كعادتى عندما تحيط المشاكل بى أقوم بتلفيقها لأحد، لأجد فى هذا التلفيق حلاً لها دفعة واحدة.

دفع حاجبيه متسائلاً:- أتظن هذا؟

- وأكثر من هذا.

- لقد سمعت عن تصرفات غريبة لابنته ولكن لا أظن أن الأمر وصل إلى حد إقالته.

- لقد سمعت عن طريق بعض الأصدقاء أسبابًا أخرى لإقالته.

- غير موضوع ابنته.

- نعم لقد كان أمر ابنته هو القشة التى قصمت ظهر البعير ولكن هناك ما قصم الظهر بالفعل قبل القشة بزمن.

اقترب منى وقال راجيا:- إنك يا مدحت فى سن أولادى ولك من الشباب ما يجعلك تجول كل الأماكن وتعرف كل الأسرار فأرجو ألا تبخل بها عليَّ.

- تحت أمر سعادتك ولكنى والله لا أحب ترديد ما أسمع وهذه هى المرة الأولى وستكون الأخيرة التى نتحدث فيها عن المرحوم.

- بالتأكيد إننا لن تتحدث عنه إلا بكل خير.

- لقد دافع حامد بك عن القطاع العام فى بعض اجتماعات الأمانه بالاتحاد الاشتراكى.

- كلنا ندافع عن القطاع العام.

ضحكت ساخرًا وضربت كفًا بآخر وأنا أقول:- أخشى ما أخشاه أن تسلك سلوكه.

انكمش الرجل فى مقعده وقرب رأسه من رأسى وراح يقول هامسًا:

- إإمرنى يا مدحت بك ماذا يحدث بالضبط فى الأجواء العليا.

- إن الزمن القادم هو زمن القطاع الخاص وهذه تعليمات القيادة السياسية العليا. لذا لن نتحمل القطاع العام إلا بضع سنوات

- بضع سنوات.؟

- نعم فى الحد الأدنى سيقومون بتصفية الشركات الخاسرة، هل نسيت شركة مصايد أعالى البحار كيف صفيت عندما أصبحت عبئًا على خزينه الدولة.

هز رأسه معلنًا فهمه، بدا لى أنه أضعف مما تصورت وهو يعلن إنه سيبقى دائمًا تابعى الوفى.

هل كنت أحلم بذلك يومًا، هل كان يحلم عم عبده فلافلاية الذى يخشى الوقوف أمام موظف درجة ثامنة أن يصبح رئيس مجلس إدارة شركة كبرى من شركات الغزل والنسيج بالإسكندرية تابعًا لإبنه ويستضيفه بمنزله ويقوم بضيافته بنفسه؟؟ بودى أن يشهد أبى هذا المشهد ليعترف بأنه كان يذنب ذنبًا كبيرًا عندما كان يعايرنى بسنوات رسوبى فى الدراسة.

فى نهاية الجلسة بارك رفعت دوريش كل الخطوات التى اتخذتها بشأن مضاعفه كمية الغزل المهرب لشركات القطاع الخاص، مال على مسلمًا ومقبلاً وهو يقول لى:

- الحمد لله لقد طمأنتنى يا بنى وأعدت الدماء إلى عروقى بارك الله فيك بارك الله فيك.

مضى شهر قبل أن أنتقل إلى الشقة الجديدة قضيته فى متابعة إنهاء أعمال الدهانات والديكورات وعمل التجديدات اللازمة ثم رحت أنتقى أنواع فاخرة من الأثاث تتناسب مع وضعى الجديد.

عقب الإنتهاء من فرشها رحت أتنقل بين حجراتها سعيدًا منتشيًا، من اليوم فصاعدًا سأعيش حياة جديدة تتناسب مع جهد عمرى وتمنيت فى هذه اللحظة أن أرى هناء لتشاركنى سعادتى وأن تبعث أمى من القبر لترى ما وصلت إليه لتفخر بى أمام جاراتها، أما

أبى وأخى عطية فتمنيت أيضًا أن يزورانى ليروا ما أنا فيه ويمصمصوا شفاههم متحسرين نادمين على أنهما عاملانى يومًا ما معاملة لا تليق بى بأى حال من الأحوال.

قررت أن يكون افتتاح الشقة الجديدة بحفلة كبيرة يكون ضيف الشرف هو رئيس مؤسسة الغزل والنسيج يوسف بك عزوز الرجل الذى لم أقابله إلا عدة مرات عابرة كانت كافية لكى أسبر أغواره. رجل أسمر نحيل من أصول صعيدية، تزين جبهته زبيبة صلاة واضحة تنم عن انتظامه فى أداء الفروض وفى نفس الوقت لمحت فيه الصفة المشتركة فى كل الرجال فى العقد السادس من أعمارهم، كلهم يمرون بمرحلة المراهقة الثانية، كلهم يمنون لو تمكنوا من الزواج من فتاة تصغرهم تعيد إليهم بعضا من شبابهم ولكن الأولاد والبنات والزوجة الأولى جميعهم يقفون له بالمرصاد، إنهم أحق بالاستمتاع بماله ومركزه وكل ما ملكت يداه، وتظل هذه المشكلة شاخصة أمام أنظار الرجل تاركًا حلها الفعلى للظروف التى يسميها المشيئة الإلهية.

اتصلت بشمس، الفتاة الجميلة الى تحبنى وتكتفى بهذا الحب وتسعد كثيرًا بتقديم أى نوع من الخدمات لى.

وافتنى فى الموعد بكازينو نفرتيتى، كانت أكثر جمالاً وبهاءً مقارنة حتى بآخر مرة قابلتها فيها، فارقت تمامًا فتاة الشركة العربية العاملة بقسم اللازونة، استقبلتها واقفًا كدت أنحنى على يدها المسلمة مقبلاً.

مضت النصف ساعة الأولى من لقائنا فى السؤال عن أخبارها وأحوالها وعندما أدركت أن شيئًا ما لم يتغير داخلها يمنعها من إتمام

المهمة بدأت أحدثها عن يوسف عزوز ضيفنا المراهق صاحب المركز المرموق الذى يشغل منصب يعادل اى منصب وزارى. وأنا أستعرض مكانة الرجل على مسامعها خطر فى بالى فكرة أن أصنع لها فى المقابل تاريخًا يخالف تاريخها الحقيقى وبالتأكيد يناقضه قلت لها ما بين الجد والهزل:- أنت شمس الطرابلسى من مدينة طرابلس بلبنان هاجر جدك الباشا إلى مصر فى أوائل القرن العشرين وكان له ثروة كبيرة من الأراضى الزراعية تزيد على ستمائة وخمسين فدانًا من أخصب أراضى محافظة البحيرة ثم ورثها أبوك إبنه الوحيد وضاعف الثروة بعد الزواج من مصرية ولكن جاءت الثورة والتأميم ومات الأب حزنًا على الثروة الضائعة.

تفاخرت بخيالى الذى صنع لها هذا التاريخ الزائف بشكل تلقائى شاركتنى ضحكى وتفاخرى وهى تقول:- منذ هذه اللحظة أنا شمس الطرابلسى ولأنسى لقبى الحقيقى.

معترضًا:- بل هذا هو لقبك الحقيقى يا شمس فهل تتصورين الشعر الأصفر والعيون الخضراء والبشرة المشربة بالحمرة يمكن أن تكون من مكان آخر غير طرابلس.

رمتنى بنظرة جميلة وقالت:- هل أعد هذا غزلاً.؟

- بل عديه انهماك فى العمل ومحاولة لإتقانه.

مجاملة منى أحتسيت معها زجاجة من البيرة ومنعت نفسى طوال الجلسة من الإنطلاق فى تأمل ملامحها مدركًا إننى لو تركت لنفسي العنان لوجدت مشاعرى متورطة فيها كما تورطت فى هوى من

قبلها.. وفى الحقيقة لم أجاملها إلا إتقانًا لعملى ولترتيب كل ما يخص الحفل بشكل دقيق.

طلبت منها أن تعد مجموعة من الفتيات للخدمة فى الحفل وأخبرتها إننى سأقوم بالاتفاق مع أحد المطاعم الفاخرة لتوريد الطعام والشراب اللازمين وفى نهاية لقائنا حاولت أن أعطيها مبلغًا ماليًا لتوزيعه على الفتيات اللائى ستحضرهن فرفضت بشدة وهى تقول:- معى الكثيرة والكثير

قلت:- أعلم هذا.

عقبت:- ولكن الذى لا تعلمه إنه كله من فضلك وإحسانك بعد الله تعالى.

فانحنيت لها باسمًا وأنا أقول:- بالتأكيد إنه من فضل وإحسان الله الذى منّ عليك بكل هذا الجمال وانحنيت على يدها أقبل أناملها.

كانت قد أخبرتنى كيف شقت طريقها الذى بدأته معى بالحفلة التى أقيمت باستراحة الشركة منذ سنوات، بعدها تعرفت على مكتب ريجسيير بمحطة الرمل واحترفت العمل ككومبارس صامت فى الأفلام والمسلسلات التلفزيونية التى تصور بالإسكندرية وبفضل جمالها وأناقتها المكتسبة بدأت تأخذ بعض الأدورار الصغيرة فى هذه الأعمال، وعن طريق هذه الأدوار الصغيرة بدأت تحظى بزبائن من الأثرياء العرب الذى تعودوا التردد على المدينة فى فصل الصيف من كل عام.

أقيمت الحفلة، كانت الأنظار موجهة إلى يوسف عزوز رئيس المؤسسة وضيف شرف الحفل، صوبت إليه الأنظار ومن اللحظة

الأولى صوب هو بصره إلى شمس التى نجحت فى جذب انتباهه إليها بعد أن قدمتها له على إنها معدة ومديرة الحفل والمسئولة عن تنظيم حفلات الشركة من قبل شركة خدمات متخصصة فى تنظيم الحفلات والمؤتمرات، كنت أدفع فى اتجاه إعفائه من مغبة الإحراج عندما يقيم علاقة خاصة معها وذلك برفع شأنها فى نظره.

فى اليوم التالى التقيت بشمس فى نفرتيتى أخبرتنى أن الرجل قد اتصل بها منذ تركها أمس ثلاث مرات، عقبت مداعبًا:- فقط.

أدركت مداعبتى فضحكت ضحكة جميلة، أوصيتها أن تبذل كل جهودها لاحتوائه والإيقاع به وحذرتها من زبيبة الصلاة التى تزين جبهته وملامح التقوى المرتسمة على ملامحه.

فهمت ما أرمى إليه وقالت بدلال :- لكل باب مفتاح.

أكملت:- وكل المفاتيح تؤدى إلى الجنة.

مرة أخرى عرضت عليها مبلغا ماليًا ولكنها رفضت أن تأخذه وقالت بلهجة أثارت فى داخلى أشواق الحرمان العائلى:- إذا لم أنجح فى أن أصبح زوجتك أو حتى عشيقتك فأذن لى أن أكون أختك لن أخذ منك فى حياتى قرشًا واحدًا لقاء ما تتصوره خدمات وفى المقابل إذا وجدت نفسى فى أى وقت فى حاجة إلى المال أو المساعدة بأي شكل من الأشكال فلن ألجأ إلا لك.

فى تلك الحظة وعلى ذكر الأخت تذكرت هناء وتمنيت أن أعرف أخبارها لا شك إنها فى حاجة هى الأخرى إلى وقوفى بجانبها وقد لجأت لى بالفعل ولكن آثرت أن أكون نذلاً للنهاية.

عقب انتهاء حفلة يوسف بك عزوز بشهر واحد، دعيت من قبل مكتبه لحضور حفل افتتاح وحدة جديدة للغزل بمصنع كفر الدوار للغزل والنسيج.

كانت مثل هذه الدعوات تتم بشكل معتاد ولكنى شعرت أن دعوتى هذه المرة من قبل رئيس المؤسسة لحضور حفل يحضره السيد وزير الصناعة أمر متعمد، القصد منه تحيتى وشكرى على الحفلة التى أقمتها لسيادته والذى كان من الواضح إنه سعد بها أبلغ سعادة، خاصة أنها جمعت بين الخصوصية والفخامة.

كنا جميعًا فى ذلك اليوم فى استقبال السيد الوزير الذى جاء ليفتتح الوحدة الجديدة، عقب الانتهاء من مراسم قص الشريط وبينما السيد الوزير يستمع لحديث رئيس مجلس إدارة شركة كفر الدوار، مال يوسف بك عزوز على أذنى وقال:-

- لقد دعوتك خصيصًا لهذا الحفل لكى أعرف سيادة الوزير عليك. صدق ظنى إن الدعوة كانت من قبله مباشرة وقد أراد أن يشكرنى بشكل عملى فلم يجد أفضل من أن يقيم تعارفًا بينى وبين سيادة الوزير، كأن الرجل يقرأ أفكارى ويعلم بطموحاتى ويباركها، تلك هى بالضبط الجائزة التى أريدها والهدية التى أتمناها.

لم تمر سوى دقائق معدودة حتى وجدته يهمس فى أذن السيد الوزير بكلمات لم أسمعها وبصره ذاهب اليَّ كأنه يفهمنى أن الحديث عنى ويدعونى للتقدم، أومأ السيد الوزير برأسه فأشار لى يوسف بك بالتقدم، فتقدمت بسرعة وانحنيت على يد السيد الوزير مسلمًا.

قام يوسف بك بتقديمى:- مدحت الزينى من أكفأ رجال المؤسسة، لم أكن فى حاجة لكى أرسم على ملامحى تعبيرات الاحترام والخضوع فقد كانت مرتسمة بالفعل.

سمعت يوسف بك يستطرد:- منذ أن عين عضوًا منتدبًا للشركة العربية وإنتاج الشركة يشهد تزايدًا.

ربت السيد الوزير على كتفى وسمعته يقول:- برافو.... هذا هو الشباب المنوط به بناء البلد.

استطرد رئيس المؤسسه يستعرض إنجازاتى أمام سيادة الوزير، لمحت بطرف عينى رفعت درويش منزويًا فى ركن من أركان المكان بعد أن سمع عبارات رئيس المؤسسة عنى، تقاطعت نظراتنا، كان يرجونى عبر نظراته أن أقف بجانبه، إنه يرتعد خوفًا منذ أن أقيل حامد الغزولى ومنذ أن ضاعفت كمية الغزل المهربة أكثر من مرة ومنذ أن لمح اهتمام رئيس المؤسسة بى وأعتبر عبارة الوزير الأخيرة عن الشباب المناط به بناء البلد إشارة تنبئ بعزله قريبًا بعد أن قارب على سن الستين وتطيح بأمل التجديد لعام أو عامين بعد الستين كما كان يحلم.

خمنت مدى نجاح شمس فى الإمساك بزمام الرجل، وقبل أن ينتهى الحفل همس يوسف بك فى أذنى:- ليتك توصى شمس هانم علينا.

فى صباح اليوم التالى لعودتى من كفر الدوار شعرت ببعض التوعك نتيجة جهد زائد كنت قد بذلته فى الأيام الأخيرة.

كنت لازلت فى فراشى وقد حل الضحى، زارتنى زاهية زهدى ربما للمرة الأولى منذ أن أقمت بالشقة الجديدة.

نهضت لاستقبالها فى غرفة الصالون محاولاً أن أقوم بواجبات الضيافة طلبت منى ألا أجهد نفسى خاصة وأن علامات إرهاق ترتسم فوق ملامحى.

قلت مقرًا:- نعم إننى فعلاً أشعر بالإجهاد.

- هذا ما ظننته عندما لم تخرج فى الصباح كعادتك. أدركت إننى مراقب، فرميتها بنظرة مجاملة، قالت:- ألم يأن الأوان بعد؟.

رفعت عينين مستفسرتين إلى وجهها الصبوح التى أورثته بكل نضارته لابنتها فأضفت عليه شبابها بماله من مذاق خاص.

سألت:- ماذا تقصدين؟

- أن تكمل نصف دينك.

أدركت أن نظراتى لصباح طوال سهرات الصالون لم تغب عن عيني وفطنة المرأة، استيقظ فى داخلى حذرى القديم، فرغم كل عواطفى تجاه صباح وأمنيتى أن أرتبط بها وأحلامى الدائمة أن أفتح عينى كل صباح على ملامح وجهها المشرق، رغم كل هذا لم أكن قد قررت الارتباط بها بل أكاد أقول إننى قد قررت عدم الإرتباط بها فى هذه اللحظة بالذات التى تعرض أمها فيه الموضوع عليَّ بطريقة بها من المواربة ما بها.

لقد تعودت أن أطلق لعواطفى العنان وأحب كما أشاء وأأمل كما أشاء ولكن عندما تذكر كلمة زواج فإن فرملة حقيقية تلم بعواطفى وبجسدى وتهزنى هزًا حتى أفيق، إن مشروع الزواج نفسه إن لم يرفعنى

درجات فى طريق الصعود لأعلى فعلى الأقل لا يجب أن يرجعنى خطوات إلى الوراء.

قلت مراوغًا:- ربما يحدث هذا غدًا أو بعد غد وربما يحدث بعد سنين طويلة.

أكملت ساخرة:- وربما لا يحدث على الإطلاق.

أدركت سخريتها فخشيت أن يقودنا الحديث إلى ما لا تحمد عقباه فأجد نفسى فى مأزق لا أرضاه فقلت متصنعا الإبتسام:- ليس إلى هذا الحد فالزواج شر لابد منه.

بدت أمامى المرأة فى هذه اللحظات حائرة، كانت عاجزة عن فهم ما أرمى إليه وعاجزة عن التقدم خطوه أخرى فى اتجاه عرضها بزواج ابنتها منى، مرت برهة قصيرة من الصمت، اختفت فيها التعبيرات الحائرة من فوق وجهها، بدا كأنها أدركت مراوغتى ففضلت تغيير مجرى الحديث فراحت تتحدث عن زيارة نيكسون المرتقبة للبلاد وكيف أن طلاب الجامعة يعدون الاستقبال اللائق بنصير إسرائيل الأول.

سألتها مستفيدًا من لقائى معها: لم لا يحضر الطلبة جلستنا المسائية نسمع أخبارهم ونفيدهم بأرائنا.

أشاحت بوجهها كأنها تهرب بنظراتها من نظراتى وقالت:- هذا جيل له طباعه الخاصة وأفكاره الخاصة وقد علمت مؤخرًا أنهم قد قرروا مقاطعة الصالونات السياسية باعتبارنا من العجائز المهزومين الذين نحمل خبرات سالبة أودت بالحركة اليسارية إلى الهلاك.

متصنعًا الاندهاش سألت:- نحن فعلنا كل هذا؟

- هذا ما يدعونه وليتهم توقفوا عند هذا أنما يزعمون أن عيون مباحث أمن الدولة تتسرب إلى هذه الصالونات أو على الأدق ما يدور بالصالونات يتسرب إلى أمن الدولة وهذا سبب الإيقاع بزميلهم رمزى ياسين الذى خرج عن السياق وقرر التردد على جلستنا.

خشيت أن تكون كلماتها تحمل مرامى أكثر مما يمكن أن يفهم منها للوهلة الأولى... فتعمدت أن أدقق النظر فى وجهها فاحصًا عما يمكن أن تخفيه من معانى ولكنى أدركت إن إشاحتها بوجهها لا ينم إلا عن خجلها من موقف الطلبة تجاه صالونها السياسى.

عقب انصرافها رحت أتساءل مجددًا عن موقف الضابط صفوان فيما لو طلبت منه السماح لى بالزواج من صباح؟ بعد تفكير طويل أدركت إننى عاجز حتى عن طرح هذه الفكرة عليه، كيف سيفكر فى الموضوع؟ ربما يغضب لسبب لا أستطيع تحديده الآن وربما يجر غضبه عليَّ مشاكل جمة، لعل أقلها هى أن أُقال كما أُقيل من قبل حامد الغزولى، بسبب بضع عبارات عن القطاع العام يمكن أن يرددها رئيس الجمهورية نفسه فى خطبه ولكنها حرمت عليه وأقيل بسبب إصراره عليها من مركزه بالاتحاد الاشتراكى ومن منصبه كعضو منتدب فى مجلس إدارة شركتنا.

نهضت إلى مكتبى وجلست أُلملم أفكارى ورحت أكتب تقريرى عن أحاديث رواد صالون زاهية زهدى خلال الفترة الأخيرة وبعدها ارتديت ثيابى وغادرت منزلى، مررت على مبنى أمن الدولة سلمت التقرير ثم انطلقت إلى موعدى مع نظيرة متناسيًا ومتجاهلاً عرض

الزواج الصباحى من زاهية زهدي. وقلت لنفسى كأنى أقرر أمرًا لا رجعة فيه:– إن زمن الزواج لم يحن بعد واعلمى ياعزيزتى إننى من اليسير أن أتخلى عنك إذا كنت قبلك قد تخليت عن أبى وأخى وأختى هناء، إن عدوى هو الذى يكلفنى الارتباط به التوقف عن الصعود لأعلى درجات السلم وأعترف الآن يا صباح إنك أبرز هؤلاء الأعداء ولن تكونى آخرهم.

****

نهاية الربيع وبداية الصيف، بدا الشاطئ هادئًا، تفوح فى الجو رائحة الملح والسمك والكابوريا والرتسة، صفت المائدة بأصناف من السمك، توج الجمبرى والدنيس على رأسها، طالعت خصلات الشعر الناعمة التى أفلتت من الإيشارب الذى تغطى به شعرها.

تلقيت أنفاس البحر مع أنفاسها، طالعت هدوئه مع تقاطيعها الهادئة، تأملت طريقتها الخجلة فى تناول الطعام.

كنت قد أصررت على تناول طعام الغذاء سويًا فى أحد مطاعم بحرى، تمنعت خجلة وعندما وافقت اشترطت ألا يستغرقنا تناول طعام الغذاء بأكثر من وقت المواعيد المعتادة.

تجاهلت قلقها على ولديها وانغمست بكل مشاعرى فى تأمل ملامحها متلمسا طريقًا للولوج إلى داخلها، ومضى وقت أدركت بعده أن كل المساعى قد كللت بالفشل، عدت من حيث أتيت فكل الطرق مسدودة وأنا الذى كنت آأمل أن أطرد صباح من ذهنى بلقاء دافئ مع نظيرة.

انكفأت على طبقى أحاول إلتهام بعض ما فيه حتى نتمكن من إنهاء اللقاء مبكرًا استجابة لإلحاحها.

فوجئت بي، عقب انصرافنا من المطعم وبعد أن جلست بجوارى فى العربة وأدرت محرك السيارة فى اتجاه منزلها، وأنا أضع بين يديها لفافة كبيرة حوت كيلوان من تشكلية من الأسماك والجمبرى والكابوريا والسلاطات، سألتنى مندهشه:- ما هذا؟

أجبتها مدعيًا عدم الإكتراث:- نصيب الأولاد.

رمتنى بنظرة امتنان، أشهد إننى لم أرى أجمل منها، ترقرقت عيناها بالدموع وهى تقول:- طيب إنت يا مدحت بك.

وجدت أن من المناسب أن أعترض، لا بد أن أنتهز الفرصة لأقترب منها خطوة جديدة، قلت:- بودى ألا ترددى كلمة بك بعد الآن.

اعترضت بإشارة من يدها وانفراجة من شفتيها ولكنى تجاهلت اعتراضها وواصلت:- لقد اتخذتك لى أختا منذ أن عرفتك وقد مضى وقت طويل على علاقتنا كفيل بإسقاط أى تكليف.

واصلت اعتراضها:- ولكن المقامات محفوظة.

قلت موضحًا:- وهل يسقطها أن أنطق اسمك مجردًا أو تنطقين اسمى مجردًا.

وافقتنى بصوت مستسلم:- لا يسقط.

منتصرًا عقبت:- إذن فقد اتفقنا يا نظيرة.

بدا عليها كأنها دهشت لسماعها اسمها لأول مرة على لسانى مجردًا، مرت لحظة ظلت فيها صامتة ثم قالت ممعنة فى استسلامها:-

حاضر.. حاضر يا مدحت يا أخى.

سعدت للغاية بنصف الخطوة التى قطعتها، سعدت لإنصياعها لمنطقى، وحلمت بأن يستمر نهج استسلامها أمام منطقى حتى أصل إلى ما أهدف إليه.

وفى المساء عندما أويت إلى فراشى قلت لنفسى:- إن الوصول إلى قلبها أمر يسير ولكن ما هو عسير هو اقتلاع الآخر منه فهو فى قلبها رغم سجنه هناك فى قلب زنزانة رطبة بسجن الحضرة.

كان من الصعب عليَّ أن أستقبل لطيفة بشقة جليم وحتى أنجح فى منعها من زيارتى أفهمتها أن معظم سكان العمارة من العاملين فى قطاع الغزل والنسيج، يعرفون والدها ويعرفونها هى أيضًا، وذكرت لها بعض الأسماء ممن كانت تلتقى بهم فى بعض حفلات الاستقبال التى كانت تقام بالفنادق وتذهب إليها بصحبة أبيها.

لذا استقر رأينا على أن أنسب الأماكن للقائها هو منزلها.

فى الحقيقة كنت أريد إبعادها عن عيون رواد صالون زاهية زهدى وبالتحديد خشيت أن تقع عين صباح عليها، وكنت فى تلك الفترة فى حالة شديده من الحيرة فإذا وقعت عيناي على صباح رأيت فيها الزوجة الصالحة رغم أنف صفوان المراغى وإذا بعدت عنها لم أكن أغير رأيي فيها فهى حقًا زوجة صالحة ولكنها بكل المقاييس ليست الزوجة التى تصلح لى، يكفى مفاهيمها السياسية والمبدئية التى تجعلها

تسير فى طريق يخالف طريقى إن لم يكن يعاكسه تمامًا بالإضافة إلى إنها من النوع الذى لا يمكن أن يكون سهل الانقياد.

أما نظيرة فإنى أتمناها زوجة بسبب توافر تلك الصفة الأخيرة التى تفتقدها صباح وهى سهولة الانقياد، فإذا ما نجحت فى قتل حسن منصور فى داخلها فإنها سوف ترتمى فى أحضانى ويتحول إخلاصها ووفاؤها لحسن إليَّ، فهى من النوع السخى فى وفائه الكريم فى إخلاصه ولكنه لا يفيض به إلا فى اتجاه رجلها أيًا كان وبذلك يمكن تسييرها فى طريقى أيا كان هذا الطريق.

فوجئت بشمس تهاتفنى تطلب لقائى على وجه السرعة، خفق قلبى بشدة، لا شك إن الأمر يتعلق بأهم شخصية فى حياتى لا أفكر إلا فيه ولا أطمح إلا فى نيل رضاه.

ارتديت ثيابى على عجل وغادرت مسكنى، فى طريق الكورنيش كان البلاج والأرصفة غاصة بالمصيفين.

فى كازينو نفرتيتى كانت تنتظرنى، على الفور ولجت فى موضوع اللقاء، صدق ظنى فقد كان الأمر يتعلق بصديقنا المشترك يوسف عزوز قالت:-

- صاحبك يريد أن يتزوجنى.

غمغمت بما سمعته منها مستغربًا، فى التجارب السابقة، كان الرجل الذى يلتقط أو بالتحديد يتصور إنه التقط فتاة جميلة من إحدى الحفلات التى أقيمها يقنع من الفتاة بلقاء كل إسبوعين أو كل شهر يلتقى بها فى أماكن مختلفة أو حتى يؤجر لها شقة مفروشة

تخصص للقائهما إلى أن تنتهى العلاقة أو تذوب بفعل الملل والسأم وبسبب بهاظة التكلفة وفى أغلب الأحيان بسبب انطفاء لهيب النزوة... أما هذا الرجل وعرضه بالزواج فهو يمثل نموذجًا جديدًا وأمرًا غير مسبوق

عقبت ساخرًا ومتسائلاً:– أهو الحب؟!

– لا أراه كذلك هو لا يختلف عن غيره من زاوية ما يكنه من مشاعر فهى حالة المراهقة الثانية التى سبق أن حدثتنى عنها والتى تعالج بليلة أو ليلتين شهريًا يخرج فيها الرجل عن مألوف حياته ويتجسد هذا الخروج فى علاقة مع امرأة تصغره بنحو عشرين عامًا

أومأت برأسى قائلاً:– هذا ما سبق أن عرفناه فى القصص الكثيرة التى سبق أن قصصتها عليّ والتى جرت لك ولزميلاتك.

قاطعتنى مجيبة على سؤالى قبل طرحه:– الجديد أن رجلنا لا يريد أن يغضب ربنا.

كان ذهنى قد ذهب إلى مثل هذا الأمر منذ أن رأيت الزبيبة منطبعة فوق جبهته، ضحكت وقلت ساخرًا.

– يتصور أن الورقة التى ستكتب ستحلل له علاقته مع فتاة تصغره بأكثر من خمسة وعشرين عامًا لا يربطها به إلا المال.

عقبت بعد أن اشعلت سيجارة راحت تنفث دخانها فى الفراغ حولنا.

– شرع الله.

كنت أعلم أنه شرع الله ولكنى لم أكن أقر هذا الأمر فالرجل الليبي الذى تجاوز الثمانين عندما يكتب مثل هذه الورقة على هناء لا أرى إن ذلك صوابًا، هى لا تعرفه ولا تريده وفى سن جدها وقد اشتراها بما دفعه لأبى، فهل يقر الشرع مثل هذا الزواج؟ ويوسف عزوز الذى تجاوز الخامسة والخمسين من عمره هل يمكن لشمس التى لم تتجاوز الثلاثة والعشرين من عمرها وتمتلك كل هذا القسط من الجمال أن ترضى به لو لم يعرض هداياه وثروته ومركزه؟؟! إن الورقة ستحلل كل شيء ومن أجل ذلك أخبر شمس إنه لا يرضى بها إلا زوجة ومن أجل هذا طلبت لقائى.

قالت عقب برهة من الصمت وهبتها لى كى أفكر فى الأمر مليًا، جئتك لتشير عليَّ ما رأيك؟

أجبت على سؤالها بسؤال:- ما رأيك أنت؟

- أخشى أن أتزوجه فيكون من المعمرين فلا أظفر بماله إلا بعد انقضاء العمر.

- لن تعدمين حيلة للطلاق منه.

- أخشى أن يحدث العكس فيطول به العمر ولا أحصل على ثمن عمرى الضائع.

- ستطلبين أن يوفر لك أمان المستقبل من اللحظة الأولى.

- وبعد.

- بعد ماذا؟

- إذا لم أجد وسيلة للطلاق.

خطرت فى رأسى فكرة شريرة، صممت برهة ثم قلت:- سأتكفل أنا بهذا.

نظرت إلى عيني، أدركت إنى صادق فيما أقول قالت:- تذكر دائما أننى أختك

قلت لنفسى:- آه لو تعرفين ما فعلته بأختى.

مرت برهة تأملنا فيها البحر والكورنيش والجلوس بنفرتيتى ثم سألتها:-

- هل ستخلصين له؟

رمتنى بنظره معاتبة ثم سألت بدورها:- هل تظننى خائنة؟.... أغلب الظن إنك لا تعرفنى إننى إذا تزوجت فلابد أن أخلص لزوجى.

ادعيت معتذرًا أن سؤالى كان على سبيل المداعبة وقلت لنفسى:- حتى هذه الفتاة -نصف بغي- تؤمن بالمثل العليا، إنها تفرق بين أن تبيع جسدها وهى غير مرتبطة بورقة وبين أن تبيع جسدها وهى مرتبطة، مع إنه فى الحالتين لا يوجد هدف إلا المال.

انتهى لقاؤها، عددت حديثى معها وعدًا بأن أكون بجانبها فى كل الأحوال ونهضت منصرفة لتلحق بموعد كان قد ضربه لها.

لم يمر سوى يومين على لقائى بشمس حتى تلقيت تليفون من يوسف عزوز يطلب منى أن ألقاه خارج مكتبه.

التقينا بإحدى الكافتيريات بالطريق الصحراوى، وصل إلى المكان يقود عربته بنفسه، أدركت سبب اللقاء، كما أدركت اضطراب الرجل النفسى الأمر الذى جعله يحيط اللقاء بكل شروط السرية.

كما توقعت قضينا أكثر من ساعة نتحدث عن سير العمل بشركتى ثم ذكر لى أن السيد الوزير قد سأل عنى، ثم عاد يتحدث عن ظروف العمل بالمؤسسة وأخيرًا وجد الشجاعة فى نفسه ليتحدث مقتربًا من الموضوع الذى دعانى للقاء من أجله.

سألنى عن رأيي فى شمس الطرابلسى، راح يتابع كلماتى عنها بشغف واضطراب واضحين، أخبرته إن معرفتى بها لا تعدو حدود العمل وهذا لا يعنى فقدانى للسيطرة عليها، ثم سألته إذا كانت قد أتت ما يغضبه فسارع إلى النفي بشدة، ثم بدا على وجهه رغبته فى أن يستريح ويفضى إلى بكل ما فى داخله دفعة واحدة.

أخيرًا قال:- أريد أن أتزوجها.

مرت برهة صمت أعقبت سؤاله تعمدت ألا أنطق خلالها بحرف واحد حتى عاد يسألنى ملحًا:- ما رأيك؟ مالى أراك صامتًا!

معتذرًا قلت:- لقد فوجئت فكما أعلم فإن سيادتك....

قاطعنى مستطردًا:- متزوج ولى أولاد ولكنها رغبات خريف العمر.

- أعلم سيادتك كل هذا ولكن هذه الرغبات -معذرة- يمكن أن تلبى بطرق أخرى.

حاسمًا قال:- لا قبل لى بهذه الطرق.

- معذرة إذن لا مفر من الزواج العرفى شرط ضمان السرية.

بدات إمارات الارتياح على وجهه فقد قدته إلى ما يريد الوصول إليه، سمعته يقول متظاهرا بالتسليم:- على بركة الله.

- مبروك مقدمًا.

- سوف تكون شاهد العقد.

رغم إنى لم أتوقع أن يتم الأمر بهذه السرعة قلت:- هذا يشرفنى.

- إذن أعد كل شيء وليكن موعدنا بداية الأسبوع القادم لنعقد القران.

فى طريق العودة إلى الإسكندرية رحت أفكر فى الثمن الذى يمكن لرئيس المؤسسة أن يدفعه مقابل التستر على زواجه من شمس، قضيت الليلة مفكرًا وتوصلت قبل الصباح إلى أن أعلى ثمن يمكننى أن أحصل عليه هو أن يقوم بتعيينى نائبا له، وعدت من جديد أفكر فى تلك المقايضة هل يكون قد أغمطنى حقى عندما أقبل بهذا الثمن البخس فى مقابل تلك الخدمة الجليلة.

كما وعدته فى بداية الأسبوع التالى كنت أنتظرهما بمكتب أحد المحامين بمدينة طنطا كي أشهد على عقد الزواج العرفى، قمت بالتوقيع على العقد بصفتى شاهد، همست لى شمس بأنه قد كتب لها بيع وشراء جانب كبير من ممتلكاته كمهر لها.

عقب الإنتهاء من توقيع عقد الزواج توجها بعربتهما إلى الشقة التى كان قد اشتراها لها بميامى بالإسكندرية بينما توجهت أنا إلى القاهرة متعللاً بالقيام بزيارة لبعض الأقارب.

وفى صباح اليوم التالى كنت بمكتب وزير الصناعة أستأذن فى مقابلته لأمر هام. لحسن الحظ كان فى وقت الوزير متسع لمقابلتى دون موعد سابق، تذكرنى الرجل فبادرته قائلاً:- لا أريد أن أطيل على سيادتكم بالدخول فى مقدمات طويله ولكن. الأمر يمكن تلخيصه فى أن صديقًا عزيزًا يشغل منصبًا مهمًا قد زلت قدمه وارتبط بخادمة كانت تعمل فى منزلى.

سألنى مندهشًا:- تقصد من؟

- أقصد يوسف بك عزوز.

مندهشًا راح يردد :- خادمة.؟!

مؤكدًا قلت:- نعم ياسيدى تزوجها عرفيًا مساء أمس، إننى أرجو وأتوسل سيادتكم بعد التأكد من الأمر ألا توقع به ما يمكن أن يضره.

سألنى مرتابًا:-كيف عرفت؟

أطرقت ببصرى إلى الأرض متظاهرًا بالأسف وكأن شعورًا بالذنب قد سيطر عليَّ بشكل فجائي قلت مجيبًا على سؤاله:- اعترف إننى مذنب لقد كنت شاهد العقد.

مندهشًا ردد:- شاهد على العقد؟!!

نعم ياسيدى لقد أجبرت على هذا بعد أن بذلت قصارى جهدى فى تقديم النصائح والإرشادات وهذا ما جعلنى أشعر بالأسى وانتظرت الصباح بفارغ الصبر كى أحظى بمقابلتكم.

كنت لازلت مطرقًا برأسى هاربًا بعيني من عينيه متظاهرًا بالأسف ولكن فى الوقت نفسه كنت أخالسه النظر محاولاً قراءة ما يدور فى خاطره وبالتحديد قراءة انعكاسات حديثى على ملامحه.

أدركت إننى قد أصبت الهدف، اختفت إمارات الريبة من فوق وجه الرجل، ومن جهة أخرى وهذا هو المهم حدست إنه يعتبر زواج مسئول كبير جاوز الخمسين من عمره بخادمة زواجًا عرفيًا جريمة بكل المقاييس وهذا بالتحديد ما كنت أسعى إليه وأتمنى تحققه.

لم يكن لدي ما أضيفه خاصة أن سيادة الوزير لم يعقب، تراجع بجسده فى مقعده وبدا أنه قد استغرق فى تفكير عميق لذا رأيت أن من المناسب أن أستأذنه فى الانصراف ما لم يكن يريدنى فى أمر ما فأذن لى بإشارة من يده، تراجعت بظهرى حتى وصلت إلى باب المكتب وكان آخر مشهد وقع بصرى عليه قبل أن أغادر مكتب سيادته هى تلك الحالة الشديدة من الاستغراق فى التفكير.

لا أعرف لماذا عندما عدت إلى الإسكندرية وجدت نفسى فى حاجة إلى زيارة لطيفة وهو أمر لا أشعر به كثيرًا بل إننى لا أفعله إلا كقضاء واجب وخوفًا من ثورتها عليَّ.

كنت فى حاجة إلى أن أرتمى فى حضنها وأغمس شفتي فى عنقها و أغمض عيني ثم تتجمد أفكارى، أنا الآن فى المكان الصحيح أنا لا أستحق امرأة سواك يا لطيفة.... امرآة ساقطة سكيرة تريد أن تبتاعنى بأموالها الموروثة..... لست أقذر منى يالطيفة أنت تسعين إلى هدف لا

تستحقينه مستخدمة كافة الوسائل وأنا مثلك وقد يكون لك عذرك الإنسانى أما أنا فلن أجد يومًا أحدًا يمكن أن يلتمس لى العذر.

سمعتها تتساءل هامسة:- إلى متى؟

ظننت إنها ستعود للحديث عن أمر الزواج مرة أخرى والتى كانت قد أقلعت عنه منذ زمن، ومنذ هذا الإقلاع انحسرت العلاقة بيننا لتصبح فى حدود إرواء جنسى جزئى للأجساد الشابة خاصة بعد أن هددتها بإنهاء العلاقة تمامًا والتوقف عن زيارتها.

دفعت جسدها برفق متخلصًا من ذراعيها التى كانت تحيط بها جسدى، كنت أحاول أن أستجمع زمام نفسى لمواجهتها هتفت بها متوعدًا:

- هل ستعودين لمثل هذا الحديث؟!

وقبل أن أنهض لالتقاط قطع ملابسى المتناثرة سارعت تقول:-

- لا أقصد ما يمكن أن يكون قد ورد بذهنك، إنما أقصد إلى متى سنظل نمارس جنس غير مكتمل لا يليق بى أو بك.

أدركت ما ترمى إليه سألتها:- هل أنت على استعداد لتحمل النتائج؟

قالت مستخفة:- لا توجد نتائج لا يمكن تحملها فأقراص منع الحمل تدرأ الخطر أما عن هذا الغشاء اللعين فيمكن عمل بديل له فى أى وقت.

لم أكن قد سمعت بإمكانية هذا الأمر من قبل أو على الأقل لم أكن أتصور أنه قد وصل إلى بلادنا ويبدو أن تعبيرات وجهى قد فضحت ما يدور بخلدى فقالت:-

- . هل تعلم أن هناك نساء يذهبن كل عام إلى الطبيب فى ذكرى عيد زواجهن ليصنع لهن غشاء جديد ليعيش الزوج والزوجة كل عام متعة لحظة زفاف جديدة.

سرح خاطرى فى الخطوة الشيطانية التى قمت بها صباح اليوم، ساورنى قلق عن النتائج الممكنة، إلى أين سيذهب التفكير العميق للسيد الوزير، انتشلتنى لطيفة من أفكارى كانت تتحدث عن موعد لزفافنا قالت:- ليكن الخميس الأول الشهر القادم.

بصعوبة قمت بالربط بين غشاء البكارة المصطنع وحبوب منع الحمل وموعد الزفاف ووجدت نفسى أومئ برأسى موافقًا.

كانت قد غادرت الغرفة وتركتنى غارقًا فى أفكارى، انتبهت عليها تدخل بعد لحظات، بدت أمامى عارية تمامًا، أطلقت لشعرها العنان فغطى جانب كبير من صدرها العارى، كنت ممددًا على ظهرى فوق الفراش بينما كانت تتراقص أمامى، فقد كانت تدرك أن عريها الكامل غير كافٍ لإثارتى، اقتحمتنى سائلة:- فيما تفكر؟ هل تشك فى ذكورتك؟ كانت الدماء تندفع ساخنة حارة فى عروقى، أجبتها

- لا أشك فى قدرتى ولكنى أثق فى عدم قدرتى على الصبر حتى ذلك الخميس الذى حددتيه.

وفى لحظة خاطفة جذبتها من خصرها لتسقط بين ذراعى فمددتها فوق الفراش ورحنا نفرغ طاقات سنوات الغليان فى لحظات مسروقة من الزمن.

****

شهدت الأسابيع التالية أحاديث كثيرة للجرائد والمجلات عن بعض أسرار العلاقات الخاصة فى عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فنشرت مجلة روزاليوسف خصوصيات علاقة المشير عبد الحكيم عامر بالفنانة برلتنى عبد الحميد وكذلك زواج مدير مكتبه من الفنانة مها صبرى.

قرأت تفاصيل هذه العلاقات فى أكثر من مكان، تلقيتها مسرورًا فقد كان هناك انتقاد كبير لأى زواج غير متكافئ بين مسئول كبير وفنانة فما بالنا إذا كان بين مسئول كبير وخادمة.. مجرد خادمة.... إن كل هذه التحقيقات المنشورة، عما يسمى بالعهد البائد لا شك إنها ستدفع السيد الوزير إلى التخلص من أى موطف بوزارته يمارس جانبًا من هذه السلوكيات التى تدينها الصحافة والمجتمع.

لا شك إن هذا ما شغل سيادة الوزير وجعل التفكير العميق يستغرقه، من المؤكد إنه قد تساءل بينه وبين نفسه ماذا لو وصل الخبر إلى السيد رئيس الجمهورية وكيف سيكون موقفه، أدركت حينئذ إن تفكير سيادة الوزير لا بد أن يسفر عن موقف شديد ضد يوسف عزوز فى خلال الأيام القادمة.

علمت من أحد رواد صالون زاهية زهدى إن طلاب كليه الهندسة قد ضمنوا مجلات الحائط الخاصة بهم خطابًا من زميلهم المعتقل رمزى ياسين يذكر فيه تفصيليًا وقائع تعذيبه بسجن الحضرة عقب اعتقاله.

استدعانى صفوان المراغى سألنى ناهرًا:-

- كيف وصل هذا الخطاب إلى أيدى الطلبة.

أجبت صادقًا وحائرًا:- لا أعرف.

لم أكن فى حاجة إلى تنبيهى لخطئي فالمفروض أن مهمتى هى أن أعرف، فالصلة السياسية بين المساجين والخارج تتم من خلالى عبر نظيرة.

ارتفعت نبرة صوته موبخًا:- كيف لا تعرف؟! أنسيت مهمتك، التفت إلى عملك واعطه الاهتمام الكافى أم أن هناك أشياء أخرى تشغلك؟

أطرقت بنظراتى إلى الأرض معترفًا بتقصيري وكانت هذه هى طريقتى فى مواجهة العواصف والأنواء.

عدت للمواظبة على حضور صالون زاهية زهدى، علمت أن آلاف التوقيعات قد جمعت من الطلبة تطالب بالإفراج عن رمزى ياسين وزملاءه.

سارعت بمهاتفة نظيرة على الهاتف الذى كنت قد نجحت فى الفترة الأخيرة فى إدخاله فى شقتها ليسهل الاتصال بيننا، طلبت لقاءها جاءتنى مضطربة قلقة بسبب لهجتى الحادة التى خاطبتها بها

فى الهاتف، لم أعر اضطرابها أي اهتمام بل تعمدت مضاعفته فعملى كله مع أمن الدولة مهدد بالانهيار...

أخبرتنى إنها لا تعلم شيئًا عن خطاب رمزى ياسين فأخبرتها أن ما تم عمل أخرق طفولى يهدد أمنها وأمن أهالى المعتقلين جميعًا.

استطردت ناهرًا وكأنى أعيد تمثيل مشهد صفوان المراغى معى فى مكتبه:- إن عدم المعرفة مصيبة كبرى، يجب أن نهتم بعملنا ولا ننشغل بأي أشياء أخرى فنحن جميعًا مهددون بالاعتقال.

ندت عن ملامحها صرخة مكتومة، فشعرت بسعادة لعذابها، تعلقت عيناها بملامحى وهى تتساءل :- ما العمل؟

طلبت منها أن تتلصص لتعرف من الذى قام بتسريب الخطاب من الداخل إلى الخارج ثم يجب بعد ذلك أن نتخذ خطوات نمنع بها تكرار مثل هذا الأمر، إن الصلة الوحيدة يجب أن تكون عبرنا وفقط.

طلبت أن تقوم بهذا الأمر بكل سرعة وحذر فى آن واحد حماية لها ولأولادها.

عادت أمارات الانزعاج ترتسم على ملامحها الجميلة وللغرابة أنها زادتها حسنًا على حسنها وجمالاً على جمالها، كدت أشفق عليها وأقوم بتهدئتها ولكننى لم أفعل، لماذا لا تتعذب قليلاً وأنا الذى أتعذب كثيرًا كثيرًا بسببها وعلى العكس شعرت بالسعادة لنجاحى فى تمثيل دورى والاستيلاء على كل مشاعرها وأحاسيسها.

سألتنى:- هل يمكن أن أعتقل.

مؤكدًا أجبتها:- بالطبع، لقد فضح الخطاب هذا النظام المستبد لن يجدوا غيرك لتكونى كبش فداء فأنت زوجة رجل من أهم عناصر التنظيم الذي اتهموا بتكوينه.

عادت تسأل:- وماذا لو عرفنا الشخص الذى قام بتسريب الخطاب.

أجبتها:- وقتها فقط تتضاءل احتمالات القبض عليك وأأمل أن تنعدم.

بدا عليها عدم الفهم فتعهدت أن أضفى على عباراتي كثيرًا من الغموض فهذه السيدة لو خرجت من حالة الهلع التى نجحت فى أن أضعها فيها لو هدأت أعصابها وبدأت تفهم لاستنتجت أشياء خطرة بإمساكها بكل التناقضات التى يضمها حديثى والتى أجد نفسى مضطرا لها فى كثير من الأحيان.

مرت برهة صمت أشحت فيها بوجهى بعيدًا عنها وأشعلت سيجارة وتظاهرت بالاستغراق فى التفكير.

كنت أعرف أن نظراتها معلقة بملامحى التى أشحت بها بعيدًا عنها، مدت كفها لامست به صدرى، كدت أقبض عليه وأقبله فهذه هي المرة الأولى التى تتعمد فيها ملامستى لتنبهنى إلى أمر ما، ربتت بكفها على صدرى حتى التفت إليها فسألتنى:- فيما تفكر يا مدحت؟

كان لنطق لسانها باسمى مجردًا وقع جميل فى أذنى..... هذا هو اسمى الذى نوديت به كثيرًا مجردًا وغير مجرد لم أسمعه قط بهذا الجمال

وبهذه الرقة، أجبتها وأنا أضغط على أسنانى حتى لا أخرج من الحالة التى نجحت فى صنعها:- إننى أفكر فيما لو اعتقلتِ كيف سيكون حال الأولاد، بالطبع بوسعى أن أرعاهم، ولكن ماذا يكون الحال لو اعتقلتُ معك؟

راجيةً سألت:- هل يمكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد؟

- إن الموضوع أكبر مما تتصورين لقد قلب الطلاب الجامعة رأسا على عقب بهذه الرسالة.

- أليس الأنسب أن يقبضوا على الطلاب.

- سيفعلوا بالتأكيد.

عقب انصرافها رحت أراجع مع نفسى كل العبارات التى وردت فى حديثى معها، خامرنى شعور بإننى قد تجاوزت الحد وتحدثت بما يمكن أن يثير الريبة، فماذا لو قامت بنقل حديثى إلى حسن منصور فى الزيارة المقبلة، لذا قر رأيي على تحذيرها من نقل أى حديث بيننا إلى زوجها حتى لا نزيد همومه همًا جديدًا.

فى زيارتى التالية للطيفة بإدرت بإخبارى إنها حامل وذلك بعد تجردى من ملابسى، صرخت منزعجًا انزعاجًا حقيقيًا: مستحيل

أكدت لى أنها قامت بعمل كشف حمل وتبين إيجابيته.

أي كوارث مزعجة أعيشها هذه الأيام، بين لوم وتوبيخ صفوان المراغى ونظيرة التى أفضيت لها بعبارات ممكن أن تفسر فى غير صالحى وتكشف حقيقتى لأفراد التنظيم وحتى صباح التى أصبحت تشيح بوجهها بعيدًا عنى كلما تقاطعت أو تلاقت نظراتنا وأخيرًا ها هى

لطيفة تزف لى الخبر المزعج، أنها تعبث بى وتركت نفسها تحمل لتورطنى فى الزواج منها.

نهضت واقفا وكنت تقريبًا متجردًا من ثيابى، سارعت بإرتداء ملابسى واستدرت مغادرًا الشقة وأنا ألعن اللحظة التى عرفتها فيها بصوت مسموع.

قفزت واثبة حالت بينى وبين باب الشقة فى محاولة منها لمنعى من الانصراف، تملكتنى ثورة الغضب، دفعتها فى صدرها بعنف وأنا أنحيها عن طريقى حتى كادت تسقط على ظهرها فإذ بها تضحك ساخرة وهى تقول:- يا محبون لا تخف ليس هناك حمل إنها مجرد مداعبة.

رددت غير مصدق:- أية مداعبة أيتها الحمقاء؟!

اكتسبت ملامحها تعبير الجدية وقالت:- أقسم لك إنها مداعبة ليس أكثر.

كان قد جال فى ذهنى أنها حملت من رجل سواي وجاءت تدعى أبوتى للجنين الكامن فى أحشائها.

عادت للانتصاب واقفة، مرة أخرى دفعتها بعنف فى صدرها حتى سقطت بالفعل على ظهرها وتهالكت أنا جالسًا على مقعد مقابل.

دفنت وجهى فى كفى، خشيت أن تقرأ التعبيرات المتضاربة على ملامحى، ألهذا الحد أنا جبان، خائف مرتعش، أفقد السيطرة على نفسى لمجرد ذبابة تمر بالقرب من وجهى.

كانت السقطة قد ألمتها فبدا التأثر على ملامحها ولكن عندما لمحتني أدفن وجهي في كفيّ ظنت إنني أبكي فتحاملت على نفسها ونهضت مقتربة مني تردد كلمات الاعتذار.

كانت الدموع في المآقي بالفعل على وشك السقوط فقد كنت أعيش أزمة حقيقية فقد مضى أكثر من شهر على حديثي مع وزير الصناعة عن يوسف عزوز، ترى هل استدعاه وصارحه بما قلته وأفصح له عن اسمي وفسر له يوسف بك ما جرى وبرره، إن شمس ليست خادمة وأنها من أصول لبنانية هاجرت أسرتها إلى مصر منذ فترة وأنني أنا الذي عرفتها عليه على أنها موظفة محترمة في شركة خدمات فندقية ... ماذا لو تصالحا وصفح الوزير عنه، لا شك إنهما سيجلسان ليفكرا في كيفية الانتقام مني، هما بالفعل الآن يعدان هذا، في الوقت الذي ينتظر فيه صفوان المراغي تقريري عن الخطاب المتسرب إلى الطلبة لذلك الملعون رمزي ياسين، إذا فكر الوزير أو يوسف عزوز في في إيذائي فلن أجد من يدافع عني أو يقول في حقي كلمة طيبة.

كنت في الحقيقة في حاجة إلى أن أبكي إلى شخص، أفضي له بهمومي كأني أتحدث مع نفسي، هل يمكن أن تكون لطيفة هذا الشخص. ثم ماذا لو لم يقبل الوزير اعتذار وتبرير يوسف عزوز؟، سيقوم بإقالته ويحل محله رئيس مؤسسة جديد لا يعرفني ولا أعرفه، إن عليَّ ساعتها أن أعيد بذل الجهد لكي ألف الحبل حول رقبته وربما يعرف بطريقة ما إنني سبب الإطاحة بسلفه فيحذرني وينصب لي الشراك للإيقاع بي، ثم أليس من المحتمل أن يكون السيد الوزير قد نسي الموضوع بكامله وسط المشاكل والأمور الأهم التي تشغله؟!

انتبهت عليها كانت مقعية على الأرض تحتضن ساقى وتضع رأسها فوق فخذى سمعتها تقول:- لم أكن أتوقع أن يزعجك الأمر إلى هذا الحد.

مددت كفى تحسست وجنتها وأنا أقول:- بل أنا الذى يجب أن يعتذر.

ما إن سمعت عبارتى حتى نهضت واقفة وألقت بجسدها بين ذراعي ولم يكن أمامى إلا أن أحملها إلى الفراش لأقضى الليلة معها حتى صباح اليوم التالى.

كما توقعت أو بالتحديد تمنيت، كان الأمر أبسط من تصورات كثيره جرت فى ذهنى وبالتأكيد خطرت فى ذهنى صفوان المراغى.

عندما التقيت بنظيرة فى لقائنا التالى أخبرتنى إن رمزى ياسين قص لأخته وقائع التعذيب الذى تعرض له وبدورها قصته لأحد زملائه بالكلية الذى قام بصياغتها فى صورة الخطاب الذى سمعنا عنه.

أدركت أن ما أزعج الضابط صفوان ليس تسرب الخطاب ومن الذى سربه فمن البديهى إن زيارات الأهالى للمعتقلين تشكل صلة لا يمكن السيطرة عليها أو التحكم فيها خاصة تلك الأحاديث الشفوية التى تنقل فى الزيارات، ولكن ما أزعج المراغى هو رد فعل الطلبة غير المتوقع، فقد علمت أن نص الرسالة المختلقة قد نشر أيضًا فى عديد من مجلات الحائط فى كليات القاهرة وعين شمس وأسيوط وأنه قد تم جمع توقيعات عليها تحصى بالآلاف تطالب بالإفراج عن رمزى ياسين وزملائه المعتقلين.

أبديت ارتياحى أن الخطر قد ابتعد عنها فلا شك إن أمن الدولة -هكذا قلت لها- ستصل إلى ما وصلنا إليه.

اتنهزت الفرصة لأعبر لها عن قلقى عليها وعلى أولادها وعلى حسن منصور ولكنى فى كل الحالات كنت أعلم إننى أسير فى طريق مسدود، لقد كنت كمن يشيد منزلاً فى أرض لا يمكلها.

وكأننى أصبحت مريضًا بالشك فقد شعرت فجأة أن ارتياحى يذوب وتنتابنى من جديد أحاسيس القلق والإنزعاج، لقد وصلت إلى نتيجة إن كشفى لأمر يوسف عزوز لوزير الصناعة أمر لم أكن موفقا فيه وبالتأكيد سيعود على بالويل والثبور وسأفقد كل ما وصلت إليه وما أفنيت سنوات عمرى وأنا أحاول بناءه ماذا يكون الحال عندما يقول الوزير ليوسف عزوز أن الموظف الذى أثنيت عليه هو أول من خانك، لم أستطع إكمال جلستى مع نظيرة كانت تتطلع إلى بعيون راجية، لاحظت إن إزعاجى أزعجها والكدر الذى ارتسم على ملامحى طبع بدوره الكدر على ملامحها أين أنت يا نظيرة من عالمى؟ إننى شرير إننى أطمع فى الحصول على كل شيء.... كل شيء ورغم ذلك تمر الأسابيع طويلة وعديدة ولا نسمع شيئًا عن يوسف عزوز وشمس وردود فعل سيادة الوزير.

نهضت واقفًا استأذنت من نظيرة دقائق، ذهبت فيها إلى هاتف الكازينو، طلبت شمس فى منزلها، منزل يوسف عزوز، لم يرد عليَّ إلا الخدم فوضعت المسماع دون ذكر اسمى، عدت إلى مجلسى أمام نظيرة تأملت تقاطيعها البريئة لحظات وقلت لنفسى:- هل تعلمين يا نظيرة

أنك وحدك تملكين الجانب الأكبر والأعظم من راحة بالى، ماذا يحدث لو تبادلنا الحب، لو صارحتك بمشاعرى وأخبرتينى إنك تبادلينى نفس المشاعر وقتها لن يسع العالم فرحتى سأخطو بحذائى محطمًا كل الصعاب يوسف عزوز والوزير ولطيفة... كل الصعاب لحظتها لن يكون لى فى الدينا سواك ولن تكون فى العالم قيمة سواك.

قررت أن أنهى اللقاء، طلبت منها الانصراف وحدها إلى منزلها بخلاف كل المرات السابقة التى كنت أقوم بتوصيلها فيها إلى شارع أحمد أبو سليمان قبل أن أدعها تكمل طريقها إلى شقتها بالقرب من شركة النشا وحدها.

فى هذه المرة انصرفت بدونى وظللت جالسًا أدخن فى عصبية سمحت لنفسى باحتساء ثلاث زجاجات من البيرة، نهضت بعدها مترنحا بعد أن زرت دوره المياه أكثر من خمس مرات، كيف سقطت صريعًا فى أحضان لطيفة كيف حققت لها ما كانت تسعى له دائما؟ ومع ذلك فإن قرار الممارسة الكاملة قرار صائب لأن دون هذا لا يليق بأعمارنا ولكن لا يجب أن أنكر أن هذا القرار لم يكن فى مسار أهدافى، إنه يساهم فى توثيق العلاقة التى أسعى لإنهائها والتخلص منها باعتبارها أمرًا من غبار ومخلفات الماضى مثل أبى وأخى عطية وهناء أختى.

عدت إلى منزلى قضيت الليلة ساهرًا أفكر وفى الصباح فى مكتبى رحت أتصفح الجرائد والمجلات التى أتى بها الساعى كعادته كل يوم، كانت الصحافة لازالت منشغلة بقصة الفنانات اللائى تزوجن برجال

السلطة أو كن على علاقة بهن بشكل أو بآخر، احتلت مثل هذه المواضيع مساحات كبيرة من الجرائد والمجلات التى كنت أتصفحها.

وجدت نفسى أطلب حسنى النجار، لحسن الحظ وجدته بمكتبه فى هذا الوقت المبكر بالنسبة له من الصباح، ظلبت منه أن يوافينى فى مكتبى.

بعد ساعة كان جالسًا أمامى، بدأت حديثى بلومه على تقصيره فى كتابة المقالات عن شركتنا التى تتعدد إنجازاتها.

أطرق برأسه إلى الأرض، كان قد مضى شهر كامل لم تنشر فيه الجرائد والمجلات كلمة واحدة عن شركتنا.

أعلن عن أسفه وأخبرنى إنه لن يمر أسبوع إلا ويكون قد نشر مقالا جديدًا عن الشركة وأعمالها، قاطعته معترضًا:- بل مقالين.

فأومأ برأسه موافقًا، تحولت بعد ذلك إلى الحديث عن السبب الأساسى فى استدعائه، طلبت منه أن ينشر فى أكثر من مكان خبر صغير عن زواج مسئول كبير بوزارة الصناعة بإحدى الخادمات زواجًا سريًا عرفيًا تم توقيع عقده عند محامى بمدينة طنطا.

حاول أن يسأل عن تفاصيل الخبر ولكنى سارعت بقطع الطريق عليه وقلت له بلهجة حازمة بأنه غير مسموح لأحد أيا كان بأسئلة أو إيضاحات حول هذا الموضوع.

صحت فيه قامعًا فضوله الصحفى، صمت برهة ثم أشار مضطربًا إلى أن راتبه من الشركة الذي حدد له منذ أعوام لم يحظ بعده بأى

علاوة، تلقيت طلبه مرحبًا ووعدته بعلاوة كبيرة إذا أعجبنى عمله فى الفترة القادمة.

****

فوجئت بالكهارب تزين جانبا من واجهة العمارة، امتدت المصابيح الملونة والزينات إلى جدران الشقة، فى وسط صالة الاستقبال الواسعة امتدت مائدة كبيرة حفلت بأشهى ألوان المأكولات والمشروبات، فى أنحاء الشقة شاهدت طاقم من الخدم والجرسونات تصورت فى بادئ الأمر إننى قد أخطأت شقة لطيفة أو أن حضورى صادف حفلا ما لأحد الجيران اضطر لاستعارة شقة لطيفة لضيق شقته ولكن خادمة صغيرة تقدمت منى، قطعت أفكارى وأخبرتنى إن سيدتها تنتظرنى بالداخل، وعندما دلفت إلى غرفة النوم رأيتها فى أبهى صورها، كانت بحق عروس بذلت أيادٍ كثيرة جهودًا ضخمة فى تجميلها، أضفى عليها الفستان الأبيض والمكياج المتقن جمالاً إضافيا غطى على تقاطيعها غير المتناسقة، سرت الرغبة فى داخلى ساورنى شعور كان يلازمنى كلما اقتربت من لطيفة، إننى ألهث وأنا أصعد جبلا عاليًا ثم تنتابنى لحظة من الإنهاك واليأس فأترك نفسى لأسقط وأهوى والسقوط دائما يصيب صاحبه براحة لحظية فلأترك نفسى لأهوى، لا مشقة لا جهد يبذل لا شيء على الإطلاق.... هممت بخلع ملابسى ولكنها سارعت بإيقافى بإشارة قلت لها مبتهجًا:- دعينا نبدأ الليلة من أخرها، الزفاف أولاً ثم يأتى دور الطعام والشراب.

وافقتنى بإيماءة متدللة والمفاجأة التى لم أتوقعها فى تلك الليلة أننى وجدت لطيفة فتاه عذراء من جديد.

****

اتصلت بشمس الطرابلسى عقب قراءتى لخبر زواجها بالطريقة التى شرحتها لحسنى النجار فى جريدة يومية ومجلة إسبوعية، سألتها عن يوسف بك فأخبرتنى إن خلافًا قد دب بينهما على أثر اتهامه لها بتسريب خبر زواجهما.

أظهرت أسفى لها ولكنى لم أصدق أنها صدقتنى، إن الحرج وحده هو الذى منعها من مصارحتى بإننى ربما أكون وراء تسريب الخبر، علمت منها إنها تتناول مع زوجها العشاء كل خميس فى كازينو اللؤلؤة الزرقاء بكامب شيزار.

اتصلت بحسنى النجار، طلبت منه أن يقوم بتصوير العروسين فى موعد العشاء دون أن ينتبها إليه، جلست بعدها حائرًا قلقًا أنتظر مساء الخميس بشغف هل ينجح حسنى النجار فى مهمته؟ هل يقع ما يمكن أن يقلب الأمور رأسا على عقب فيقبض عليَّ بعدها بتهمة تهريب غزل الشركة وبيعه لشركات القطاع العام... قضيت الليلة السابقة على ليلة الخميس ساهرًا وذهبت إلى عملى فى صباح اليوم التالى مرهقًا وعندما عدت إلى منزلى كان الإرهاق قد بلغ منى منتهاه حاولت أن أتشاغل بمشاهدة التلفزيون أو بمطالعة الجرائد أو بأي شيء من هذا القبيل فلم أنجح.

وفى المساء تخدرت أعصابي ويبدو إنني نمت لأنني رأيت نفسى فى المنام وصفوان المراغى يقبض عليَّ بناء على تقرير من رفعت دوريش أخبرني صفوان المراغى أن رفعت درويش وحسن منصور هما العميلان الحقيقيان لأمن الدولة وإنهما جندا بهدف الإيقاع بى، سألته مشككًا كيف هذا وحسن منصور فى السجن، فبرز لى حسن منصور ساخرًا وهو يقول:- هذا ما أخبرتك به نظيرة، هي الأخرى مجندة مع أمن الدولة وتعرف إنك تحبها وتتمنى الزواج منها وهذا بالتحديد ما جعل الأمن يرشحها لخداعك.

كانت رؤية مزعجة قلبت فيها كل الحقائق، رؤية جسدت هواجسى وقلقى، فبينما أظن إننى أخدع الجميع، نظيرة وحسن منصور وصباح وزاهية زهدى ولطيفة، أكتشف إننى أنا المخدوع معظمهم يعمل مع أمن الدولة ولم يجندوا إلا للإيقاع بى.

استيقظت صارخًا، ظللت لحظات أستجمع فيها أنفاسى قبل أن أتبين أن جرس الباب يدق، نظرت إلى ساعة الحائط كانت قد جاوزت الحادية عشر بدقائق، لقد نمت أكثر من ساعتين لفرط إرهاقى لم أشعر بنفسى، نهضت متثاقلاً لأفتح الباب، إنى لا أنتظر أحدا فى مثل هذا الوقت بل إنى لا أستقبل زوارًا فى منزلى بشكل عام.

وجدته أمامى حسنى النجار وكعادته يضم تحت إبطه حقيبته السوداء وعلى كتفه علقت كاميرا صغيرة تذكرت أن موعده لالتقاط الصور هو الليلة وأننى كنت قبل استغراقى المفاجئ فى النوم كنت أنتظر منه مكالمة هاتفية.

أذنت له بالدخول، الانفعالات الكثيرة المرتسمة على وجهه تسفر عن أن وراء الأكمة ما وراؤها وأنا أقوده إلى الداخل، سرت طمأنينة إلى نفسى، إنها انفعالات مطمئنة، لم يدع لى فرصة لسؤاله، بسرعة وقبل أن يكتمل جلوسه على مقعده، فتح الحقيبه الصغيرة وأخرج منها عددا من الصور المبللة، كان من الواضح إنها التقطت حديثًا.

أخبرنى سعيدًا إنه التقطها منذ ساعة واحدة فقط وسارع بتحميضها، تطلعت إلى صور الزوجين متعجبًا، كانت شمس أجمل من أي وقت مضى، هل يمكن أن يصدق أحد أن هذه كانت خادمة؟

حددت لحسنى الصور التى يتم نشرها، اخترت تلك التى تبرز حسن وجمال شمس الطرابلس فى الوقت نفسه أكدت عليه ألا يقوم بنشر الأجزاء التى بها صور ليوسف غروز وذلك حماية لأفراد عائلته من الفضيحة.

لم يعر حسنى تبريرى الأخير اهتمامه، حذرته أنه سوف يتعرض لضغوط كثيرة للإدلاء باسم المسئول الكبير، كما سيسأل عن مصدر أخباره ابتسم حسنى واثقًا وهو يقول:- إن هناك ميثاق شرف الصحافة الذى يمنح الصحفيين حق إخفاء مصادرهم.

ضحكت ساخرًا ودسست فى يده مبلغًا ماليا كبيرًا معلنًا بذلك عن قوة ميثاق شرف آخر يحترمه الجميع أكثر مما يحترمون المعهود من الأشياء.

أخذ المبلغ شاكرًا وبادر بالانصراف وجلست وحدى أتأمل نسخة الصور التى تركها بين يدي وعندما وقع بصرى على صور شمس من جديد قلت لنفسي:- لو لم تتزوج يوسف عزوز فربما كنت تزوجتها.

فى الأسبوع التالى كانت صور شمس الملونة تزين صفحات أكثر من مجلة وجريدة وكلها امتنعت عن نشر اسم الزوج صراحة وكأنما اتفقوا جميعًا على الإشارة إليه بلقب مسئول كبير بوزارة الصناعة.

فى نهاية الإسبوع فوجئت بمكالمة من مكتب الوزير يستدعينى لمقابلته كان من الصعب أن أتوقع خيرًا، أغلب الظن سينسب إلى تهمة التشهير بالوزارة بتسريب الخبر إلى الصحافة وهى تهمة تكفى لإقالتى أو إعادتى للعمل كموظف بإدارة العلاقات العامة وربما أنقل لإدارة المستخدمين أو غيرها..... لقد قام حسنى النجار بدوره خير قيام وهذا بالذات ما دفع الوزير إلى الغضب، إن سقوط مسئول وزارة الصناعة فى غرام خادمة أصبح على كل لسان، لا شك أن السيد الوزير قد كشف حيلتى وكيف خنت الرجل الذى أمننى على سره.

سوف أعود كما كنت قبل عملى بالشركة بلا دخل وربما أعود لأبى فى كرموز بعد ما أعجز عن دفع إيجار شقة جليم.

إن تهريب الغزل للسوق السوداء يدر دخلاً كبيرا ولكن المدة كانت قصيرة لا تكفى لتكوين ثروة هذا فضلاً عن نفقاتى ونفقات نظيرة ونفقات أعضاء التنظيم بالسجن، كل ذلك قلل من حجم مدخراتى.

لم أكن قادرًا على قيادة عربتى ففضلت أن أستقل القطار إلى القاهرة، فى الطريق مزقنى القلق شر ممزق وعندما اقتربت من مبنى الوزارة أصبحت ساقاى عاجزة عن حملى وبعد أن وقفت أمامه بعد حوالى ساعة من وصولى القاهرة بذلت جهدًا كبيرًا لمحاولة السيطرة على نفسى ومحاولة اخفاء اضطرابي بالتظاهر بالخجل وهو يستقبلنى مرحبًا ويطلب لى القهوة.

طمأنتنى إلى حد ما ابتسامته الهادئة، تكلم السيد الوزير، دخل فى مقدمة لم أع منها شيئًا بل كانت دقات قلبى تتسارع وتتعالى حتى خشيت أن يسمعها، كل ما وعيته عقب إنتهاء مقدمته أنه قال أنه نجح فى إصدار قرار جمهورى بتعيينى رئيسًا للمؤسسة العامة للغزل والنسيج.

تجمدت فى مكاتى، تجمدت التعبيرات فوق وجهى والدماء فى عروقى، كأننى لم أسمع ما قيل كأننى لم أفهم ما سمعت، تمتمت بكلمات لم تصل إلى أذنيه، مرت برهة صمت قبل أن أنتبه إلى نفسى، فركت كفاى جذلاً وبصعوبة استطعت أن أنطق بضع كلمات شاكرة لتلك الثقة الغالية.

فى لحظات استعدت ثقتى بنفسى، انتهى موضوع لطيفة ونظيرة دون أثار جانبية، أقنعت الأولى أن تكون عشيقتى بلا أدنى مقابل من جانبى سوى المتعه المتبادلة لإشباع رغبات الأجساد الشابة أما الثانية فهى تلوذ بأحضانى كأخت وأم وتؤمن حقيقة إننى لا أعيش إلا من أجل سلامتها هى وأولادها وزوجها.

وها هى خطه إطاحتى بيوسف عزوز تؤتى بنتائج لم أحلم بها يومًا، فغاية ما كان يطوف بذهنى هو أن أصبح ذو مكانة مميزة لدى السيد الوزير تجعله يتذكرنى فى الترقيات القادمة داخل مؤسسة الغزل، لم أحلم يومًا أن تكون ثمرة جهودى هو التربع على قمة المؤسسة فى ضربة واحدةٍ.

****

أثناء عودتى بالقطار إلى الإسكندرية وبينما كنت غارقا فى أحلام لا نهائية حتى تصورت أن ما أراه وأسمعه مجرد رؤية منامية معادلة للكابوس الذى سبق أن رأيته فى منامى فنغص عليَّ صحوى ومنامى، قررت أن أفيق من أحلامى وأجرب الالتحام بالواقع وذلك بعد أن ضغطت على شفتي بأسنانى حتى كدت أدميها وعندما فعلت هذا وجدت نفسى فى مقعدى بالدرجة الأولى بقطار التوربينى المتجه إلى الإسكندرية، تأكدت أن كل ما جرى لى حقيقة لا خيال.

طلبت جرائد اليوم من المضيف وعندما أتانى بها رحت أقلب صفحاتها مطالعًا عناوينها باحثًا عن مقال أنغمس فى قراءته وبالفعل صادفنى مقال لحسنى النجار عن شركتنا وإنجازاتها أقصد الشركة التى كنت أعمل بها عضوا منتدبا بمجلس الإدارة الشركة العربية للغزل والنسيج أما منصبى من الآن فأمر آخر إنى عائد إلى الإسكندرية لأحضر حقائبى لأتجه صباح الغد لتسلم مهام منصبى الجديد بالقاهرة كرئيس لمؤسسة الغزل والنسيج.

انغمست فى قراءة المقال الذى أعجبنى بشدة خاصة ما يحويه من أرقام مقنعة عن حجم إنجازات الشركة ومقارنتها بالشركات المناظرة فى آسيا وأوروبا، ذكرتنى الأرقام التى أوردها بما ذكره لى ذات مرة بأنه حاصل على بكالوريوس تجارة رغم عمله بالصحافه.

اشتعلت الأفكار فى رأسى، بمجرد عودتى إلى الإسكندرية ووصولى إلى مسكنى استدعيته تليفونيًا، ولم تمض إلا فترة قصيرة كانت كافية لتناول عشائى.

مثل جالسًا أمامى مستفسرًا ومستغربًا عن سبب الاستدعاء العاجل، أبلغته بالمركز الجديد الذى عينت فيه وطرحتٍ عليه أن يجلس على المقعد الذى خلا بتركى له.

كما توقعت بداية لم يفهم ما عرضته عليه فأعدت عرضى موضحًا ما أقصده، عندما خرج عن ذهوله راح يبدى تخوفه من مهام المهنة التى لا يعرف فيها شيئًا.

كنت أتوقع تعقيبه فقلت حازماُ:- بل تعرف وتعرف الكثير تفصيلاً إنك خريج كلية التجارة وفضلاً عن ذلك إنك تعرف الكثير والكثير عن أوضاع شركتنا فضلاً عن كل هذا فإننى بجانبك وأنا أثق فى إنك لن يمر شهر واحد على أكثر الأحوال حتى تكون قد استوعبت كل ما يخص الشركة من أمور مالية وفنية وغيرها.

أومأ برأسه موافقًا فاعتراضه الشكلى لم يكن إلا نوعا من التمنع اليسير، قضيت الساعة التالية فى شرح مبسط لمهامه المستقبلية وكيف إنها مهام شكلية يقوم بها آخرون نثق فيهم وما علينا إلا التوقيع،

معترفًا قال:- لا أستطيع أن أخفى فرحتى بالمنصب الذى تعرضه عليَّ وثق إننى سوف أكون رهن إشارتك وفى خدمتك ما بقى لى من العمر.

بلهجة حازمة ومؤكدة قلت له:- وهذا ما أريده منك بالضبط وقبل انصرافه ذكرته بأنه لا يجب أن يهمل علاقته بالصحافة وعلى العكس رغم إنه سيقدم استقالته من جريدته إلا أن عليه أن يوثق علاقته بالصحفيين فى الفترة القادمة خاصة بعد أن أعلن رئيس الجمهورية رفع الرقابة عن الصحافة.

فهم ما أرمى إليه حول الدور الذى ستلعبه الصحافة فى الفترة القادمة فى صنع الأحداث.

****

قضيت الأسابيع الأولى فى مكتبى بالقاهرة، كنت أسعى لفهم مهام منصبى الجديد، كما إننى لم أكن أستطيع الاتصال بيوسف عزوز بأى شكل من الأشكال، لقد أخلى مكتب رئيس المؤسسة من كل متعلقاته قبل وصولى بساعات ولم تقم الحفلة المعتادة فى مثل هذه الأحوال التى يقوم فيها السلف بتسليم المنصب للخلف تجاهلت أي حديث عنه فى المؤسسة، حتى لم يعد اسمه يردد بين العاملين.

وفى زيارتى الأولى للإسكندرية ذهبت لزيارة صفوان المراغى، هنأنى بمنصبى الجديد مشيرًا إلى دور أمن الدولة فى تزكيته، شكرته مبتسمًا وهنأته بدورى على رتبة عميد التى حصل عليها مؤخرًا.

فرك يديه وهو يقول لى:- هناك خبر يجب أن تسمعه ولا أعرف ما إذا كان يفرحك أو يحزنك.

تنبهت كل حواسى وأنا أتمتم:- خير.

- صدر حكم المحكمة بالإفراج عن المتهمين.

لا أعرف لماذا سألت مستغربًا:- أى متهمين؟!

وكان أمر التنظيم قد غاب عن ذهنى تمامًا، أجابنى متعجبًا:- وهل هناك غيرهم، المتهمون فى تنظيمك الشيوعى.

أسقط فى يدى، فأنا لم أعد العدة إطلاقًا لمثل هذا اليوم، تصورت دائما أنهم سيعاقبون بأحكام تتعدى العشر سنوات، يقضونها خلف القضبان، تصورت إننى سأنتهز الفرصة وقتها لأضغط على نظيرة كي تطلب الطلاق بحجة طول فترة السجن، وكنت كثيرًا ما أذهب إلى وضع تفاصيل سيناريو لتلك المواقف كيف سأدغدغ مشاعرها وكيف أقنعها أن من الخير لها ولولديها أن تطلق ولكي تسد أمامى المنافذ ستسألنى يائسة ومن يمكن له أن يتزوجنى ليربى ولدي رجل آخر ووقتها سأقول لها:- ألف رجل ورجل يتمنون الزواج منك.

ستمصمص شفاها وهى تقول:- إنه مجرد كلام..... ووقت الجد لن أجد رجلا واحدا.

حينئذ أتقدم وأقول:- ها أنا على استعداد لأن أكتب عليك فى اليوم التالى لانقضاء العدة.

سأتمهل لحظه وأسألها:- هل تثقين فيما أقول.

ستطرق بعينيها الجميلتين إلى الأرض وتتمتم:- بالطبع أثق.

ولحظتها لن تجد مفرًا من طلب الطلاق وتنفيذ السيناريو الذى وضعته مفصلاً.

ولكن الآن سقط كل هذا بصدور قرار الإفراج، سألت معترضًا:

- لماذا الإفراج عنهم والإتهام ثابت عليهم.

أجابنى:- لا تنسى إنهم قضوا فترة طويلة دون محاكمة وهذا وحده يسقط القضية.

- ولماذا تركتوهم فترة طويلة دون محاكمة.

- إن الأوضاع السياسية لم تكن تحتمل أى نوع من "الشوشره".

- والآن؟!

- الآن فقدوا الأرض التى كانوا يقفون عليها والإفراج عنهم لن يضيرنا ولن يجدوا هم أو غيرهم ما يمكن أن يحرضوا به العمال.

كان الحديث يبدو بلا فائدة، لذا توقفت عن الاسترسال واستأذنت فى الانصراف لأدع لنفسى الفرصة فى التفكير فيما سأفعله مع حسن منصور ورمزى ياسين ونظيرة فيما هو قادم من الأيام.

إن منصبى الجديد فى القاهرة سيحرمنى بالتأكيد من رؤية نظيرة بنفس الكثافة التى كنت أراها بها وأنا أعمل بالإسكندرية، كان لقاؤها وتأمل ملامحها وسماع صوتها يسعدنى، رغم خلو الجلسة من كلمة غزل واحدة أو من عاطفة متبادلة أو حتى لو كانت تبث من جانب واحد، كان الحديث بيننا عادة ما يكون تافهًا حول زوجها والولدين

ومشاكل الحياة العامة ولكننى كنت أسعد باللقاء سعادة تفوق أي ساعات سعادة أخرى خلال يومى.

بشغلى منصبى الجديد سوف تتباعد هذه اللقاءات وكان هذا أكثر ما يشغلنى عندما تسلمت مهام عملى بالقاهرة وعدت إلى الإسكندرية فى أجازة قصيرة لألقاها وذهبت للقاء صفوان المراغى قبل لقائها لأفاجأ بالخبر الذى سيحرمنى من لقائها تمامًا، بخروج حسن منصور من السجن سقط مبر العلاقة واللقاء معها.

كنت أفكر فى التخلص من غريمى فإذ به يفك أسره ويعود إلى الساحة ليقف فى مواجهتى ويزيحنى من طريقه.... فكرت كثيرًا ولم أجد فى نفسى القدرة على الذهاب إلى موعدها، ستقتلنى سعادتها ستصيبنى فرحتها بقرب خروج زوجها بالتعاسة، ستقضى الجلسة فى الحديث عنه وما ستفعله معه عند خروجه، وعليَّ أن أستمع بل وأشاركها فرحتها أيضا.. يا لتعاستى، لأول مرة قررت أن أخلف لها موعدًا وقدت عربتى متوجهًا إلى مسكن لطيفة.

****

أقيم حفل كبير فى يوم خروج الزملاء من المعتقل بمنزل زاهية زهدى، عدت من القاهرة خصيصًا لحضوره، أنفردت بحسن منصور، كان كما توقعت، حديثه يتفجر بالحماس، الفرحة تكسو وجهه، خرج من السجن منتصرًا بعد أن أصبح بطلاً ها هى زاهية زهدى تضمه إلى صدرها وتقبله فى وجنتيه وتفعل نفس الشيء مع رمزى وأبو

عيشة ورشدى موظف مكتب العمل.... ها هم يجلسون فى صدر الصالون وعيون الحاضرين متعلقة بهم.

أحيت الحفل على غير توقعى صباح، غنت أغانى فيروز والشيخ إمام وعدلى فخرى، تركت نفسى أهيم فى صوتها الندى، خلتها فتاتى وإنها تغنى لي وللوطن الذى أعمل من أجله وعندما تنبهت إلى نفسى فى نهاية السهرة قلت لنفسى:- إننى لست من هذا العالم، لا الفتاة فتاتى ولا الوطن وطنى فأنا لست إلا جاسوس أقوم بالإبلاغ عن هؤلاء الذين يعملون مخلصين من أجل وطنهم ويبذلون كل طاقاتهم فى سبيل النهوض حتى لو أخطأوا أو سلكوا طريقًا لا يؤدى إلى الأهداف التى يبغونها.

ها هي زاهية تتحدث بانطلاق مع حسن منصور وتكاد تحتضنه بعينيها كأنه ابنها العائد من الأسر وها هي صباح تتهامس مع رشدى موظف مكتب العمل، لا أعرف لماذا شعرت بالغيرة، من هذا الأخير قرأت فى عينيه نظرة لم أتعود رؤيتها فى عيون رواد صالون زاهية تجاه صباح... ساورنى شعور شديد بالغربة فأردت مقاومته، قربت على كتف حسن منصور وهمست فى أذنه وأنا أقول له:-ستعود إلى منزلك معى.

فى الطريق إلى منزله حدثته بما يفيد أن أمورًا كثيرة قد جرت أثناء غيابهم وإن مهمتنا فى الفترة القادمة ستكون هى إعادة بناء التنظيم من جديد بعد دراسة سلبيات الفترة السابقة والاستفادة من دروسها، كان يومىء برأسه متحمسًا وعندما وصلت إلى نهاية حديثى بإننى لن

أكون معهم بالإسكندرية إلا نادرًا وذلك بسبب المنصب الجديد الذى رقيت إليه.. كنت حذرًا وأنا أنطق كلماتى الأخيرة، لذا حدثته عن زملائنا بالمناصب القيادية بالدولة الذين رأوا أن أحتل هذا المنصب لأمثل اختراقًا حادًا فى قلب النظام الحاكم أستطيع منه أن أخدم حزبنا.

كاد يطير من الفرح عندما علم إننى أصبحت رئيس مؤسسة الغزل والنسيج، سعدت بتصديقه كذبتى وفرحه بها فربت على كتفه وحدقت فى عينيه، وكنا قد وصلنا إلى منزله، وقلت:-

- لا تنسى إننا إذا ضربنا فى جانب فإننا عادةً ما نعوض الضربة بنجاحات كبيرة فى جوانب أخرى.

مال عليَّ وقبلنى سعيدًا فضممته إلى صدرى، دعانى للصعود إلى منزله ولكننا كنا قد تجاوزنا منتصف الليل بساعتين ومع إنى أتمنى مثل هذه الزيارة ولكن الحال لم يكن متاحًا لها بأى حال من الأحوال.

رغم معرفتى بمشاعر رفعت درويش تجاهى إلا إننى قررت ترقيته ليصبح نائبا لرئيس مؤسسة الغزل، كنت أعلم إن قرار ترقيتى لم يرق له وإن مشاعر الغيرة والحسد قد أكلت قلبه كما يقولون، ورغم إنه قد أظهر لى خلاف ذلك، ولكننى كنت أعذره فقد عينت بالشركة وكان هو رئيس مجلس إدارة لها، حقًا كان حديث العهد به ولكنه كان رئيس مجلس إدارة وأنا لا أزيد عن كونى موظف فى الدرجة السابعة حديث التخرج ليس له أن يتطلع إلى الدرجة السادسة إلا بعد عامين من تعيينه وإذ بى أصعد لأصبح مديرًا لإدارة العلاقات العامة ثم عضو

مجلس إدارة منتدب ثم رئيس مؤسسة الغزل والنسيج وهو لازال فى منصبه لذا كان من المناسب أن أرفعه درجة ليصبح نائبًا لى.

إن رفعت درويش يقوم بتهريب الغزل فيقيد فى الدفاتر على إنه عادم ويباع فى المزاد تحت هذه الصفة ليتم إرساؤه على أشخاص بعينهم، فى عهدى امتد الأمر إلى الماكينات وقطع الغيار، من السهل أن تقيد هذه الأشياء على أنها عوادم لتباع فى مزادات صورية.

يجب أن يمتد نشاط رفعت درويش الى كل شركات الغزل، شكل مع حسنى النجار فريق عمل يعمل تحت قيادتى لتعميم خبرات السرقات والتهريب على كل شركات الغزل وكنت أحصل وحدى على كافة العوائد وفى المقابل كنت أمطرهما بالمكافأت المشروعة عن طريق عملهما فى لجان صورية وكذلك المكافآت والحوافز فى المناسبات المختلفة بالإضافة إلى رحلات الحج والعمرة والسفر إلى الخارج أكثر من مرة خلال العام الواحد لكل منها، إلى غير ذلك من الأمور التى يمكن الحصول منها بشكل قانونى على عمولات ومبالغ مالية تكاد تعادل فى أحايين كثيرة المبالغ التى أحصل عليها من صفقات المزادات الصورية للغزل.

هاتفنى صفوان المراغى فى مكتبى بالقاهرة، طلب منى أن ألقاه بمجرد نزولى إلى الإسكندرية.

فى مكتبه اقترح عليَّ تنحية حسن منصور عن قيادة التنظيم، لم يفاجئنى الإقتراح فكثيرًا ما فكرت أن أنسب الأشخاص لقيادة هذا

التنظيم هو رمزى ياسين فهو أكثرهم ثقافة وعلم وقدرة على القيادة، باختصار كان أبرزهم فى جميع المجالات التى يمكن أن تطرأ على الذهن.

أعربت مرتاحًا عما يدور فى خاطرى قلت:- تقصد أن يتولى رئاسة التنظيم رمزى ياسين.

فوجئت به يقول معترضًا:- لا........ لم أقصد رمزى ياسين على الإطلاق.....إنما أقصد أبو عيشة.

صعقت لما أسمع، رددت مستنكرًا:- أبو عيشة... أجاد فى اقتراحك؟!

حازمًا وناهرًا قال:- بل اعتبره أمر ياسيد مدحت.

صمت لحظة ريثما يقرأ انعكاسات أمره على ملامحى ثم استطرد قائلاً:-

- إن اندهاشك يعنى إنك نسيت مهنتك وإقتراحك رمزى ياسين بالذات يعنى إنك صدقت الكذبة التى اخترعناها سويًا، لو فكرت لحظه لأدركت أن أبو عيشه خير من يستطيع تدمير هذا التنظيم، إن قيادته له يعنى قيادته إلى حتفه.

كانت اللهجة الحادة التى يحدثنى بها جديدة عليَّ ولم تشهدها جلساتنا من قبل، أعترف إننى كنت مخطئ، لقد خلطت بين إعجابى برمزى ياسين وبين من يجب أن يعين ليقود هذا التنظيم إلى حتفه، إن الطبيعى أن أعين الأسوأ، أعين من لا يجب أن أعينه حتى أكون بذلك قد زرعت بذرة للفتنة لا تلبث أن تنمو فى وقت من الأوقات، إن تعيين أبو عيشة قائدًا للتنظيم يضمن لى ولاءه الكامل، إذ إنه لو

ترك الأمر لنفسه فلن يجرؤ أن يعين نفسه قائدًا للتنظيم مهما اشتد به الغرور والكبر وتضخمت ذاتيته فهو أحقر من أن يفكر مثل هذا التفكير أو يطمح بمثل هذا الطموح، وحقارته وانحطاطه هذا بالذات ما سيثير مشاعر الآخرين ويبعث فيهم مشاعر الغيرة ويكون بداية لتفكك كبير يحدث فى النفوس ويشاهد فى العيون ولا تفصح عنه الألسن ويظل وقودًا يشتعل تحت الرماد إلى أن تحين اللحظة وينفجر التنظيم من الداخل.

بسبب صعوبة المهمة فكرت ربما لأول مرة فى الإعتذار عن مهمهة كلفت بها، لا أستطيع أن أتصور نفسى ألتقى بهذا القزم القمئ بشكل دورى لألقى إليه بتعليماتى لينقلها هو إلى الآخرين،، إن هذا القزم لو فكر بضع دقائق لأدرك أن لا أحد يمكن أن يقترحه كقيادى إلا أمن الدولة فهى الجهة الوحيدة التى سبق له أن خدمها حين جند رجالها ودس بهم فى الخلايا المختلفة، هى الجهة الوحيدة التى خدمها خدمة جليلة وها هى ترد له الجميل وتعينه قائدًا للتنظيم ولكن أنى له أن يفكر فى مثل هذا الأمر،، أنى له أن يفكر أصلاً إن غروره وكبره سوف يجعلانه يفكر بطريقة مختلفة، لقد أدركت القيادة بالقاهرة أنه شيوعى حقيقي وهو الوحيد البروليتارى وهو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يقود حزبًا شيوعيًا للعمال، أليس عاملا؟! أليس شيوعيا؟!

أبديت شديد اعتذارى، اعترفت إننى قد نسيت دورى للحظات ولكنى استدركت قائلاً:- ولكن كيف سأبرر اختيارى لهذا الأراجوز ليكون زعيمًا عليهم.

أجابنى بعد أن استعاد هدوءه:- ستعقد لقاءات منفصلة تقوم فيها بنفخه ليصبح أكبر من أى بالون، تقوم بالتعظيم من الخبرة التى استطاع بذكائه اكتسابها من والده الشيوعى، إنه فى النهاية هو البروليتاريا، القيادى الوحيد من بين كل أعضاء التنظيم وأنه وأمثاله نواة الشيوعية الحقيقية فى مصر، وإنه كان يصلح للقيادة من اللحظة الأولى ولكن الظروف هى التى أخرت تعرفه عليه حتى أتى فى الترتيب بعد حسن منصور، كما يجب أن توضح له إنك ترصد أخطاء حسن منصور جيدًا وإنك تبلغ بها القيادة أولا بأول وأنهم يرون أن الزميل يجب احتضانه وإعادة تربيته من جديد ولكن لا يجب أن نضحى فى سبيل ذلك بالتنظيم كله.

واستمر صفوان المراغى يحدثنى فى كيفية لقاء كل فرد من أفراد التنظيم والطريقة التى أتحدث بها مع كل منهم وبالفعل بادرت بلقاء ثنائى مع أبو عيشة وأعترف أن هذا اللقاء كان من أصعب المهام التى قمت بها فى حياتى وأشقها على نفسى، فكيف أذهب وأشيد بهذا "البورص" الذى تباهى كثيرًا و"بخ" فى الملح محاولاً تقليد الثعبان ولا ينتج عما فعله أى ضرر ولكنه يتصور أنه مثل الثعبان له القدرة على أن "يبخ" فى الطعام فيسممه.

هذا هو أبو عيشة الذى يرفع أكتافه إلى أعلى فى محاولة مستميتة للاستطالة ولو بضعة سنتيمترات قليلة، يرفع رأسه إلى أعلى ويتراجع بها إلى الوراء موهمًا محدثه إنه يفكر ويفكر بعمق وأنا فى الوقت نفسه أعرف جيدًا إنه لا يفكر وليس لديه تلك الملكة التى يمكن حتى لبعض الحيوانات أن تمتلكها وتستخدمها فى ظرف من الظروف.

فى الحقيقة كنت أشيح عنه بوجهى وأنا أحدثه مخفيًا تعابير وجهى بظلام طريق ترعة المحمودية فى المسافة المقابلة لشركة النشا والخميرة، كانت أضواء الطريق مسلطة على وجهه فأقرأ على ملامحه كل تعابير الغرور والكبر وكأنى بكل الصفات العظيمة الكاذبة التى أضفتها عليه لم أذكر إلا الحقيقة أو ما هو دونها.

احتميت بالظلام حتى لا أصاب بالقئ والغثيان من فرط ما أعانيه أثناء حديثى معه، أنهيت المقابلة وأنا أشعر إننى أنجزت أثقل وأصعب المهام فى حياتى.

التقيت بعدها برشدى وهو أقلهم طموحًا إلى الزعامة فرحت أتحدث عن المساوئ التى اختلقتها اختلاقًا فى حسن منصور أكثر مما تحدثت عن مزايا الأراجوز أبو عيشة وحينما أيقنت إنه يتفق معى فى بعض منها وكنت أراهن على طيلة فترة بقائهما متلازمين فى السجن، لا شك إنه قد خلق وأوجد بعض الخلافات بينهما حتى ولو كان دافعها الملل وطول الملازمة والسأم من حياة السجن لا السأم من الزملاء.

كنت أعرف أن من الطبيعى أن تتواجد أشياء من هذا القبيل بين أى زميلين أو رفيقين، أتحت له الفرصة لكى يدلى بها فتحت له الباب فانطلق يتحدث عن بعض أخطاء حسن البسيطة فقمت بتضخيمها ومدها على استقامتها لأصفها فى النهاية بإنها صفات برجوازيه صغيرة بالاستطراد فى الحديث بدأ رشدى يشاركى فى وجهه نظرى فاستدركت أن التعليمات والتوجيهات المبدئية تتطلب منا احتضانه وإعادة تربيته التربيه الشيوعية الحقيقية ولكننا لا يجب أن نضحى

بالتنظيم فى سبيل ذلك وحتى نتبع المبادئ الشيوعية الحقيقة علينا أن نولى أمور التنظيم للشخص الوحيد الذى تتوافر فيه صفتى الشيوعية والبروليتارية معًا كنت وقتها أسخر اللغة التى يمكن أن تتشكل فى كل الاتجاهات وتجعل من الشياطين ملائكة ومن الملائكة شياطين.

ثم التقيت برمزى ياسين ولم أسلك نفس الطريق، طريق السب والقذف فى حسن منصور ومحاولة الإقلال من شأنه، إنما ولمعرفتى بنقاط القوة والضعف به، حدثته عما يتطلبه المبدأ الأعلى، المبدأ اللينينى والذى يطلب ما أن نرفع من شأن البروليتاريا حتى ولو كان وعى أفرادها أقل من وعى بعض المثقفين البرجوازيين وإننا يجب أن نحتفى بها وأن نتيح لأفرادها الفرصة للتطور لذا ليس لدينا إلا شخص واحد بالإسكندرية فى جانبيه العمالى والطلابى تتوفر فيه هذه الشروط

وعلى عكس ما كنت أتوقع، لم أحتج لجهد كبير لإقناع رمزى ياسين بالأمر فقد كان مثقفًا متواضعًا يؤمن بأهمية تطوير البروليتاريا الذين ينضمون إلى التنظيم ويجب إتاحة الفرصة لهم للقيادة والتطور لأنه عبر هذا الطريق يمكن إنشاء الحزب البروليتارى الشيوعى الحقيقى.

بعد لقائى هذا اجتمع أعضاء التنظيم واختاروا أبو عيشة زعيما للتنظيم فى الإسكندرية والغريب أن هذا قد تم بالإجماع وكان حسن منصور أكثر المتحمسين لتولى أبو عيشة زعامة التنظيم بالإسكندرية وكان عليَّ أن ألقاه كلما عدت من القاهرة لألقى له بالتعليمات الجديدة الصادرة من زعامة التنظيم.

******

تم إعادة تشكيل التنظيم بالإسكندرية وانضم إليه مجموعة كبيرة من الطلاب وبعض العمال بشرق الإسكندرية، استغرق الأمر شهورًا إلى أن تلقيت التعليمات التالية من صفوان المراغى وكانت يأمر بتنفيذ مخطط يختلف عن الذى نفذ وسط العمال وإن كان يؤدى لنفس النتائج كان المخطط يقضى بسحب القيادات الطلابية إلى الداخل ليجلسوا فى غرف مظلمة مغلقة عليهم ويكون كل عملهم هو سب الحكومة والنظام ليل نهار. كان يخيل لى إن على كل عضو أن يشترى سبحة ليقوم باستخدام حباتها وهو يسب النظام الحاكم تسعة وتسعين مرة كل ربع ساعة ولا مانع أن يودعوا هذا السب أوراقهم فيكتبوا سبابهم ويقوموا بطباعته طباعة بدائية للغاية ثم يجلسوا ليقرأوا هذا السب ويباركوه كما يقرأ الصوفية أورادهم من أوراق فى أيديهم.

الغريب أن هذا بدأ يحدث بالفعل تحت قيادتى وقيادة صفوان المراغى والحقيقة إن هذا الأخير كان يعيد قراءة تاريخ ما يسمى بالحركة الشيوعية الثانية والذى كان قد قرأ عن تجربتها من قبل خاصة فيما يتعلق بطبع المنشورات والمجلات الداخلية.

كيف لا ينتبه هؤلاء الأغبياء إلى أن ما كان يطبق فى مطلع القرن العشرين لا يجوز تطبيقه ونحن تقترب من نهاية القرن، إن وسائل الاتصال تغيرت كثيرًا وأصبحت الميديا الإعلامية تضم بجانب الكتاب والمجلة والجريدة أشياء أهم وأخطر وأكثر انتشارًا مثل الراديو والتليفزيون والسينما والفيديو وشرائط الكاسيت.

لازال هؤلاء يتمسكون بتلك الأوراق الرخيصة ذات الطباعة شديدة السوء ويتصورون إن بها من الكلمات ما يكفى لإشعال الحرائق وقيام الثورات وتفجير الانتفاضات.

ويجب أن أعترف مع ذلك أن أمر سحب الطلاب إلى الداخل لعمل هيكل عظمى لحزب جماهيرى لم يكن أمرًا سهلاً ولا ميسورًا بمثل ما كان فى الأوساط العمالية فبينما فى المرة الأولى تحقق الأمر بسهولة مرور السكين فى الزبد، نجده هنا يجد اعتراضات وتكتلات بل وانشقاقات من الطلاب بسبب أن الجامعة كانت تشهد حركة طلابية حقيقية وليس مجرد نتوءات اعتراضية تلقائية مثل التى كانت فى الوسط العمالى.

مرت شهور طويلة قبل أن ننجح فى شد الزعامات الطلابية إلى الداخل صدرت لهم الأوامر بعدم الذهاب إلى الجامعة بل عوقب كل من تغلبت عليه تلقائيته ولم يستطع مقاومتها فذهب إلى الجامعة ليشارك فى النشاط السياسى الطلابى ساعدنا على ذلك عدد من الأمور منها استنفاذ عدد كبير منهم لمرات الرسوب خاصة بكلية الهندسة مما اضطرهم لمغادرة الجامعة والذهاب إلى الجيش للتجنيد أو الهروب من التجنيد وفى كل الأحوال كان يلجأ للحياة الداخلية للحزب.

وفى المساء كنت أضع أمامى شجرة تضم أعضاء الخلايا والأقسام المختلفة بالإسكندرية -هكذا أصبحنا حزبًا حقيقيًا- وأقوم باستعادة الدرس الذى سبق أن علمه لى صفوان المراغى والذى كنت أسميه درس الأراجوز أو درس البرص الذى يتصور نفسه ثعبانًا، فكنت أقوم

بتحديد كل الأبراص وأضعهم على قمم خلاياهم وفى المراكز القيادية وبذلك كنت أنجح فى فتح أبواب واسعة للغيرة والصراعات الداخلية التى لم تكن قد وقعت بعد بين أعضاء اللجنة القيادية المكونة من حسن ورشدى ورمزى وأبو عيشة، وكنت أتعجب لتأخر وقوع الانفجار، ولكننى كنت مع العميد صفوان أراهن بشدة على تقلص العمل الجماهيرى فى الجامعة يومًا بعد يوم وفى النهاية لن يكون لهم عمل سوى إدارة الصراعات ضد بعضهم البعض.

وعشت مع صفوان شهورًا طويلة فى انتظار لحظة الانفجار التى لا بد أن تلى زمن انعدام المهام الجماهيرية وخلو الساحة من كل ما هو جاد وحقيقي.

قال لى صفوان:- غدًا ستمتلئ الساحة بأنشطة أخرى خاصة بالمنافسة والغيرة وتضخم الذوات حين تتحول من بالونات صغيرة إلى مناطيد هائلة قابلة للانفجار والتشذر فى أى لحظة.

****

من الأشياء التى وقفت فيها فى حياتى اتخاذى حسنى النجار وصيفًا ومرشدًا حدثنى فى ربيع عام 1976 قائلاً:- الزمن القادم زمن القطاع الخاص لم أفهم ما يعنيه، استطرد شارحًا:- هناك اتجاه قوى لتفكيك القطاع العام وإعطاء الفرصة كاملة للقطاع الخاص.

صمت لحظة ثم سألنى فجأة:- لماذا لا تعمل بالسياسة.

أجبته وقد استغربت سؤاله وقد كنت لازلت أذكر حامد الغزولى العضو المنتدب الذى كان يعمل بالسياسة وعندما أخطأ فى السياسة خسر المنصبين معًا، السياسى والاقتصادى.

– لا أفهم فى السياسة ومع ذلك أخشى الوقوع فى أي خطأ

عقب معاتبًا:– كيف تدعى إنك لا تفهم فى السياسة وأنت من رجالها الكبار. خشيت أن يكون قد علم أو استنتج شيئًا عن علاقتى بتنظيم الإسكندرية أو بصفوان المراغى.

قطع أفكارى بقوله:– يجب أن تكتب استمارة عضويه بمنبر الوسط.

– وبعد؟!

– سوف أعد حملة صحفية وإعلامية لتلميعك وذلك بعد أن تتبرع بمبلغ مالى مناسب للمنبر.

قضيت ليلة كاملة أفكرٍ فى عرض حسنى النجار، إن تنظيمى الشيوعى على وشك الانهيار وأكاد أقول إننا قد وصلنا إلى نهاية الشوط، إن لم يكن فى هذا العام ففى نهاية العالم القادم على الأكثر، عندما ينعدم تمامًا النشاط الجماهيرى ولا يبقى مجال إلا للصراعات الداخلية. وسررت بالفعل لأن صراعًا قد بدأ يتجلى بين أبو عيشة وحسن منصور، فقد ظن "البورص" وهذا ما خمنته وتمنيته أنه قد أصبح زعيمًا للتنظيم بالفعل فبدأ فى التعامل مع حسن منصور بنوع من الكبرياء والغرور أديا فى النهاية إلى ضيق الأخير به ومكاشفته بأفعاله، مما اضطر أبو عيشة إلى أن يصارحنى بأن أخطاء حسن منصور قد

فاقت كل حد ولم أرد أن أتح الفرصة لأبو عيشة للإنتقام، يجب أن أدخر ضربتى وأؤجلها ولن أقوم بها إلا لتكون القاضية وانحزت فى حديثى لحسن منصور ضد أبو عيشه مستهدفًا إشعال الصراع بينهما.

إن انهيار هذا التنظيم يعنى نهاية الدور السياسى الخفى الذى كنت ألعبه، هذا الدور الذى رفعنى إلى المقعد الإستثنائى الذى أحتله الآن.

وهذا يتطلب منى البحث عن دور جديد ولا يوجد خير من هذا الدور الذى يعرضه عليَّ حسنى النجار فلن يحمل المستقبل تنظيما جديدا أقوم بتكوينه، ثم إننى يجب أن أستغل ذكائى ودهائى فى الوصول إلى مقعد أفضل مما أحتله الآن، وعلى حد علمى فإن مقعد رئيس مؤسسة هو آخر المناصب التى يمكن للتكنوقراط أن يحتلوها أما بعد ذلك فيجب أن يكون لى دور سياسى واضح ومميز.

والتقيت بحسنى النجار فى اليوم التالى وأخبرته إننى قد قررت أن أنزل إلى الشارع السياسى.

وقضيت الأيام التالية أستمع له ليشرح لى ما غمض عنى من أمور السياسة وليحدثنى عن التجمعات السياسية المختلفة فى الساحة بدءًا من اليسار إلى الجماعات الدينية والأخوان المسلمين.

استمعت إليه صامتًا كان موسوعة من المعرفة الخاصة بالشارع السياسى والشخصيات التى تلعب دورًا على الساحة السياسية، وخطر بذهنى أن أداعبه فسألته عن الأحزاب السياسية الموجودة تحت الأرض، وعندما فعلت، انطلق بنفس الفصاحة السياسية يحدثنى عن عدد من

الأحزاب والتنظيمات الشيوعية السرية ومن بينها حزبى وراح يصفه لى بأنه أقواها وأكثرها تنظيمًا وأكثرهًا تشددا، فى حين راح يصف حزبا آخر بأنه كبير العدد ويعتمد فى عضويته على قدامى الشيوعيين وأسرهم واقاربهم وأن من بين أعضائه عدد كبير من كوادر الأمن.

ضحكت فى سرى واستطردت فى أسئلتى المداعبة.

- وماذا عن الحزب الأول ألا يوجد بين أعضائه عناصر أمنية؟!

فكر برهه ثم أجابنى:- لا أظن وهذا سر قوته فيما أعتقد.

شعرت بالفخر والتباهى لأن حسنى النجار بكل خبرته السياسية لا يشك لحظة فى أن جميع أعضاء حزبى ليس من بينهم كادر أمنى واحد.

انتبهت على سؤاله:- لماذا تسأل عن الشيوعيين؟ أحرى بك أن تهتم بالسؤال عن جماعات التيار الدينى.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الزمن القادم هو زمن سطوة الجماعات الدينية تحت الأرض وفوقها.

- ماذا تعنى؟

- أعنى إن عليك أن تتخلص من اللهجة اليسارية أو الاشتراكيه التى كنا كلنا نتقنها فى زمن مضى وعلى العكس عليك تضمين عباراتك كثير من الألفاظ الدينية التى تدل على التقوى والإيمان.

معترضًا قلت:- أتريد لى أن أصبح مثل الإخوان المسلمين

ابتسم ضاحكًا وأجابنى:- يجب أن تُشعر كل فريق يبشر بسطوة آتيه إنك رجلهم القادم المنوط به تحقيق أحلامهم وآمالهم فى المستقبل.

شهدت الأسابيع والشهور التالية تنفيذ خطة حسنى النجار المستهدف منها تلميعى سياسيًا وإعلاميًا فعقدت لى العديد من اللقاءات الإذاعية والتلفزيونية، نشرت بعض الصحف صورى فى صدر صفحاتها، وعملاً بنصائح حسنى النجار دسست فى أحاديثى الأيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ولم يمر سوى ثلاثة شهور حتى أصبحت نجمًا من نجوم الميديا الإعلاميه المدافعين عن سياسات الحكومة بطريقة مقنعة حتى أطلق عليَّ كثير من الإعلامين نجم جيل أكتوبر.

فى الفترة الأخيرة أصبح التنظيم عبئًا عليَّ وعلى وقتى وعلى ذهنى فحتى لقاءاتى بنظيرة التى كانت الثمرة الناضجة التى تسكر حلاوتها فمى كلما شعرت بالضيق قد تقلصت الى حد إننى لم أستطع رؤيتها خلال عام كامل إلا مرتين اقتحمت فيها منزلها اقتحامًا متعللاً بظروف طارئة دفعتنى للقاء حسن منصور لإبلاغه بأمر ما.

سألت العميد صفوان أثناء زيارتى لمكتبه وأنا بالإسكندرية بعد أن أصبحت القاهرة هى مقر إقامتى الدائمة:- ألا توجد طريقة للتخلص من الشيوعيين دفعة واحدة؟ فلنلقى بهم في غياهب السجون لسنوات طويله مثلما فعل عبد الناصر.

ضحك آسفًا وهو يقول:- مضى هذا الزمن، فالآن توجد ديمقراطية وحقوق إنسان وعالم جديد وهذا فى الحقيقة يصعب من مهمتنا.

باقتراب موعد انتخابات مجلس الشعب قال لى حسنى النجار الذى كان يقضى نصف أيام الإسبوع معى بالقاهرة:- هل تعلم إن دخول مجلس الشعب عن طريق التعيين أيسر بكثير من الدخول عن طريق الانتخابات.

قلت معترضًا:- ولكن الدخول عن طريق الإنتخابات أكثر قيمة من الدخول عن طريق التعيين.

على العكس:- من يثق فيه رئيس الجمهورية أسعد حظًا ممن يثق فيه الشعب.

ضحكت ساخرًا وقلت:- معك حق ولكن كيف الطريق إليها....؟ أعنى العضوية بالتعيين.

- لن يتطلب الأمر منك سوى التبرع بمبلغ مالى وحضور اجتماعات منبر الوسط.

أعجبتنى الفكرة ولكن بقيت عقبة واحدة وهى ضرورة معرفة رئيس الجمهورية بى أو معرفة شخص يقوم بتعريفه عليَّ.

سرت خلف حسنى النجار، عملت بكل ما أشار عليَّ به، حضرت كل مؤتمرات المنبر بالقاهرة وتحدثت فيها، ألقيت خطبا عصماء لم أكن أعنى منها شيئًا، راح اسمى يتردد فى الأوساط

السياسة، حضرت معظم الحفلات التى يحضرها الوزراء وخاصة وزير الصناعة الذى قام بتعريفى على عدد كبير من رجال الدولة.

ولكنى دائما كنت أبحث عن الشخص الذى تؤدى معرفتى به إلى معرفة رئيس الجمهورية بى وكنت أخشى أن تذهب كل جهودى هباء إلى أن واتتنى الفرصة وذلك عند ما قرر السيد رئيس الوزراء ورئيس منبر الوسط نزول الانتخابات وبدأ البحث له عن الدائرة المناسبة، وكانت الدعاية الانتخابية قد بدأت وأقفلت كل الدوائر أمام المرشح الجديد الذى قرر دخول المعركة بعد بدء المعركة الانتخابة بأكثر من ثلاثة أسابيع.

وقامت الدنيا ولم تقعد إلا عندما قررت قيادة منبر الوسط (قيادة الدولة) نزول السيد رئيس الوزراء بدائرة كرموز بالإسكندرية وكان المرشح بها هو مرشح الدائرة التقليدى وهو عضو بارز بمنبر الوسط ومثله مثل الكثيرين كان قد قام بعمل دعاية انتخابية مكثفة فى كل أرجاء الدائرة، فلم يوجد مقهى إلا ويحمل على واجهته لافتاته الانتخابية.

رأيت أن الفرصة مناسبة للتعرف على الرجل الذى سيقوم بتعريفى برئيس الجمهورية نزلت إلى الإسكندرية، جمعت رؤساء مجالس إدارات شركات الغزل وكذلك أعضاء اللجان النقابية وطرحت على الجميع المشكلة وتعاهد الجميع على حلها، توجهنا إلى حي كرموز يقودنا أعضاء اللجنة النقابية بالشركة الأهلية للغزل والنسيج وكذلك كبار الموظفين بالشركة من أبناء الحي.

تولى حسنى النجار الأمر نيابة عنى، قام بتوزيع الرجال على المقاهى المختلفة لم تمر سوى أيام ثلاثة حتى كانت جميع المقاهى قد استبدلت لافتاتها باللافتات الجديدة التى قام رجالى بعملها عى نفقة شركاتهم، لم يكلفنى الأمر جهدًا كبيرًا، فلم يستطع اسم الصحفى المرشح التقليدى للدائرة الصمود أمام اسم رئيس الوزراء.

فى أيام ثلاثة نسى الناس اسم الصحفى تمامًا وأصبح اسم رئيس الوزراء ملء السمع والأبصار.

بعدها رتب لى حسنى النجار لقاءً مع السيد رئيس الوزراء وكان قد وصله تفصيليًا ما فعلت، استقبلنى فى مكتبه مرحبًا، سرد على ما سمعه عن مجهوداتى فأحنيت رأسى تواضعًا وأنا أذكره بأن هذا واجب كل مواطن شريف فى هذا البلد.

أثناء اللقاء وجدته يجمع رجال مكتبه ومدير دعايته بالمعركة الانتخابية واعتمدنى فى حضورهم جميعًا رجله الأول بالدائرة، فقمت بتهنئته مقدمًا بالفوز مؤكدًا له أن نجاحه سيكون نجاح لمصر كلها.

فى الأيام التالية أقمنا ثلاث مؤتمرات للسيد رئيس الوزراء بأماكن مختلفة من الحى، قمت بطباعة الآلاف من البطاقات الإنتخابية لعمال الشركة العربية والشركة الأهلية وشركة سباهى والكتان والإسكندرية وحتى لبعض العمال بشركات القطاع الخاص التى تتعامل مع شركاتنا وسلمنا البطاقات للعمال لإنتخاب السيد رئيس الوزراء.

فى يوم الانتخابات كرسنا كل عربات شركات الغزل والنسيج بالإسكندرية وكفر الدوار ومعظم عربات شركات الغزل والنسيج

بالقطاع الخاص لخدمه معركة السيد رئيس الوزراء فشحنا العمال شحنًا إلى المقار الانتخابية فى مقابل أن ينعموا بالراحة مدفوعة الأجر بقية اليوم.

عقب نجاحه الساحق من الجولة الأولى ذهبت لتهنئته فاستقبلنى مرحبًا وقال مؤكدًا إن مصر ومنبر مصر العربى الاشتراكى لا ينسيان رجالهم المخلصين، وقررت أن أطرق الحديد وهو ساخن فأعربت عن رغبتى بمشاركة سيادته المسئولية بدخولى المجلس عن طريق التعيين.

استقبل طلبى مرحبًا ووعدنى خيرًا.

وعقب مقابلتى بإسبوعين وقبل افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة ورد اسمى ضمن الأعضاء المعينين بالمجلس

******

أثناء زيارتى الشهرية للإسكندرية فوجئت بحسن منصور يطرق باب شقتى، عندما فتحت الباب فوجئت بعلامات التجهم والغضب يكسوان ملامحه، استقبلته بتعبيرات جامدة، فقد خمنت ما يمكن أن يكون قد أغضبه وكنت أتوقع غضبه منذ زمن منذ أن عينت عضو مجلس إدارة متندب ثم عندما عينت رئيسًا لمؤسسة الغزل ولكننى فى المرتين كنت أنجح فى إقناعه، لذا كنت أجده أكثر سعادة منى بالمنصب الجديد الذى عينت فيه.

سألته ساخرًا وأنا أفسح له مكانًا للجلوس فى صالة الاستقبال الواسعة:- ماذا وراءك.؟

بدوره سألني:- ألا تستطيع أن تخمن؟

انقلبت سحنتي واكتست ملامحي بملامحي الذئب الغاضب صحت فيه.

- جئت تسألني عن سبب قبولي عضوية المجلس وعن سبب مساعدتي لرئيس الوزراء، اسمع يا زميل نحن لا نمزح ولا نهرج وبمعنى أدق لسنا هواة سياسة... إن حزبنا أكبر مما تتصور وأبرز أساليبنا للوصول إلى السلطة هو اختراق الطبقة الحاكمة ذاتها

في هذه المرة لم يرضخ حسن لثورتي ولم يصدق أكاذيبي، بدت ملامحه رافضة لعباراتي، صرخ مقاطعًا:- هل هذا الإختراق يصل إلى درجة تزويرك للانتخابات لصالح رئيس الحكومة.

استطردت وقد رأيت أن من الأفضل أن أضاعف من حجم ثورتي أجبته وأكثر من ذلك إنك كعادتك لا ترى إلا الجزء العائم فوق السطح من جبل الجليد.

كنت أعلم إنه لم يفهم عبارتي الأخيرة ولكني تعمدت أن أحشرها حشرًا لتذكيره بأنه لا يمكن أن يفهم الأمور كما يمكن أن يفهمها مثقف مثلي.

هتف:- لا أصدق.

أشحت بوجهي بعيدًا عنه وأنا أقول:- صدق أو لا تصدق كما تشاء فلست وحدي الذي دخل المجلس، بل دخل معي كثيرون من أعضاء الحزب تحت عباءات منابر مختلفة ومنها منبر الوسط.

كرر:- لا أصدق.

انتفضت غاضبًا وانا أهدده بأنه سيحاسب حسابًا عسيرًا على عدم ثقته بمسئوله اعتبر غضبتى عليه أمرًا له بالانصراف فنهض واقفًا واستدار مغادرًا الشقة وفى اليوم التالى التقيت بأبو عيشة وبعد أن أخبرته بما جرى أمرته أن يعقد محاكمة حزبية للزميل توصى بفصله ثم ملت عليه هامسًا:- إن الغيرة تكاد تقتله، إن الذاتية البرجوازية اللعينة نجحت فى تحويله إلى ذئب بشرى لا يعى ما يقول. وقبل انصرافى من لقاء أبو عيشة لم أنس أن أذكره بمقولة لينين الشهيرة:- إن الحزب يقوى بتطهير نفسه.

هز "البورص" رأسه متظاهرًا بالفهم وقال بثقة أغاظتنى:- أعلم هذا جيدًا أنها الذاتية البرجوازية اللعينة.

وبعد يومين أخبرنى البورص وهو يرقص سعيدًا إنهم قد اتخذوا قرارًا بالإجماع بفصل حسن منصور.

وفى الأيام التالية سمعت أخبارًا كثيرة عن تصرفات رعناء للزميل المفصول، فقد راح يوزع الاتهامات والشتائم على كل أعضاء الحزب بدءًا من قياداته حتى أصغر أعضائه ولم يمض سوى إسبوعين حتى أصبح الحزب بكل أعضائه يتخذون موقفًا معاديًا له.

كان حسن منصور قد فصل من شركته عقب خروجه من السجن بفترة قصيرة وذلك لتغيبه عن العمل، وكان هذا أمرًا متعمدًا بعد أن أصبح على رأس قائمة المحترفين الحزبيين المتفرغين للعمل السياسى والذى يعيشون هم وأسرهم على الإعانات الحزبية. وبفصله من الحزب قطعت الإعانة المالية عنه وأصبح بلا دخل.

سمعت عن سوء أحواله المالية، ولم أكن أفكر إلا فى لقاء نظيرة وأصبحت أهمية أى أخبار أسمعها عن حسن تتمحور فى كونها تقربنى أو تبعدنى عنها، واتتنى فرصة لقائها عندما سمعت بخبر سفره إلى العراق، حدثتها تليفونيًا وطلبت لقاءها.

سرنى أن تلقانى بملابس رثة لا تتناسب مع الكازينو الذى كنا قد اعتدنا اللقاء فيه طوال فترة اعتقال زوجها.

أبديت أسفى وانزعاجى للمستوى الذى وصلت له، سألتها أن تقص لى أخبار حياتها مع حسن، كانت تنتظر سؤالى، راحت تقص لى تفصيليًا كيف أن أخلاقه قد ساءت كثيرًا فى الفترة الأخيرة وبالذات تلك الفترة التى أعقبت مشاجرته معى، وكيف إنه راح يسبنى بمناسبة وبدون مناسبة وفى أكثر من مرة دافعت عنى فكان هذا يثير غضبه حتى الجنون فقام بضربها فى إحدى المرات ضربًا مبرحًا.

سألتها إذا كان قد بعث بنقود لها بعد سفره فأجابتنى بأنه لم يفعل، لم يبعث بقرش واحد منذ سفره وإنها هى والأولاد تكاد تتضور جوعًا.

تألمت بالفعل لما سمعته منها وشعرت بكراهية عميقة له وتساءلت مستنكرًا:- كيف يعطى الله كل هذه النعمة لرجل فيركلها بحذائه؟ هل خلق هذا الوجه الجميل ليصفع أم لتلثمه الشفاه حبًا وتقديسًا؟ هل خلق هذا الجسد الرائع ليدفع ويلكم أم ليحتوى داخل الأحضان.؟

يبدو أن ملامح ألم شديدة قد ارتسمت على وجهى حتى أنها راحت تهون الأمر عليَّ، فى نهاية الجلسة أعطيتها مبلغًا كبيرًا، وطلبت

منها أن تبتاع ثيابًا جديدة لها ولأولادها وأن تنفق على نفسها وعلى أولاها كما يجب أن تنفق أسرة ميسورة. كادت تنحنى على يدي تقبلها، انتهزت الفرصة وربت على وجنتها بباطن كفى لأول مرة ألمس بضعة سنتيمترات من وجهها فكان لهذا الملمس تأثير النار فى الهشيم، قلت وأنا أضع عيني فى عينيها:- أنت لا تعرفين ما أكنه لك من حب ومعزة.

ارتجفت نظرة خجلى فى عينيها، كست حمرة دموية بشرتها فزادتها حمرة على حمرة وجمالاً على جمال وسألت نفسى مسرورًا: ترى هل بدأت تفهم أو تشعر بما ترمى إليه عباراتى؟

سألتها هامسًا:- هل يمكن أن تعتبرينى رب أسرتكم؟

سألت بدورها:- وما ذنبك؟

يا للبلهاء، ألازلت تسألين عن ذنبى، وهل هناك سوى الحب ذنب.

أجبتها: لقد تلقيتى إجابتى منذ لحظة، عادت الحمرة الدموية إلى وجنتيها من جديد، فأدركت أنها قد أدركت ما أهدف إليه فهتفت التعبيرات المرتسمة على ملامحى والمطلة من عينى:- لما المراوغة إذن يا حفيدة الملائكه؟!

نهضت واقفة تهم بالإنصراف، فنهضت قبالتها وضعت ذراعى على كتفيها وضغطت عليهما وأعدت إجلاسها، هامسًا باسمها ومحدقًا فى عينيها، تشابكت نظراتنا فتضاعف خجلها وارتباكها غمغمت:- أستاذ مدحت أنت أخى.

عقبت محددًا مخارج ألفاظى:- أنا أخوك ما دام لك زوج يرعى شئونك وشئون أولادك، أما عندما يتخلى عن دوره فإن الأخ يمكن أن يصبح رجلك يمكن أن يصبح زوجك.

غمغمت بكلمات تفيد عدم تصديقها ما تسمع، همست جادًا:- لقد رغبتك منذ زمن ولكنى كتمت مشاعرى وقاومتها فلا يصح أن أكون سببًا فى دمار أسرة، أما وقد جن ربما فواجبى أن أسعى لبنائها.

آسفه قالت:- ولكنه لا زال زوجى.

سعدت بتعقيبها فهى تتقدم نحوى برنة الأسف الواضحة فى لكنتها، قلت مشجعًا:-

- ليس هناك أيسر من طلاقك منه فهو شرعًا لا ينفق على أسرته.

نهضت وافقه على حين فجأه قالت:- دعنى أنصرف الآن.

أدرك مدى الحرج الذى تعانيه فى هذه اللحظة وقدرت مدى حاجتها للانفراد بنفسها لتفكر، بسرعة أجبتها:- على أن ألقاك فى الغد.

أومأت برأسها دون أن تنطق بكلمة وهرعت مهرولة ومغادرة الكازينو وهى تتعثر فى خطواتها.

كان من الصعب أن أعود إلى منزلى عقب انصرافها، خشيت أن أنفرد بنفسى وتنفرد بى الجدران الأربعة، لا أصدق تفاصيل كل تلك الجلسة، إن زواجى من نظيرة أثمن لدي من كرسى الوزارة نفسه،

هاتفت حسنى النجار، طلبت منه أن يلحق بى فى منزلى، وعندما وصلت إلى جليم، وجدته ينتظرنى أمام باب العمارة، اصطحبته إلى شقتى، راح يحدثنى عن الجهود المبذولة لتلميعى للوصول إلى كرسى الوزارة، بعد أن هنأنى مقدمًا بالكرسى المنتظر بعد برهة صمت غيّر موضوع الحديث وراح يحدثنى عن إمكانية الحصول على توكيل عالمى لسيارة جديدة سوف تغزو بها شركة كورية الأسواق المصرية والعربية، لم أنبس بكلمة كان معروف عن حسنى إذا سمحمت له بالحديث فإنه لا يكف عنه، جئت به ليسمعنى فإذا بى أسمعه ورغم هذا لم أكن أستطيع أن أحدثه عن نظيرة، جاريته سائلاً:

-- كم يتطلب التوكيل؟،

أجابنى:- فى حدود نصف مليون دولار.

ثم أردف مؤكدًا:- والأرباح مضمون أن تصل إلى هذا المبلغ فى العام الأول.

سألته:- ألا توجد مشاكل أخرى؟

أجابنى:- يوجد مشكلة واحدة،

- ما هى؟

أجابنى:- اسم الشخص الذى سيكتب التوكيل باسمه.

أجبته بسرعة:- السيدة نظيرة حسن مكرم

سأل مستغربًا:- من تكون السيدة نظيرة حسن مكرم؟

أجبته: زوجتى

- إنك غير متزوج؟

- سأتزوج،

- متى؟،

سألته بدورى:- ما عدد شهور العدة؟

أجابنى وهو لا زال مستغربًا:- أظنها أربعة أشهر.

صححت معلوماته:- بل ثلاثة.... ثلاثة أشهر وعدد من الأيام وتصبح زوجتى.

فى اليوم التالى قابلتنى فى ملابس جديدة أبرزت تناسق الجسد وأكدت تضاريسه، أما الوجه فقد غزاه مكياج خفيف ضاعف من جماله. ضمنت إجابتها بمجرد أن لمحتها تدلف من باب الكازينو فى ثيابها الجديدة بمجرد جلوسها بادرتها قائلاً:- سنذهب صباح الغد إلى الشهر العقارى لتعملى توكيل للمحامى

سألت:- بخصوص؟، بخصوص طلاقك من حسن منصور.

سألت باسمة:- وهل أخذت موافقتى؟

أجبتها واثقًا:- أخذتها من عينيك، لم تطل بنا الجلسة، نهضنا متوجهين إلى محام أثق به فى ميدان محطة الرمل، أخبرنى إن عليَّ أن أنتظر شهرًا على الأقل قبل أن أحصل على الطلاق، نفحته مبلغًا ماليًا كبيرًا وأنا أقول له:- أوقف كل أعمال مكتبك لتتفرغ لهذه القضيه وعليك أن تختصر الشهر إلى أقل فترة ممكنة.

بدورى تفرغت لنظيرة عهدت بها إلى شمس الطرابلسى وكانت قد طلقت من يوسف عزوز وخرجت المغامرة بما جعلها من صاحبات الأملاك قدمت لها نظيرة على إنها زوجه المستقبل، اعترصت قائلة إنها لا تناسبك، لم أعر أعتراضها اهتمامًا وسألتها ساخرًا:- وهل كنت تناسبين يوسف عززوز عندما تزوجتيه؟

رمقتنى بنظره حادة وهى تتسائل متصنعه الغضب:- والمطلوب؟، أجبتها:- عليك أن تحوليها إلى امرأه تناسبنى

سألتنى:- لماذا اخترتنى لهذه المهمه؟

أجبتها:-لأنك خير من تصلحين لها

وبدلال أكملت:- ولأنك تحبيننى ولن تؤخر لى طلبا.

عادت الابتسامه إلى شفتيها وانفثأ غضبها المصطنع

وقالت:-صدقت يا باشا.

وقبل أن نفترق حاولت أن أعطيها مبلغا من المال ولكنها كعادتها رفضت وهى تقول:- مصاريف التغيير هدية الفرح يا باشا.

مضت أيام العدة ثقيلة ولكن ما خفف من ثقلها هو إننى لم أكن أفارق نظيرة إلا ساعات النوم حيث أصبحت أدير كل أعمالى من الإسكندرية، ولكن فى نهايتها زفت نظيرة إليَّ فى شقة جليم، وسرى بين أعضاء التنظيم ووسط رواد صالون زاهية زهدى أقاويل كثيرة ولكن كلها كانت تحبذ زواجى من نظيرة وتضفى عليَّ صفات البطولة والشهامة حيث إننى قمت بإنقاذ الزوجة هى أولادها من الجوع بعد أن هجرها عائلها وتركها بلا مورد.

فى الأيام التالية لزواجى بنظيرة داهمتنا أحداث الثامن عشر والتاسع عشر من يناير، ساءنى أن يضطر رئيس الدولة إلى الهروب من البلاد بالروب والشبشب على متن طائرة هليكوبتر استقلها من حديقة استراحته بأسوان.

اهتزت أشياء كثيرة فى داخلى وخشيت ألا تتاح إلىَّ فرصة التمتع بشهر العسل، نسبوا حركة الشارع العفوية إلى التنظيمات السرية المجهولة ولكن بعد يومين عاد الهارب ونسبها إلى المعلوم حزب التجمع اليسارى واعتقل المئات ولكن فى اجتماعى مع صفوان المراغى اعترف أن حزبنا برئ من هذه التهمة بعد أن تم تسكين أعضائه من الطلبة فى الغرف المغلقة كما تم تسكين أعضائه من العمال فى نفس الغرف من قبل.

وفى اجتماعى مع أبو عيشة ورمزى ياسين، جاريتهم فى الكذبة التى ادعوها بأن حزبنا هو الذى صنع المناخ لهذه الهبة العفوية.

وفى مجلس الشعب وقفت أندد بأعضاء حزب التجمع حتى إننى طالبت بمحاكتهم محاكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى.

وفى الشهور التالية وكنت قد نقلت حياتى مع نظيرة وأولادها إلى القاهرة وقضيت يومى بين المؤسسة والمجلس، قمت بتأييد رئيس الدولة على طول الخط فى اعتدائه على ليبيا وفى إدانة الإرهاب ثم فى رحلته إلى القدس.

وفى أول زيارة لى بعدها لصالون زاهية زهدى قامت بطردى شر طردة فى حضور عدد كبير من رواد الصالون، ولشدة غضبى كتبت

عنها تقريرًا تصورت وقتها أنه سيفضى إلى اعتقالها فى نفس الليلة ولكن صفوان المراغى لم يعره الاهتمام المأمول.

كنت أرصد مفردات عالم جديد ولد وبدأ يتشكل حولى، خاصة بعد أن حصلت على توكيل السيارة الكورية الجديدة باسم نظيرة زوجتى وتوالت بعدها التوكيلات فى مجالات عديدة.

وفى العام التالى وعندما وقع الرئيس السادات معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل، كانت شركة الاستيراد التى تملكها زوجتى من الشركات التى عقدت صفقة استيراد مواد غذائية من إسرائيل الإمر الذى باركه رئيس الجمهورية بنفسه فى خطابه السياسي، وبعدها عقدت الشركة العديد من الصفقات مع اسرائيل وفى كل الأوقات وكلما جلست خلف مكتبى أجد نفسى أنتظر المكالمة التليفونية التى ستستدعينى لمقابلة رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء لتكليفى بمهام الوزارة فى التشكيل الوزارى الجديد.

في ظلمة الزنزانة كانت تصرخ:

"لو كنتم حقًا رجالا، لو كنتم حكامًا عادلين، لما أصبحت البلاد تحتوي على مئات وآلاف مثلي يملئون شوارع القاهرة والإسكندرية، لو كنت رجلا يا أسعد طه، لما استخدمت رجولتك وفحولتك في تعذيب وإيذاء امرأة مسكينة مثلي، إنني سعيدة بتلك الفرصة التي حصلت عليها بالصدفة، فرصة أن أوقف ترقيتك، وأضيع عليك، وعلى آخرين يعملون معك، فرصة نسج قضية كبيرة، تحلمون فيها بالتهام لحم الأبرياء".

روايتان في كتاب واحد يقدمهما أحمد السعيد بخبرته "كمهندس" في الحياة والعمل السياسي، وخبرته ككاتب له العديد من التجارب الابداعية.

